الكتاب الذهبي

علي أحمد باكثير



الثائر الأحمر



علي أحمد باكثير

- ولد فى أندونيسيا سنة ١٩١٠ من أبوين عربيين
- أرسله والده الىحضر موت حيث تلقى ثقافته العربية والاسلامية
- أولع بالادب من صغره وبدأينظم الشعر فى الثالثة عشرة من عمره
- رحل الى الحجاز حيث أمضى عاما وهناك كتب مسرحيته الشعرية « همام » وهى أول كتاب ظهر له
- قدم الى مصر لتلقى العلمسنة١٩٣٣
- حاز ليسانس كلية الاداب قسم اللغة الانجليزية سنة ١٩٣٩وحصل على دبلوم معهد التربية للمعلمين سنة١٩٤٠
- اشترك فى سبع مباريات أدبيـة فاز فيها جميعا بجوائز القصة والمسرحية من وزارة المعارف ووزارة الشـــؤون الاجتماعية .
- أخرجت له على مسرح دار الاوبرا الملكية مسرحية « سر الحاكم بأمر الله » ومسرحية « مسمار جحا » وظهرت له على الشاشة البيضاء قصة « سلامة » تمثيل أم كلثوم .
- كتب حتى الان حوالى ٢٥ كتابا بين قصة ومسرحية
- أحب مصر واتخذها وطنه وحصل على الجنسية المصرية
- شديد الايمان بالوحدة العربيـة وبالجامعة الاسلامية ويظهر هذا الاتجاه فى كتاباته
- مدرس فى مدرســة الدواوين الثانوية بالقاهرة
- متزوج

علی أحمد باكثير

الثائر الأحمر

الكتاب الذهبي

العدد السابع عشر – اكتوبر سنة ١٩٥٣
يصدره نادی القصة

بسم الله الرحمن الرحيم

واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا .

« قرآن كريم »

السفر الاول

- ١ -

في ضاحية من ضواحي قرية الدور ، احدى القرى المنتشرة حول الكوفة مما يلى البطائح ، وعند الظهيرة من أحد أيام الصيف القائظة ، طفق حمدان يمسح بأطراف أصابعه العرق المتصبب من جبينه ، وهو يعمل فى حقله ، واحدى رجليه على سنة المحراث والاخرى يرفعها عن الارض حينا ، ويلمس بها الارض حينا ، وقد أمسك بخطام الثور الذى يسير أمامه يجر خطوه جرا ثقيلا ، والسوط فى يمينه ينكت به مترفقا على ظهر صاحبه الاعجم كلما توقف عن المسير أو تثاقل فيه ، وكأن لسان حاله يقول : «أيها الثور الحبيب ، كلانا محكوم عليه أن يعيش فى هذا الشقاء ، وهذا السوط فى يمينى ، ويعز على أن يقع على ظهرك ، فلا تحوجنى الى استعماله» .

ويبلغ حمدان نهاية الشوط ، فيدير الثور ويكر بالمحراث راجعا ، فيتنفس الصعداء اذ تقع عينه على تلك الاخاديد التى خطها بالمحراث على وجه الارض صفوفا مستقيمة مستوية ، كأنها سطور خطها قلم كاتب صناع ، وترتاح نفسه لرؤية الصنيع الذى قام به وجه يومه ذاك ، وغدا يبذر فيها الحب ، ويرسل اليها قنى الماء من فروع الرافد الغربى ، فترتوى تلك الارض العطشى ، ثم لاتلبث الا أياما حتى يكسوها النبت ، فتصبح جنة خضراء تسر الناظرين .

ولكنه مالبث أن شعر بالاسى يعصر قلبه فترتعش له أوصاله حين يثب به خاطره الى يوم الحصاد ، فيتذكر أن ليس له من هذا العمل الدائب والجهد الناصب الذى يقوم به وأهل بيته طول يومهم فى لفح الهجير وتحت الشمس المحرقة ، وزلفا من ليلهم متعرضين للبرد القارس فى ذلك الجو القارى ، الا نصيب ضئيل لايكاد يقوم بأودهم من جشب الطعام وخشن الملابس ، ولا يضمنون به أن يمر عامهم ذاك دون أن يجوعوا يوما لايجدون فيه حتى ذلك العيش الكفاف ، حين يلم بأحدهم ما

يقعده عن العمل من مرض أو مشغلة ·
على حين يذهب معظم ماينتجه عملهم المتواصل الى خزائن شاب قاعد عن العمل مشغول بملذاته وملاهيه في قصوره المتعددة وجواسقه المنتشرة في ضواحيها ، لايدرى كيف ينفق ماله من كثرته ، أو كيف ينفق وقته من فراغه ، ولا يحول عليه حول حتى تضاف الى أملاكه الواسعة أملاك جديدة يعمل فيها عشرات من أمثال حمدان واهله ليسدوا جوعهم وليضاعفوا ثروته أضعافا مضاعفة ، ذلك هو سيدهم ابن الحطيم مالك الارض التي يعمل فيها حمدان والاراضى الواسعة حولها التي تمتد من جهاتها الاربع أميالا وأميالا حتى لايكاد العاملون فيها يعرف بعضهم بعضا ·
ان هذا الشاب الثرى الذى قضت الايام على حمدان أن يعمل في أرضه فصار بذلك سيده ، والذى لم ير حمدان له وجها الى يومه ذاك ولا يعرف عنه الا اسمه المشهور في تلك الانحاء وسيرته الخليعة التي يتحدث بها أهل تلك المنطقة ، ويروونها فيما بينهم كما يروون أساطير الاقدمين ـ لهو انسان مثل حمدان ، قد خرج الى هذه الدنيا من صلب آدمى مثل والده وترائب أنثى كأمه ، لايمتاز عنه بشيء الا أن أباه الحسن الحطيم قد ترك ضياعا واسعة في تلك الجهة ،فكفاه بها مشقة العمل ، وملكه رقاب عباد الله المحتاجين الى العمل فيها ليقيموا به أصلابهم ·
كان الحسن الحطيم ـ فيما يروى حمدان عن أبيه ـ يملك خمس ضياع متفرقة في تلك الناحية يفصل بين بعضها وبعض ضياع صغيرة لغيره من صغار الملاك والمزارعين ، كان جلهم يعمل في أرضه بنفسه ويستغلها لحسابه ، فجعل الحطيم يستخدم ماله وجاهه عند السلطان في الاحاطة بأولئك الملاك الصغار والتضييق عليهم بمختلف الوسائل وشتى الطرق ، فحينا يدفع الاشقياء الى اتلاف القنى التي تسقى تلك المزارع وحينا يغرى اللصوص ليسطوا على ثمارها ليلا أو يفسدوا زرعها او يشعلوا النار في سنابلها قبيل الحصاد ، وحينا يرشو عامل القرية ليوعز الى جباته الغلاظ أن يفرضوا على أولئك المساكين خراجا أكبر مما تحتمله أرضهم ، ويشتطوا

في مطالبتهم بذلك حتى يرهقوا كواهلهم ويضطروهـــم الى الاستدانة ، اما من يهودى القرية بالربا ، أو من أحد تجارها على أن يستولى التاجر على غلات أرضهم أو ثمارها بالاسـعار التى يقترحونها، فما لبث الملاك أن رهنوا أملاكهم، ثم مالبثت الرهون أن غلقت ، فيتقدم سماسرة الحطيم لشرائها واحدا بعد واحد بأثمان مبخوسة ، فما هى الا أعوام معدودة حتى اتصلت ضياع الحطيم بعضها ببعض ، وصارت تلك الناحية كلها ملكا خالصا له ، وما ينس حمدان من الاشياء فلن ينسى أن والده كان أحد أولئك الملاك الصغار الذين سقطت أملاكهم فى يد ذلك المالك الكبير ، ولو بقيت لوالده ضيعته الصغيرة اورثها عنه ، فاستطاع أن يعيش فيها عيشة طيبة هو وأهله وعياله ، ويتمتعوا بثمرات عملهم وكدهم .

ولم يثبت للحطيم فى ميدان الصراع على امتلاك أراضى تلك المنطقة وانتزاعها من ايدى اهلها الصغار الا مالك كبير آخــر هو أبو الهيصم ابن ابى السباع من وجهاء تلك القرية ، له مثل مال الحطيم وجاهه ونفوذه ومطامعه ، وقد سلك مثل السبل التى سلكها منافسه ، وتم له من الاستيلاء على أملاك جيرانه الضعفاء قريب مما تم للحطيم وهكذا أصبح هذان المـــالكان سيدى القرية ، يتنازعان النفوذ فيها لدى ذوى السلطان من عامل القرية الى والى الكوفة الى الوزراء ورجال البـــلاط فى عاصمة الخلافة .

وقد أدى التنافس المستعر بين هذين المـــالكين ، ثم بين وارثيهما بعدهما ، الى انقسام أهل القرية وما حولهـــا الى حزبين كبيرين يتعصب أحدهما لآل الهيصم والاخـــر لآل الحطيم ، وقلما يمضى يوم دون أن يتشاجر اثنان من أتباعهما أو يتسابا فى سوق القرية أو فى جامعها أو فى أحد أزقتهـــا وقد يعظم هذا الشجار فيشمل أهل القرية جميعا ، ولا سيما فى الاعياد والمواسم أو الولائم الكبيرة التى يولمها أحد البيتين فتصبح القرية ميدان قتال بين الفريقين بالعصى والحجـــارة والخناجر والسيوف ، تسيل فيه الدماء ، وتنهب الحوانيت وتتعطل مصالح الناس يوما أو يومين حتى يتمكن عامل القرية وشرطته من الحيلولة بين الفريقين ووضع الامور فى نصابها

ولا يقتصر هذا التحزب والخصام على سكان القرية ، بل يتعداهم الى الفلاحين والاكارين الذين يعملون فى أرض المالكين الكبيرين ، فكثيرا مايقع العراك بينهم فيسقط منهـم صرعى كثيرون فى سبيل الشيطان ارضاء لنزوات هذين السـيدين اللذين يتحكمان فى رقابهم بامتلاكهما الارض التى فيهايعملون

وتلى هذه المشاجرات مقاضيات ومحاكمات واحكام تصدر بالسجن على بعض والغرامة على بعض والجلد على آخـرين ، ولكن السيدين الكبيرين اللذين كانا مصدر البلية كلها يبقيان بمعزل لاتمتد اليهما يد القضاء ، وقد يقضي أحدهما ليلتـه المشئومة بأحد أبهاء قصره فى قصف وشراب مع خلصـان ندمائه وفيهم عامل القرية ، لاينهنههم عما هم فيه من اللهو والمرح مايحمله الظلام اليهم من عويل النوادب فى القـرية وهى تنوح على موتاها .

وقد اكتوى حمدان بهذه النار فيمن اكتوى ، فانه ليذكر ما أصابه واصاب ابن عمه عبدان ذات ليلة وهمـا يزوران صديقا لهما من الفلاحين الذين يعملون فى أرض الهيصـم ، فبينما يسمران عنده اذا بنبأ سرى فى الضيعة بأن قتالايدور فى القرية حينذاك بين أتباع سيدهم وأتباع ابن الحطيم ،واذا عصبة من الفلاحين يقتحمون كوخ المضيف بعصيهم وفؤوسهم يريدون أن يضربوا حمدان وعبدان على الرغم من توسـلات المضيف اليهم أن يكفوا عنهما لانهما فى ضيافته ، ولا يجوز الاعتداء على الضيف ، فاضطر حمدان وعبدان أن يقاتلاهـم دفاعا عن أنفسهما حتى تمكنا من الهرب ، واتفق أن أصـاب حمدان أحدهم بضربة فى فمه سقطت لها أسنانه فكان أن حكم عليه بدفع غرامة ثقيلة ظل يشكو عقابيلها عاما كاملا .

كان حمدان فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره قوى البنية جلدا على العمل ، بشوشا لاتكاد الابتسامة تفارق شفتيه حتى فى أحلك الساعات واهول الخطوب ، ولكنه يحمل وراء هذا الخلق الرضى ، وهذا الثغر البسام ، قلبا يضطرم بالثورة على تلك الاوضاع التى يراها جائرة لايجوز لبنى جـلدته أن يتحملوها صابرين ، ولا يعتبرها الا فترة من فترات الظـلم والاضطراب لايمكن أن تستقيم عليها حياة الناس ، فلاينبغى

أن تستمر طويلا ٠٠٠ كان يعتقدأن مابناه المال والنفوذلايمكن أن يهدمه الا المال والنفوذ ، فأنى له هذان وهو لايكاد يملك عيشة الكفاف لنفسه ولعياله الا بمشقة وجهد ، وبعد أن يقدم لسيده ابن الحطيم أضعاف أضعاف ذلك من كد عامهم ٠

انه ليسائل نفسه أحيانا : أحر هو أم رقيق ؟

نعم ان ابن الحطيم لم يشتره من النخاسين ولم يدفع ثمنا له فهو لذلك حر فى عرف الناس ؛ ولكن ابن الحطيـــم يملك ناصيته ويتحكم في رزقه ، فجعله بذلك كأنه من رقيقه ؛ بل عسى أن يكون الرقيق أحسن حالا منه واطيب بالا اذ يشعر أن مولاه لابد أن يعني بشأنه لئلا يخسر قيمته حين يصيبه مكروه ، وليس الاجير الحر كذلك ، فما أكثر ماتخدع الاسماء

كانت تدور هذه الخواطر وأمثالها فى رأس حمدان ، وهو يشق الارض بمحراثه فى ذلك اليوم الشديد الحر ؛ فلا يعوقه ذلك شيئا عن الاجتهاد فى عمله وبلوغ الغاية فيه ؛ وفى جانب آخر من الحقل غير بعيد منه ، كانت شقيقتاه عالية وراجيـــة تعملان فى تكسير الركام وتسوية التربة التى كان أخوهما قد حرثها من قبل، وكان الحديث يدور بينهما بصوت خافض ويتناول مايطيب لهما الخوض فيه من شئون جاراتهما من نساء الفلاحين وفتياتهم ، فهذه الجارية فلانة قد خطبها فلان ولكنه عجز أخيرا عن دفع مابقى عليه من مهرها فانتهى أمـــره بفسخ الخطبة ، واخذ يطالب أباها بالجزء الذي دفعه من المهر فلم يعطه شيئا ، مدعيا أنه قد أنفقه في تجهيزها ، فرفـــع أمرهما الى قضاء القرية، وهذه فلانة امرأة فلان قدوضعت ثلاث توائم ، وانهما لتعجبان من ذلك الرجـــــل القمىء الضعيف المتضائل كيف استطاع ا يــــــولدها ثلاثة فى بطن ، وتلك فلانة ابنة صديقة أمهما ، قد طلقها زوجها لانها لم تحبل بعد أن عاشت معه سبع سنوات ، ثم تبين له بعد تطليقها أنهـا حملت منه ، فليت شعرىهل يراجعها بعد ماتزوج امرأةأخرى

كانت الفتاتان تتحدثان وهما منهمكتان فى عملهما ، ولا تنقطع احداهما عنه الا ريثما تسوى مااختل من نظام شعرها بين الفينة والفينة ، أو تصلح العصابة التى تمسكه أنيتهدل على وجهها، أو ريثما تدير ـ اتقاء للشمس ـ المظلة التىتلبسها

على رأسها من خوص النخل، أو ترفع جيب قميصها عن صدرها الناهد وقد لصق به لصوقا شديدا من العرق فيبرز نهداها بروزا صارخا يشعرها بالخجل اذ يخيل اليها ـ ان حقا وان وهما ـ أن قميصها على سواده قد يشف عن سواد حلمتيها ٠

قالت عالية لاختها ، وقد نظرت اليها فرأت على ثغرها ظل ابتسامة عابثة : «ماخطبك ياراجية ؟ ماسنح ببالك ؟ » ٠

ـ أتعرفين ثمامة ذلك الفتى الداعر ؟

ـ نعم أعرفه ولا أظنه كما تصفين ، فما باله ؟

ـ انه يستحق قطع رأسه ٠

ـ ماذا فعل ؟

ـ تعقبني اللعين في ذهابي الى القرية أمس ٠

ـ نعم ٠

ـ وعند رجوعي منها أيضا ٠

ـ نعم ٠

ـ وغازلني ودعاني ياحمراء العينين ، أرأيت الى جـــرأته ووقاحته ، لقد هممت أن أشدخ رأسه بالفأس التي كانت معي

ـ هل ساءك أن وصفك بحلية استلطفها فيك؟ انك وحمدان قد نزعتما في لون العينين الى الوالد رحمه الله، بيد أني أخذت عن أمي لون عينيها ٠

ـ ولكن عيني لاتبلغان مبلغ عيني حمدان من الاحمرار ٠

ـ أجل ولكنهما بعد لحمراوان ، لوددت لو انهما كانتـا لي فاني لأراهما أجمل وأملح وماذا قال لك ثمامة بعد ؟

ـ ماذا عسى أن يقول مثل هذا الفتى الخبيث لفتاة مثـلي اذا أراد أن يختلها ؟ قال لي انه يهواني وانه يتمنى لو أقبلـه بعلا لي ٠

ـ فماذا قلت له ؟

ـ أردت أن أصرفه عني فزعمت له انني مخطوبة لعبـدان ابن عمي ٠

ـ فماذا قال ؟

ـ ماصدقني بل ضحك ضحكة فاجرة وقال : « تلك أختك عالية فلا تدعي ماليس لك » ٠

فأسبلت عالية جفنيها فظهر واضحا جمال أهدابها السود

وهى تكاد تلامس وجنتيها من طولها ، وانكفأت تقول : « ألم يقل عنى شيئا غير هذا ياراجية ؟ » ٠
فترددت راجية قليلا ثم قالت : « لا ، لم يقل شيئا آخر »٠
فرفعت عالية جفنيها فطفقت عيناها تلمعان كأنهما نجمان وجعلت تنظر فى عينى أختها كأنها تشك فى صدق ما تقول ثم قالت :
ـ بحياة أمى ياراجية وحياة حمدان !
فرجعت راجية تقول : « الحق أقول لك ياأختى انه أراد أن يغيظنى لما أغلظت له الرد وقطعت عليه السبيل فقال لى : لولا أنى أعلم أن أختك قد خطبها ابن عمها فهل تظنين أنى أوثرك عليها وهى اجمل فتاة قبل شفتيها ماء الفرات ؟ » ٠
قالت عالية وقد ازدادت عيناها صفاء ولمعانا : « أو قد قال ذلك ؟ انى لاخال صاحبك هذا شاعرا ياراجية ! »
قالت راجية وقد سرى فى جبينها طائف من العبوس : « أو يروقك الشعراء بعد ياعالية ؟ أليس بحسبك عبدان ابن عمى ؟ انه والله لخير منه ألف مرة٠ أما والله لو كنت مكانك لقصرت همى عليه ، ولما عنانى أن يطرينى سواه ولو كان أشعر الشعراء » ٠
قالت عالية وهى تبتسم : « لو لم تكونى أختى لغرت منك على عبدان ، ولخلت أن تحمسك له لم يصدر من قلب سليم قط »
فأجابت أختها وهى تصطنع الابتسام ٠ « انما نافحت عن ابن عمى لما آنست أنك تعدلين به غيره ، وما قلت الا ماينبغى لى أن أقول عنه » ٠
فنظرت اليها عالية نظرة تفيض بكثير من الحب وقليل من العتب وقالت : « والله انى لأحب عبدان ولا أعدل به أحدا غيره ٠ ولكنك ياأختى مازلت حديثة السن ويغيب عنك كثير من شئون الحب ! » ٠
وما قطع حوار الاختين الا صوت أمهما العجوز تناديهما من خلفهما على بعد منهما ، فألقت راجية مضربها وانطلقت لترى أمها ماذا تريد ٠ وكانت العجوز جالسة على مصطبة كبيرة أمام كوخها ، تظللها أيكة من النخل تجرى حولها أنابيب من الماء ، ثم تنطلق الى حيث تسقى صفوف النخل

المتفرقة فى أطراف المزرعة ، وكان أمامها كومة من التبن وحزم من قصب الذرة الجاف وشىء من البرسيم الاخضر ، فهى تقصف من القصب عيدانا قصيرة وتضع بينها شيئا من التبن ، ثم تلف عليها حزاما من البرسيم ، تعد ذلك لغذاء الثور وغيره من الماشية التى عندهم •

ـ ماذا تريدين ياأماه ؟

ـ انطلقي الى اخيك حمدان فقولى له قد آن أوان الغداء • وارجعى أنت واختك فساعدا أم الغيث فى اعداد الطعام •

ـ وماذا تفعل أم الغيث من الصبح ؟

ـ شغلها ولداها يابنيتى عن كل شىء، فعليكما أن تساعداها ولا تغضبا أخاكما فى امرأته •

ـ قوم ينامون فى الكوخ وقوم يعملون فى حر الشمس !

ـ ان شئت عنيت أنت بولديها وهى تعمل مكانك •

ـ أما الغيث فخطبه سهل، ولكن أنى لى اللبن أرضعه لفاخته؟

فرفعت الام حاجبيها المتهدلين من الكبر ونظرت الى ابنتها بعينين واسعتين لعلهما كل مابقى لها على حالهمن عهد الشباب بعد ماتغير كل شىء فيها وقالت فى صرامة : « اذا فاهتمى بشأنك ودعى شئون الاخرين » •

وانصرفت راجية لتدعو أخاها واختها وهى تقول بلهجة لاتخلو من التبرم : «سمعا لك ياأماه ، سأظل أعمل فى حر الشمس حتى تصبح عيناى بلون الدم » •

فابتسمت العجوز ابتسامة خفيفة وهى تشيع راجية بعينيها وطفقت تقول : «ومن يشابه أباه فما ظلم ، رحم الله أباك ! مالقبه الناس بقرمط الا لحمرة عينيه » •

ـ ٢ ـ

أما عبدان فكان شابا فى الثالثة والعشرين ، نحيف الجسم دقيق الاطراف ، قضى أيام طفولته الاولى فى (قرية الدور) حيث كان أبوه تاجرا ذا حانوت صغير فى القرية ، يبيع فيه أنواع الاقمشة الرخيصة للفلاحين الذين يأتون اليها من ضواحيها وأريافها • ماتت أمه وهو صغير لم يعد التاسعة فتزوج أبوه امرأة أخرى ذات ولد من غيره ، فلم تطب حياة الصبى فى المنزل لان زوجة أبيه كانت قليلة العناية به لاتهتم

الا براحة أولادها ، فكانت تعامله معاملة الخادم ، وتـكلفه القيام بأعمال مرهقة ، وتضربه كلما قصر فى أدائهـا ضربا مبرحا ، قضى عبدان أربعة أعوام فى هذا العذاب ، وما أنقذه من ذلك الا وفاة والده فأخذه ابن عمه حمدان ليكفله عنده بمقتضى وصية أبيه •

لم يستطب عبدان حياة الريف فى أول الامر لاختلافهاعن حياة البلد التى نشأ عليها من قبل ، ولكنه مالبث الا قليـلا حتى أخذ يألفها شيئا فشيئا الى أن أحبها آخر الامر ، وصار يقوم بمساعدة ابن عمه فى أعمال الفلاحة والزراعة ، وكان الفضل فى ذلك يرجع الى ما وجده عند حمدان ووالدته من البر به والعطف عليه بعد ذاك الهوان الطويل الذى لقيـه من زوجة أبيه •

وقد أنس بالطفلتين الجميلتين عالية وراجية ، فكان يلعب معهما فى الحقول وعلى ضفاف القنى ، ويساعدهما فى جمع الثمار وفى تحويل مساقى الماء من حقل الى حقل أو من شجرة الى أخرى •

كان عبدان يكبر عالية بثلاث سنوات وتصغره راجيـة بسبع ، وكان يحمل لهما حب الاخ لاختيه ، وكـذلك كان شعورهما نحوه ، غير أن هذه العاطفة تطـورت على الايام فأصبحت حبا قويا بينه وبين الاخت الكبرى أيده حمـدان بأن عقد خطبته عليها ، فلما بلغ عبدان رشده خيره حمدان بين البقاء عنده ، والرجوع الى القرية ليفتح له دكانا فيهـا برأس المال الذى ورثه عن أبيه ، فاختار عبدان الثانية ، وقد صادف اختياره هوى فى نفس حمدان ، اذ رأى أن حيـاة الفلاحين على ذلك الوضع الجائر جحيم لاتطاق ، فهو يتمنى لابن عمه حياة أهنأ وأرغد ، تنعم بها أخته معه ، ومن يدرى لعل عبدان اذا نجح فى تجارته أن يمد اليه يد العون فينقذه من الوهدة التى يتردى فيها هو واسرته •

وصح ماتوقعه حمدان ، فقد أفلح عبدان فى تجارته •• وما مضى عامان منذ اشتغل بها حتى تضاعف رأس ماله وكثر عملاؤه من الفلاحين وغيرهم ، لما اشتهر به بينهم من الصدق والامانة وحسن المعاملة والاخلاص فى النصح ، ولما كان يقوم

به حمدان من الترويج له فى أوساط جيرانه الاكارين ٠
وكان عبدان كثيرا مايتعهده بالزيارة ، فيقضى ليلته ضيفا عليه ويأتى معه بهدايا من الملابس والطيب والاحذية يتحف بها خطيبته وسائر افراد الاسرة ، فيتقبلونها منه بالشكر والامتنان ، وكان فى خلال ذلك يلح على حمدان بالتعجيل بزفاف عالية اليه ، غير أن حمدان كان يستأنيه فى ذلك خشية أن يرزأه فى رأس ماله بنفقات العرس قبل أن يشتد ساعده ويقف على قدميه ، وما كان أشد فرح عبدان اذ رضى ابن عمه أخيرا أن يتسلم منه صداق أخته ويعين له موعد الزفاف ، فأخذوا من ذلك اليوم يعدون جهاز العروس ، ويهيئون لليلة الزفاف السعيدة ، وانهم لفى ذلك اذ جاء ثمامة ذات ليلة الى كوخ حمدان والتمس مقابلته ، فلما اختليا صرح لحمدان بأنه جاء ليخطب منه أخته راجية ، فاعتذر حمدان اليه بأن أخته ماتزال صغيرة السن ، وانه لايستغنى عن معاونتها له فى اعمال الحقل ٠
ولكن ثمامة الح عليه فى الطلب ، وعرض عليه استعداده للانتظار عاما او عامين حتى تبلغ السن التى يشاء حمدان فيها أن يزفها اليه ٠ فلم يسع حمدان الا أن يعده خيرا ،وهو ينوى ان يصرفه عن ذلك بطريقة من الطارق ، فقال له : « انى سأؤامر الفتاة وأستشير أهل بيتى فى أمرك ، فاذا قبلوا فسأبعث اليك من يخبرك » ورضى ثمامة منه ذلك فودعه وانصرف ٠
وكاشف حمدان أهل بيته بما تقدم به ثمامة من الخطبة فقالت أمه العجوز : « ان يكن لها نصيب فيه فهيا يا حمدان لنزفهما معا فى ليلة واحدة » ٠
قال حمدان : « اننى لاأعرف عنه شيئا ياأماه ، فلا بد أن استقرىء عنه أولا ، ثم لابد قبل ذلك من رضى راجية » ٠
فتوردت وجنتا الفتاة ، وخفضت رأسها حياء ، وجعلت تبتغى وجها تلجأ اليه وتتقى به العيون، فلما رفعت رأسها استقرت عيناها على وجه أختها عالية فوجدت على ثغرها ابتسامة ذات معنى كأنها تقول لها : « ويلك ياماكرة ! أليس هذا الذى غضبت منه اذ دعاك حمراء العينين ؟ فماذا يمنعك الان من

رفض طلبه ؟ » .
قال حمدان : « أتعرفين هذا الشاب ياراجية ؟
فجمعت راجية شعاع نفسها وقالت له : « لا ياأخى لست اعرفه ولكنى كثيرا مارأيته » .
ـ أين كنت ترينه ؟
ـ كان يجمعنى به الطريق الى القرية أو منها .
سكت حمدان قليلا وهو ينظر اليها ثم قال : « مارأيك فيه هل تقبلينه زوجا لك ؟ » .
فسرى عن الفتاة كأنما نجت من قارعة كانت توشك أن تنزل بها ، وقالت :
« ان رضيت به لى ياأخى رضيت به لنفسى
فظهر السرور على وجه حمدان وقال لها : بارك الله فيك يأختى ، سأستقرىء عنه فان وجدته صالحا قبلت طلبه .
أخذ حمدان يتحرى عن ثمامة ، فما طال به التحرى ، اذ سرعان ماعلم عنه أن أباه كان مزارعا ميسور الحال ، حتى شب ابنه هذا فاتصل به رفقاء السوء فجروه الى حياة اللهو والخلاعة فكان يسطو على مال ابيه ليبدده فى حانات الكوفة ومواخيرها ، فاذا فرغ ماعنده رجع اليه ليسلبه مقدارا آخر حتى انتهى الحال بأبيه الى الافلاس وبيع أرضه للهيصم أما هو فقد صار يعيش منذ ذلك الوقت عيشة الشطار والعيارين .
عجب حمدان لما هداه اليه بحثه ، واستغرب أن يكون مثل هذا الشاب الوسيم الطلعة الجميل البزة عيارا ، وحمد الله على أن منظره لم يخدعه عن مخبره ، ولم يشأ ان يسترسل فى استقراء أحواله بعد ليعلم عنه أكثر مما علم ، فما كان فضوليا وليس فى وقته متسع للاهتمام بما لايعنيه ، فبعث اليه رسولا يخبره برفض طلبه ، فرجع الرسول يحمل اليه التهديد من ثمامة والوعيد ، فلم يعبأ به حمدان كثيرا لثقته بقدرته على الدفاع عن نفسه ، ولعلمه أن جماعة الشطار لايجدون عنده مايطمعون فيه . بيد أنه كان أحيانا يجد فى نفسه شيئا من هذا الامر فيغم قلبه وينقبض صدره .
وكان عظيما على راجية أن تصدم فى حبها الاول ، فمهما

سرها أن تجت من الوقوع فى فخ هذا الصائد الماكر ، فقد
عز عليها ألا تهديها بصيرتها الى الحقيقة فى أمره أول ماوقعت
عيناها عليه ، وكانت تعتقد أنها صادقة الحدس جيدة التمييز
فقد تبين لها الان انها لاتكاد تدرك فى هذا الشأن شيئا ..
أترى ذلك لحداثة سنها بعد ؟ فما بالها اذن لاتقل عن أختها
عالية نضجا واستواء ، ولا تنقص عنهـا بروز نهد أو رباوة
كفل أو امتلاء ساق ؟

وكانت تحرص أشد الحرص على كتمان شعورها هذا عن
كل أحد من اهلها ، وتبدى قلة الاكتراث لما انكشف من حقيقة
هذا الخاطب العيار ، بل انها لتتعمد أن تقع فيه بـكل ما
يسعفها به لسانها السليط من كلمات القدح والتحقـير ،
لتنفى بذلك الظنة عنها ولتوهم نفسها أنها لم تنخدع به قط
وانها انما اذنت لاخيها فى قبوله اذا شاء اتكالا على أن تحرى
أخيها عنه سيكشف له من أمره مايدفعه الى رفض طلبه .

بيد أنها لم تستطع أن تكتم حقيقة شعورها عن أختهـا
عالية ، فهذه تعلم من سرها مايجهله الاخرون ، وتعرف أن
راجية قد شغفت بهذا الشاب حبا وانها ماتزال تحبه على رغم
ماانكشف لها من أمره . وان عالية لتتجاهل هذا السر وتتجنب
الاشارة اليه من قريب أو من بعيد ، ولكن ذلك لايزيد راجية
الا احساسا بالهزيمة والضعة أمامها ، فأخذت تتجنى عليها
وتتعمد الاساءة اليها بأساليب مختلفة ، فلا تقابلها عاليـة
الا بنظرتها الساجية وابتسامتها الصامتة التى تحمـل فى
أطوائها مزيجا من الشفقة والسخرية وقلة الاكتراث ، فيكون
فى ذلك اشد ما يؤلم راجية ويملأ صدرها غيظا وكـبرا
ماحاولت راجية أن تخرجها من هذا الصمت المطبق ، فتحوم
بها حول هذا الموضوع لتخوض فيه ، عسى أن يزل لسـانها
بكلمة نابية فى حقها ، فتصب عليها شواظا من غيظها المكبوت
تريح به صدرها ، وتجد به فرصة للدفاع عن نفسها ولرد
اعتبارها أمام هذه المخلوقة الوحيدة التى تعرف خبيئتهـا
ولكن عالية لاتمكنها مما تريد ، اذ تعدل بالحديث فى لباقة
ويسر الى غير ما قصدت راجية أن توجهه اليه : فلا تجد راجية
أمامها بعد الجهد والمحاولة الا تلك النظـرة الساجيـة

والابتسامة الصامتة .

ولم تعف راجية في سبيل ايذاء أختها حتى عن التعرض لعبدان بالملاطفة والتحبب كلما حضر لزيارة أهلها ، وتتخذ في ذلك اساليب تختلف باختلاف من يحضرهما عند ذاك ، فطورا تبالغ في الترحيب به حين يكون أخوها حاضرا أو امرأة أخيها ، وطورا تعانقه معانقة الاخت لاخيها حين لايشهدهما الا أمها وأختها ، وطورا تكسر له الطرف وتخضع له بالقول حين لايكون بينهما الا عالية ، تريد بهذا كله احراج صدرها واخراجها من هدوئها الغائظ لها ، فاذا اعترضت عليها عالية في شيء من ذلك ولو بكلمة لينة هبت في وجهها واندفعت تلومها على ماجلبت عليه من سوء الظن وتتهمها بالغيرة العمياء على خطيبها حتى من أختها التي لاتنظر اليه الا كما تنظر الى أخيها من أمها وابيها ، ولما أدركت عالية ما ترمي اليه اختها الموتورة صارت لا تعبأ بعدذلك بهذه الهنات التي تأتيها أختها نحو عبدان ، ولا تقابلها الا بتلك النظرة الساجية والابتسامة الصامتة .

وقد كانت راجية تنفس عبدان على أختها من قبل ، وتتمنى لو كان من نصيبها هي ، الا انها كانت تكتم ذلك في أعماق ضميرها ، ولا تجرؤ على الاعتراف به حتى أمام نفسها ، فكانت دائما تتحامى جانب عبدان اذا حضر عندهم ، الى أن كان حادث ثمامة ، فانقلب سلوكها نحوه هذا الانقلاب المبين .

غدا تزف عالية الى عبدان وتبقى هي وحدها أمدا طويلا في منزل الاهل تعاني من ألم الحسرة على عبدان ما تعاني فما ضر الدهر لو لم يجعل ثمامة عيارا فلم يرفض طلبه ؟ اذا لكان لها في زفافها الى هذا الشاب الذى يفرع عبدان طولا ويفوقه وسامة واناقة ، مايعوضها عن ابن عمها الذى قضى سوء حظها أن يكون من نصيب أختها دونها .

بل ماضر الدهر لو أخفى حقيقة ثمامة عن أخيها حتى تم زفافها اليه ؟ أواه ... لقد كان ذلك في الامكان فلم يكن ! ياليته كان ! اذا لأراحها ذلك من هذا العذاب الذى هي فيه ولا بأس بعد ذلك أن تكون زوجة عيار جميل ، ان العيارين بعد لمعروفون بالشهامة والنجدة وشدة البأس والمروءة ،

وانهم ليعتدون على القوى ، وينصرون الضعيف ، ويسطون على مال الغنى ويعفون عن مال الفقير ، وانهم ليجيرون النساء ويغارون على الحرمات ، ولئن كان بينهم من يشذ عن هذه الخلائق الكريمة ، فالشواذ فى كل قوم وكل قبيل ·

ويستبد بها الخيال فيصور لها أنها قد اصبحت حقا زوجة ثمامة ، تحيا معه حياة ملأى بالمغامرات والمخاطرات المثيرة وتنتقل معه من مكان الى مكان ومن بلد الى بلد ، ويأتيها كل يوم بنصيبه من الاسلاب والغنائم فيرميه تحت قدميها لتتصرف فيه ليومها بدون حساب وبدون اهتمام لما يتمخض عنه الغد فالغد عند هؤلاء مضمون مادام فى الدنيا غنى يفيض ماله عن حاجته وفقير لايجد مايسد به جوعته ·

واذا قعد بزوجها سبب من عجز أو مرض أو خانه يوماحظ عاثر فلم يأت بكسب جديد فان له من عصابته المتكافلين فى السراء والضراء من يسعفونه ببعض مالديهم ويبيحونه من ذلك ماشاء ·

وهاهو ذا ثمامة قد أقبل ليودعها متأهبا للخروج الى سرية كبيرة فى ليلة من ليالى الشتاء شديدة القر حالكة السواد ،وقد لاث عمامته على طريقة خاصة بجماعته ، وتقلد سلاحه وأرخى على وجهه اللثام الاسود فلا يرى الا عيناه البراقتان ، فأخذها بين ذراعيه القويتين فضمها ضمة شديدة رسمت ببالها فى مثل لمح البرق صورة منه وهو يصارع من يقاومه من فرائسه ويأبى لسوء حظه الخضوع والاستسلام ، ثم حسر القناع عن شفتيه الغليظتين فأهوى بهما على ثغرها حيث استقرتا لحظة ثم زحف بهما رويدا رويدا حتى اغمض بهما احدى عينيها وهو يقول بصوت المغرم الولهان «ياحمراء العينين أحبك ... أحبك ! .. »

وهاهى ذى قد طال بها انتظار أوبته من السرية فهى تتقلب على فراشها من قلق عليه ، ويخيل اليها أنها تسمع خفقا لدى الباب الخلفى فى الزقاق المهجور ، فتنهض من فراشها وتقف أمام باب حجرتها حابسة أنفاسها تتسمع وتتصنت فاذا الوقت يمر بطيئا بطيئا دون أن تسمع لزوجها صوتا أو ترى له وجها فترتد متثاقلة نحو فراشها فتستلقى عليه ، ترى ماذا فعلت

الاقدار بثمامة ؟ فى أى أرض هو الان وتحت أية ناشئة من نواشىء السحاب ؟ أمعافى هو الان يطوى الظلام بين رفقـائه فرحا بنجاح السرية مزهوا بما يحمل من الغنيمة على ظهـره فلا يلبث أن يقتحم عليها الباب بعد لحظة فيرمى الوقر بـين قدميها كعادته ، فيخلع شارة العيارين ويغسل عن وجهـه الغبار ويرتدى قميصه الحرير الفضفاض فينقلب زوجالطيفا أنيسا يريح جنبه معها على الفراش ويقص عليها حديث الليلة فما باله اذن ابطأ فى العودة، وقد انقضى الليل الا أقله وكادت نجوم السماء تغور ؟ أم خانه الليلة حظه ففتك به فاتك ممن تسوروا داره أو نقبوا حائطها أو هاجموا قافلته فهو الانقتيل بين الجدران أو صريع فى العراء ترقبه النجوم الباقية وتحـوم حوله الذئاب العاوية وقد تفرق عنه رفاقه بددا وانتشروا فى كل مهرب يبغون النجاة ؟ أم تراه أحيط به فوقع أسـيرا فى أيدى الشرطة والعسس فهو الان مكبل بالاصفاد قد ألقى به فى قعر سجن ضيق ؟

فاذا وصل بها التخيل الى هذا الحداقشعر بدنها وانتفضت انتفاضة المروع فاذا هى ماتزال عذراء فى منزل أخيها ليس بينها وبين ثمامة من صلة او سبب ، فتتنفس الصعداء انكان ماتصورته الساعة حقيقة باطلا كله من صنع الوهم والخيال.

- ٣ -

رجع عبدان ذات ليلةالى بيته بعدأن صلى العشاء فى جامع القرية فأسرج بغلته والجمها ثم ركبها وسـار بها فى أزقة القرية حتى خرج من بابها الجنوبى المتهدم فوكزها بعصـاه وانطلق بها فى الخلاء الواسع وهو رخى البال منشرح الصدر يشعر بخفة عجيبة حتى ليخيل اليه أن البغلة قد ركبت لهـا أجنحة تطير به فى الفضاء لتصل به الى منزل الحبيبة بأسرع الاسباب ، انه سيسمر الليلة عند حمدان وسيستمتع برؤية عالية وسماع حديثها فى منزل أهلهاثم لايراها فى المرةالتالية الا عروسا تجلى عليه فى بيته .

وكان الهواء منعشا يتندى بالنسيم العليل الذى يتهادى فى ذلك الفضاء ليمسح بأذياله الناعمة المخضـلة تلك الرمال المكدودة التي ظلت تتلوى من حر النهار الطـويل ، وليروح

بأنفاسه اللطيفة عما يكتنفها من القريات والدساكر حيث يوزع بلسمه الشافى على فلاحيها المجهدين، ومواشيها اللاغبة حتى ينعم الجميع بلذة النوم الهنيء الذى جعله الله مشاعا بين الخلائق، لاسبيل للغنى أن يحتجنه دون الفقير ولا للقوى أن يغتصبه من الضعيف ·

وكان بدر التمام مطلا من علياء سمائه بكل روائه وكامل ضيائه على ذلك الكون المسحور حيث استحال كل حقيقة الى خيال ، وكل خيال الى حقيقة ، فالرمل الابيض الناعم قد أمسى ذرورا من الفضة تغوص حوافر البغلة فيه · وظلال الاشجار على جانبى الطريق كأنها شخوص من الجن أدركها النعاس وهى تهيم فى تلك البطاح فتمددت حيثما حلا لها من الارض ، وقد ارتفع كل حجاب وشف كل شيء حتى أوشك عبدان أن يرى خواطره تتمثل أمامه فى صور شتى قوامها من ضوءالقمر

ويمر عبدان بين الفينة والفينة بفارس يركض به جواده ، أو فلاح يخفق على حماره ، أو رفقة من الناس يمشون الهوينى مستعينين بالحديث على قطع الطريق ، فما هو الا أن يحيى أحد أولئك أو يرد تحينه حتى يلتفت وراءه فلا يكاد يرى أحدا كأنما سدل من الضياء سجف أبيض كبيرستر أولئك الناس عنه

وعاد عبدان فتخيل السمر الذى سينعم به وشيكا على الدكة الخارجية من كوخ حمدان حيث يتجاذب معه ومع والدته العجوز وأختيه وزوجته أطراف الحديث · وجعل يزور فى نفسه ماهو قائل لعالية أول ما تستقبله عند باب الكوخ وحين يستقر به مجلسه الى جانبها ؛ ولكن الحديث ذو شجون فأولى به أن يترك نفسه على سجيتها ليملى الموقف عليه ما ينبغى له أن يقول ·

وتذكر عند ذلك موقف راجية ومسلكها الغريب نحوه فى الايام الاخيرة ، فانقبض صدره قليلا ، وسرح يستعرض صورها وهى تلاطفه أو تعانقه أو تتغنج له أو تورى له فى القول ، على غير مألوف عادتها معه فى كل ذلك ، وجعل يلتمس لذلك تفسيرا يريح به صدره وينفى به سوء الظن عنها، فأعياه بعد الجهد أن يجد من ذلك مايريد · ترى ماذا يدفعها الى هذا السبيل ؟ أهيام به قد بلغ من الشدة أن خلع عنها ربقة الحياء؟

أم كيد لاختها أملاه الحسد والبغضاء حتى جشمها كل هذا العناء ؟ ليس أمامه الا أحد هذين التفسيرين ، ولكنه لايستطيع أن يجزم أى هذين هو التفسير الحق ٠

ثم أخذ يسائل نفسه كيف ينبغي له أن يعاملها ؟ لقد كان يكتفي في ذلك بالتجاهل والاغضاء ٠ أفيبقى على اغضائه وتجاهله ؟ والى متى هذا الحال ؟ ان الفتاة لتزداد في جرأتها يوما بعد يوم ٠ أفلا يزجرها عن ذلك ؟ أو لاينبه أمها اليه ؟ ولكن هل تستطيع أمها أن تصلح من حالها شيئا ؟ ان راجية لجارية شموس لاتبالى ماتأتى وما تدع وانها لسليطة اللسان فماذا يكون أمره لو سلقته بكلمة نابية أو افترت عليه فرمته بدائها وانسلت ؟ أفلا يخشى أن يفسد ذلك مابينه وبين عالية أو يكدر الصفو بينهما على الاقل ؟

وان عجبه من مسلك عالية لا يقل عن عجبه من مسلك راجية؟ كيف ترى عالية كل هذا فلا يثور لها عرق من عروق الغيرة؟ وبعض هذا كان حريا أن يزلزل قلب غيرها من النساء لو كانت مكانها ؟ ماذا يضطرها الى هذا السكوت ؟ أحبها الشديد لاختها ؟ أم حرصها على سمعة أهلها أن تلوكها الالسن ؛ أم ثقتها التامة بمكانها عنده أن تحيك فيه مثل هذه الهنات ؟ أم أنها لاتبالى كثيرا أن يكون لها أو لاختها ليقينها أنه لو تخلى عنها لتهافت عليها كثير من الخطاب كلهم يفوقه جمالا ، ومالا وجاها ونسبا ؟ انه يعلم علم اليقين أن عالية لاتكرهه ، بل عنده من الدلائل القوية مايثبت انها تحبه وتعزه ، ولكن مايدريه أن لايكون ذلك الحب الذى ظهر له منها راجعا الى حرصها على مجاراة أهلها فيما يرون وتحقيق مايحبون ؟ ألا يصح أن يتخذ دليلا على هذا أنه قد مر على خطبته لها زهاء عامين ولا يذكر أنه سمع منها فى خلالها كلمة حب قط ؟٠ ولكن ذلك قد يرجع الى أنها حيى صموت فضلا على انها مدلة متثاقلة ، وانه ليأتى لها بالهدايا الثمينة من حلل وحلى فتقبلها منه بالشكر ويفتر ثغرها عن ابتسامة هادئة ، ولكنه لايذكر انها اهتزت فرحا لشيء من ذلك قط ، كما تصنع الفتيات ٠ قد يكون هذا لانها لاتحبه حبا صادقا ؛ ولكن قد يكون أيضا ، لان قلبها الكبير لاتستخفه أمثال هذه الاشياء

الزائلة ، ومهما يكن من شيء فان صنيع راجية هذا قد كدر الصفو الذى يشعر به في الحاضر ، وجعله يتوقع متاعب يخشى أن تعصف بسعادته في المستقبل ·

كانت هذه الخواطر تتلاعب برأس عبدان ، اذ لاحت له أبراج الحمام التابعة لكوخ حمدان فطأمن من سير البغلة واخذ يصلح من قميصه وجبته وعمامته ، وطرد مابقي من الوساوس في قلبه ليلقى القوم بشوش الوجه باسم الثغر · وخفق قلبه خفوقا شديدا حين ترجل من دابته دون الزرع النابت حول الكوخ ، وأخذ يقودها في الممشى الموصل اليه خلال الزرع : ورمى بطرفه الى الكوخ فرأى الدكة الخارجية وقد دثرها ضوء القمر النافذ من خلال الغصون ، فراعه انه لم يلمح حمدان ولا احدا من أهله ينتظره كما كان متوقعا ، وانه لما اقترب من الكوخ سمع أصواتا مختلطة يشوبها شجو كالبكاء فانقبض صدره واستعاذ بالله من سوء مايضمر الليل ، ووقف فنادى :حمدان حمدان ! · فأجابه صوت من داخل الكوخ تبين انه صوت الام العجوز : من أنت ؟ من المنادى ؟ ·

ـ أنا عبدان ·

ـ مرحبا بك ياعبدان ··· افتحي له ياراجية ·

وتبين عبدان في صوتها نشيج البكاء ، فزاد اضطرابه وقلقه وأسرع فربط دابته في المربد عن يمين الدكة ·

وفتح باب الكوخ فاذا هو براجية قد وقفت وانية الحركة على غير عادتها ، ونظر الى وجهها في النور الخافت ؛ فرآها تنشج والدموع تنهمر من عينيها ، فخطر له أول ما خطر له أن صبر عالية على أختها الرعناء قد نفد ، وأن غيظها المكتوم قد انفجر ، فوقعت الواقعة بين الاختين ، وصلى بنارها أهل البيت جميعا ·

ـ أين أخوك حمدان ياراجية ؟

فأجابته بصوت متهدج : « ألم تعلم بما حدث ياعبدان ؟ »

ـ ماذا حدث ؟

لم تجبه راجية بل انكفأت راجعة الى داخل الكوخ ، فتبعها عبدان فهاله أن رأى أم حمدان وأم الغيث جالستين تبكيان ؛ ولم ير عالية بينهما ، فهجس بباله أن الخطب أعظم مما ظن،

فتهيب السؤال ووقف ينظر اليهما واجما ، ثم مـــد يده الى العجوز فقبل يدها ، وعندئذ مسحت العجوز دمعها وقالت له:
« ويحك ياعبدان • ألم تعلم بما حدث لعالية ؟ » •
ـ ماذا حدث لها ؟ وأين هي الان ؟ واين حمدان ؟ •
ـ خرجت تحتطب من العصر فلم تعد ، وبحثنا عنها في كل مكان فلم نجد لها أثرا •
ـ هل كانت وحدها في المحتطب؟هل خرجت وحدها تحتطب؟
ـ بل كانت معها أختها راجية ، ولكنها أبعدت عنها فـلم ترجع اليها •
ـ كانت راجية معها اذن ؟
ـ نعم •
ـ هذا عجيب !
قال عبدان هذه الجملة وغرق في بحر من الظنون تتدافعه أمواجه المتلاطمة ؛ فاذا ماانتهت به الى الشط أو ما يشبه الشط وجد راجية واقفة تبكي هناك ، وقام في نفسه انها تتصنع البكاء لتصرف به العيون عن سر رهيب تعلمه هي وحدها ولا تريد أن تبوح به •
وطفق عبدان يسترق النظر الى وجه راجية بارتيـــاب لم يستطع اخفاءه حتى صاحت في وجهه محتدة : «مابالك تنظر هكذا الى ؟ أتتهمني بأن لي ضلعا في اختفاء خطيبتك ؟ » •
فنهرتها أمها قائلة : « ويلك ياراجية ماذا تقولين لعبدان »
قالت راجية : « أما رأيته ياأماه كيف ينظر الى ؟ » •
فقال عبدان معتذرا : « معاذ الله ياابنة عمي أن أتهمـــك بالكيد لاختك وانما تعجبت من اختفائها وكنت معها ! » •
ـ لقد قالت لك امي انها ابعدت عني فلما التمستها لم اجد لها اثرا •
ـ اما رأيت احدا من بكما اذ كنتما تحتطبان ؟
فسكتت راجية قليـــلا ثم قالت : « بلى ، رأيت كوكبة من الفرسان مروا بنا منطلقين في عرض الطريق » •
فقال لها عبـــدان « أكان اختفاؤها عقب مرور أولئـــك الفرسان ؟ » •
فأشارت راجية برأسها ان نعم •

ـ أما رأيت فيهم من أحد تعرفينه ؟
ـ أنى لى أن أعرفهم وهم كانوا ملثمين ؟
ـ على هيئة الشطار ؟
ـ كان بعضهم كذلك •
ـ أما ارتبت بأحدهم أن يكون ثمامة ؟
فسكتت راجيـــة هنيهة وبدا عليها شيء من الارتباك ، ثم تطلق وجهها قليلا وهى تقول « يخيـــل الى ان ثمامة كان بينهم ولكنى لا استطيع الجزم بذلك »
فنظرت اليها أم الغيث متعجبة : « لولا ذكرت هذا لاخيك حمدان ليسهل عليه البحث ! » فظهر الغضب فى وجه راجية وقالت « ما سألنى حمدان هذا السؤال • وبعد فعرضى بى يا أم الغيث ما شاءت لك الضغينة ، ولكن لا تنسى ان عالية أختى فلا غرو أن أنسانى قلقى عليها كل شيء » •
قالت أم الغيث « حتى ما يعين أخاك فى البحث عنها ؟ » •
فصاحت راجية قائلة : « نعم حتى ذاك ما شأنك أنت ؟ • حسبك أن تنامى فى الظل ونحن نعمل فى حر الشـــمس من أجلك ! » •
فقالت لها امها : « كلا يا راجية ، ان أم الغيث لم تقـــل شيئا يسيء اليك ولم تقصد الا الخير »
وأيدها عبدان قائلا : « أجل لا ينبغى لك ان تغضبى من كل سؤال يوجه اليك » •
فقالت راجية « وأنت أيضا يا عبدان ! » ثم طفقت تنشج بالبكاء وهى تقول : « أواه عليك يا أختى يا عالية ! ليت الذين اختطفوك اختطفونى مكانك » وما أتمت كلمتهـــا حتى دفنت وجهها فى حجر أمها وهى تنتحب •
وانتبه عبدان لهول الحقيقة التى نطقت بها راجية فى هذه الجملة الصريحة ، وذهب عنه التماسك الذى تصنعه لذلك الحين وهو يستنطقها ليعرف منها جلية الامر • فدنا منهـــا وأخذ بكتفيها يهزهما هزا قويا وهو يقول بصوت متهـدج « اذن فقد أيقنت أنهم اختطفوها » •
ـ نعم اختطفوها • • • لا ريب عندى أنهم اختطفوها •
ـ من هم ؟

ـ لا أدرى من هم • • • دعنى • • لا تهزنى هكذا •
ـ قلت انك رأيت ثمامة بينهم !
ـ نعم رأيته بينهم • • • هو الذى اختطفها • • لا بد أنه هو • • • لعنة الله عليه ، ليته اختطفنى مكانها ، اذن لكان ذلك أهون على نفوسكم !
ـ أما سمعتها تستغيث اذ حملوها ؟
ـ لا •
فعاد عبدان يهز كتفيها بشدة وهو يقول « ماذا تعنين ؟ » •
ـ قلت لك لا • أما تفهم معنى لا ؟ دعنى • • • فقد أوجعت كتفى • • أم تريد أن أكذبك فأزعم لك أننى سمعتها تستغيث ؟
ـ أتعنين أنها استغاثت فما سمعتها أم أنها لم تستغثألبتة ؟
ـ من أين لى أن أعلم الحقيقة ؟
ـ هل كان ثمامة يعرف عالية ؟
ـ لو لم يعرفها لما قال فيها يوما انها أجمل فتاة قبل شفتيها • • • ماء الفرات !
ـ هل آنست لديها شيئا من الميل اليه ؟
ـ ويلك ماذا تريد أن تقول عن أختى ؟
ـ لا شىء • • • وانما أريد التحرى فحسب •
ـ انها بعد لكتوم قلما يعرف أحد ما يدور فى خلدها •
ـ بل تعرفين الحقيقة وتتعمدين اخفاءها !
فنهرته العجوز قائلة : « كفى يا عبدان ! لقد استطلت على ابنة عمك وتجاوزت حدك ! » فرفع عبدان يديه عن الفتاة وابتعد عنها وقد احمر وجهه خجلا مما أغضب العجوز ثم جعل يقول لها : « معذرة يا خالتى أمينة • • • لقد ركبنى من هذا الامر ما ركبنى فأخرجنى عن طورى وأسلمنى الى ما رأيت » •
فقالت له وهى تمسح الدمع عن عينى راجية وتواسيها « كلنا فى المصاب بعالية سواء ، فعلينا أن نستشعر الصبر عسى الله أن يعيدها الينا دون أن يمسها سوء » •
فقال عبدان متأثرا : « سمع الله لك يا خالة واستجاب دعاءك » •
واستأذن عبدان خالته فى الانصراف ليبحث هو أيضا عن

عالية ، فأشارت عليه بأن يبقى فى المزرعة ليكون فى بقائه طمأنينة لهن وتسكين لخوفهن ، حتى يعود حمدان فيرى ما يكون منه ويتفقا على القيام بما يجب • فاستصوب رأيها وقال لها انه سيبقى خارج الكوخ على كثب منهن •

— ٤ —

وما أن خرج عبدان من الكوخ حتى قالت أمينة لابنتها « انك بحاجة الى الراحة يا بنيتى على فراشك » ونهضت العجوز متحاملة على نفسها ، وأخذت بيد ابنتها • • • • لتنهضها ، فأعانتها أم الغيث فقادتا راجية الى فراشها حيث استلقت عليه •

ثم عرضت أمينة على زوج ابنها أن تأوى هى أيضا الى فراشها ، فأبت وقالت لها ان ولديها قد ناما وانها لن تدعها وحدها حتى يرجع حمدان • وعادت المرأتان الى مجلسهما واخذتا تتحدثان ولا مدار لحديثهما الا عالية •

وكان صدى حديثهما يبلغ الى سمع راجية لولا أنها كانت فى شغل عنهم بما يضطرب فى قلبها من الخواطر ، ويدور فى رأسها من الافكار • لقد قلقت كما قلق سائر اهلها لفقد عالية ، ولكنها لا تستطيع أن تكذب نفسها ، فهى تشعر بشىء من الارتياح لغيابها لا تدرى على وجه التحديد ما سببه ، فلعله الحسد الذى تبطنه لاختها ، أو الطمع فى أن يخلو وجه عبدان لها • ولكنها لا تكاد تذكر ما قد تتعرض له أختها من الوان السوء والابتذال على ايدى اولئك الاثمة الفجرة حتى يقشعر بدنها اشفاقا على أختها من هول ما تلقى ، ويستيقظ ضميرها فيوبخها على ما حدث ، كأن لها يدا فى حدوثه ، أو كأنما كان فى وسعها أن تحول دون وقوعه فلم تفعل • ويتعاظم شعورها بالذنب حين تذكر ما قالت فى حق أختها أمام عبدان اذ عمدت جهدها الى تشكيكه فى براءتها ، وايهامه بأنها استسلمت لخاطفيها ولم تستغث لما بينها وبين ثمامة من صلة قديمة ، وهى تعلم حق العلم انها لبريئة • أى حقد دفين دفعها الى هذا الكيد الاثيم لاختها وهى فى موقف يرثى لها فيه اشد الناس عداوة لها وحسدا ! انها الان لتعجب من نفسها كيف انطلق لسانها أمام عبدان بما انطلق به دون أن

تزن كلامها أو تتروى فيه ، بل دون أن تعى ما ينطوى عليه من خطر عظيم • لقد ساءلها أخوها حمدان قبله ، فاكتفت بقص ما شهدت دون أن تزيد من عندها شيء لا برهان لهـا عليه ، ودون أن تتعرض لذكر ثمامة ، اذ لم [illegible] وسعها أن تقطع بأن أولئك الفرسان هم الذين اختطفوا [illegible] فكيف تغيرت شهادتها أمام عبدان فجأة ، فصار [illegible] وتحول الظن فيها الى يقين ؟ أجل لقد رجح [illegible] الآن أن أولئك الفرسان هم الذين اختطفوا أختها ، وغلب على ظنهـا أن ثمامة كان قائدهم ، ولكنها لا تدرى لم لم يغلب عليهـا هذا الظن عندما كان حمدان يسائلها ، ولم يستبن لها هذا الامر الا حينما وقف عبدان أمامها يستنطقها ثم ازدادت به يقينا بعد أن أفضت به اليه ؟

وان موقفها من ثمامة بعد لعجيب • انها لتحس فى أعماق نفسها برغبة خفية تود بها لو ان ثمامة اختطفهـــــا هى دون اختهـــا • • • وكأنها تحسد عاليـــة على ما نزل بها من هذا المكروه اللطيف • أفما كفى عاليـة أن يصطفيها عبدان من دونها حتى يصطفيها ثمامة أيضا ؟ لا ريب عندها أن ثمامة انما أتى هذا الامر انتقاما من أخيها اذ رفض خطبته اياها ؟ فما بال الاعمى يتعداها الى أختها ؟ أكان هذا من عمل الحظ الذى لم يزل يدابرها ويحالف عالية ؟ أم كان ثمامة يعنى ما يقول اذ قال لها يوما انه ما كان ليلتفت اليها لو لم تكن أختها عالية قد سبقه اليها عبدان •

ثم يعود بها الفكر إلى ما نزل بأختها من المكروه فتتصور ما تعانيه الان من القلق والحيرة والذعر ، وما ينتظـرها من المصير المجهول ، فاذا عاصف من التوجع والاشـفاق والحسرة والندم يعصف بها ويكاد يقصف أضلاعها قصفا ، وتلوذ بالنعاس لعلها تجد فيه مهربا من هذه الافكار التى تترامى بها شرقا وغربا ، وتصعد بها الى حالق ثم تهوى بهـــا الى قرار سحيق ، فاذا الاحلام المزعجة تتلقفها ، وتسلمهـــا من رعب الى رعب ومن هول الى هول لا يعد بجانبه ما تلقاه فى اليقظة شيئا مذكورا •

أما عبدان فقد خرج حين خرج من الكوخ بقلب مفعم بالهم لا يكاد يعى مما دار أمامه شيئا فقد كان الخطب أعظم من كل

ما يستطيع ذهنه أن يتصوره • كان قصارى ما يخشاه أن تعكر صفوه تلك الهنات التى كانت راجية تأتيها برعونتها وطيشها حين تبلغ حدها الاقصى • فأين هذا المحذور الهين الذى لم يقع بعد من ذاك المصاب العظيم الذى وقع الليلة من وراء كل توقع وكل حسبان ؟

أحقا خطفت عالية الحبيبة فلن يراها عروسا تهدى اليه بعد ثلاث ليال ؟ من هم أولئك السفلة الاشرار الذين لم يتورعوا عن اختطاف فتاة بريئة توشك أن تشهد ليلة عرسها التى ظلت تحلم بها طوال السنين ، فتتعزى بها عن المعيشة الضنك التى تحياها فى العمل الكادح والجهد الفادح بين لفح الهجير وقرس الزمهرير ؟

انه قد سمع كما سمع الناس بأنباء ذلك الثائر فى سباخ البصرة وجماعته من الزنج الذين استنفرهم فوثبوا على أموال الناس واستصفوا أملاكهم وسبوا نساءهم وأتوا من الفظائع والفضائح ما تقشعر لهوله الابدان وتنخلع له القلوب • فكان هو وحمدان يحمدان الله على أن كان أهلهما بمنجى منهم ، مهما ضاقت بهم المعيشة وعضهم الجوع والحرمان ، واشتد عليهم ظلم المالك وقسوة الجباة وجور الولاة • فكل خطب يهون ما صينت الاعراض وسلمت حرمات البيوت • وها هو ذا البيت المصون قد انتهكت حرمته الليلة واجترأ المجرمون فى هذه المنطقة الآمنة أن يختطفوا فتاة عذراء من دائرة حيها بين سمع أهلها وبصرهم ، فينطلقوا بها الى حيث لا يعلم الا الله ماذا هم بها فاعلون • أفهذه طلائع صاحب الزنج قد بدأت تنقص من أطراف هذه المنطقة ؟ فما بالها تصدف عن قصور الاغنياء ولا تنقض الا على أكواخ المعدمين ؟ أين هم من قصور الهيصم وابن الحطيم وأشباههما فى قرية الدور وفى الكوفة وجواسقهم المنتشرة فى الضواحي والارباض ، بما ضمت من أموال ومتاع وحور حسان وجوار وقيان ؟ أفصفحوا عن كل ما هنالك ليغيروا على اخت فلاح مسكين كحمدان يوشك ان يزفها الى ابن عم لها مسكين كعبدان ؟ •

كلا ، ان أولئك الزنج ، مهما قيل عن توحشهم وتهورهم ، لألب وأكيس من أن يأتوا مثل هذا • وان أنباءهم لحرية أن

تسبقهم الى هذه البقاع بالرعب والهلع لو تقدموا اليها مغيرين • وان جنود الدولة على الحدود لواقفة لهم بالمرصاد لا يمكن أن تغفل عن حركاتهم أو تنام • وان آخر ما تنوقل من أخبارهم أن الموفق أخا الخليفة قد حشد لهم جموعا هائلة كسرت من شرتهم ، وحدت من نشاطهم وحصرت مجال حركاتهم • فأنى لهم أن ينفذوا الى هذه البقاع وبينهم وبينها مسيرة شهر •

فمن هم أولئك السفلة الاشرار الذين اختطفوا عالية ؟ هذه راجية ــ وأواه من راجية ! ــ تقول انها شهدتهم كوكبة من الفرسان الملثمين مروا بها في عرض الطريق ، وانها افتقدت أختها عقب مرورهم ، فان يكونوا من جماعة العيارين كما تزعم راجية فما لهم ولعالية ؟ ان الشطار ــ ما عهد الناس ــ لا يصيبون الا ذوى الغنى والطول ليسلبوا بعض ما احتجنوا من أموالهم • واذا اختطفوا نساء هؤلاء أو أولادهم ــ وقلما يفعلون ــ فلكى يتخذوهم رهائن تبقى عندهم فى عز وصون حتى يفتديها أهلها بالمال • فهل خطفوا أخت حمدان ظنا منهم انه من كبار الاغنياء ؟ هذا لا يعقل ألبتة فان هؤلاء الشطار لأعرف الناس بأحوال القاطنين فىمنطقتهم بل انهم ليكادون أن يحصوا ثروات الاغنياء وكم يملك فلان منهم وماذا يملك فلان •

فهل فعلوا ذلك انتقاما من حمدان ؟ ولكن ماذا بين حمدان وبينهم ؟ ان حمدان لمن أشد الناس عطفا على هذه الطائفة من الناس ، طالما ذكرها بخير ، وطالما التمس لها المعاذير كلما ضاق صدره بمظالم الاغنياء وكبار الملاك وشدة وطأتهم على المساكين والفقراء من الفلاحين والاجراء •

مابأله نسى ثمامة ؟ ان راجية تقول انها لمحته بين أولئك الفرسان الملثمين • أفلا يجوز أن يكون ثمامة هو السبب ؟ ألم يقل له حمدان ذات يوم ان ثمامة توعده لما رفض تزويجه لراجية ؟ ومن هم الذين كانوا معه ؟ أهم من جماعة الشطار التى ينتسب اليها ؟ اذن فكيف رضى رئيسها أن يسخر جماعته لقضاء شهوة دنيئة كهذه قامت فى نفس ثمامة ؟ لعله زعم لهم أن أخت حمدان ترغب فى الزواج به وأن أخاها

أعضلها عنه فجاؤا معه لانقاذ هذه الفتاة المظلومة ؟

ولكن فيم خطف ثمامة عالية ولم يخطف راجية ؟ لعله قصد راجية فأخطأها وأصاب عالية • فماذا هو صانع حين يدرك خطأه ؟ أيبنى بها مكان أختها فهى أجمل منها أم يتخذها رهينة عنده حتى يزوجه حمدان من راجية ؟

كانت هذه الافكار تهدر فى رأس عبدان وهو يجوس خلال المزرعة حيثما تنقله قدماه دون قصد معلوم ، وقد تصطدم رجله بجذع نخلة منقعرة ، أو يضرب فى وجهه غصن شجرة ، أو تغوص قدمه فى تربة موحلة ، فلا يصده شيء من ذلك عن المضى فى جولاته لانه لا يدرى ماذا يأتى وماذا يدع •

وكان النسيم عليلا يوسوس بين الغصون كما كان عند ما خرج من قريته على بغلته ولكنه يحس له الآن قشعريرة تسرى فى ظهره ، وكأن حفيفه أنين خفى ما زالت تردده الثواكل حتى بحت به حناجرها • وهذا القمر ما زال مشرقا فى سمائه يرسل خيوطه الفضية على ما حوله من فضاء وشجر • ولكن عبدان لا يرتاح لنوره الساطع فيلوذ منه بأكناف الشجر وظلال الأيك • ودار فى جولاته حتى اقترب من المربد فرأى بغلته حيث ربطها هناك لم تتحلحل من مكانها ، وتأمل وجهها فى ضوء القمر فلم يتغير من ملامحه شيء • وكل ما يشغلها ذباب أو قراد يقع على عنقها أو فى مراق بطنها أو على كفلها فتهز رأسها أو تنفض عرقها أو تضرب باحدى قوائمها أو تخبط بذنبها لتذبه عنها ، فلو تخلصت من أذاه لما همها بعد ذلك شيء •

وانتقل طرفه الى باب الكوخ فتصور ــ وملء فؤاده الحسرة ــ كيف خرجت عالية منه عصر اليوم ثم لم تعد • والله يعلم وحده هل تعود ومتى تعود ؟ وتذكر كيف فتحت له راجية آنفا فوقفت له على هذه العتبة والدمع على خديها يسيل • كانت وقفتها تلك نذير سوء • فأشاح بوجهه عن الباب ، اذ خيل اليه أن راجية ما برحت واقفة هناك لتكون أول من يبشره بالمصاب الاليم •

وطفق يستعيد الحوار الذى دار بينه وبينها الليلة فاذا هم ثقيل يهبط كالصخرة على صدره حتى يكاد يسد مخرج

أنفاسه • وتمثل في ضميره ثمامة حينئذ وهو يحمل عالية بين ذراعيه فيثب بها على ظهر جواده فينطلق بها بين فرسانه الملثمين ، وهي لاتصيح ولا تستغيث • لعل المباغتة أعجلتها عن الاستعانة ، أو لعل الدهشة عقلت لسانها • أو لعلها ••• ألم تقل راجية ان ثمامة يعرفها ويطري جمالها ؟ فماذا يمنعها أن تعجب به وتميل اليه ؟ انها فيما تقول راجية لكتوم قلما يعرف أحد ما يدور في خلدها • فأي شيء كان يدور في ذاك الخلد ؟ •

لطالما زابه منها ذلك الزهد العجيب فيما يحمله اليها من الهدايا وقلة الاكتراث لما تعلنه لها أختها من التحبب والملاطفة على مرأى منها ومسمع • أفكان ذلك من جراء هذا السر الذي كانت تحمله تلك الكتوم ؟ ومن يدري لعل راجية ما بدأته تتحبب اليه على ذلك الوجه السافر الا حينما ألمت بطرف من سر أختها ، فأيقنت أن أختها لن تعترض عليها أو تثور • بل من يدري لعل ثمامة الفاجر ما طلب يد راجية الا ليجمعه بالتي يهواها وتهواه سبب من الاسباب • أين أنت الآن يا حمدان ؟ كأني بك تبحث عن أختك الضائعة في كل مكان • آه لو تعلم لأرحت نفسك من عناء لا غناء فيه • وتركت الضائعة وشأنها • فقد وجدها من هو أولى بها منك ومن هذا الاحمق المأفون الذي يدعونه عبدان ! كلا لا تتركها تعبث بشرف بيتنا وتدنسه بالعار دون أن تلقى الجزاء الذي تستحقه • امض يا حمدان في البحث عنها حتى تجدها • انها عند ثمامة • • ويل لها مني ••• ويل لثمامة مني •

وما وصل عبدان الى هذا الحد حتى خارت قواه وشعر بالارض من حوله تدور وكان قد بلغ في جولاته الى حيث تقوم صفوف النخل على غلوة سهم من الكوخ فاعتمد بيديه على جذع نخلة • ولبث كذلك هنيهة • ثم تخاذلت ساقاه فأسلمتاه الى حيث ارتمى متمددا على الارض وقد غاب عن وعيه كل شيء وطال انتظار حمدان على أمه وزوجه وافتقدتا حس عبدان فاستوحشتا وقلقتا • فقامت أم الغيث لتتفقده وتدعوه ليؤنسها في الكوخ • ففتحت الباب وظفقت تجيل بصرها في أرجاء المزرعة فلم تر له أثرا • فجعلت تناديه يا عبدان ••

يا عبدان فلا يجيبها الا صدى صوتها • فشعرت بخوف شديد جعلها توصد الباب مسرعة وتغلقه بالمزلاج وعادت الى مجلسها مع أم حمدان حيث باتتا ساهرتين فى قلق وخوف •

ورجع حمدان عند منتصف الليل وقد نهكه الجهد وأمضه الحزن فنزل عن ظهر حماره عند مدخل المزرعة • وكان قد طاف بجميع الضياع والمزارع المجاورة وسأل أهلها عن أخته فلم يجد عنها من خبر • وسأل الذاهبين والرائحين فى تلك الطرق والدروب هل بصروا فى طريقهم بفتاة بيضاء تلبس السواد وجعل ينعتها جهده لهم فلم يجدعند أحد منهم جوابا يشفيه • وكان فى نيته أن يواصل السير والبحث فيما وراء تلك الامكنة التى وصل اليها ، لولا أنه خشى أن يقلق أهله عليه اذا طال بهم انتظاره أو أن يمسهم مكروه فى غيبته فآثر أن يعود اليهم ليستأنف بحثه من الغد •

وانه ليقود حماره ناحية الكوخ وكلاهما ثقيل الخطو يترنح من الاعياء اذ نظر حمدان الى حيث تقوم صفوف النخل عن يمينه فبصر بينها بسواد شخص ممدود على الارض لم يستطع أن يتبينه على البعد أذكر هو أم أنثى فهفا قلبه وذهب به الظن مذاهب شتى ودب فيه النشاط فأرسل لجام حماره وانطلق يعدو حتى دنا من الشخص فراعه أن يجد عبدان مستلقيا على ظهره فى تلك البقعة • فجثا عليه ووضع يده على جبهته فوجدها محمومة تندى بالعرق اللزج • فلبث برهة يحركه ويهزه حتى أفاق من غشيته • فأنهضه ومشى يقوده صوب الكوخ •

وكان فى عزم حمدان لكى يدخل على أهله شيئا من الطمأنينة فيأووا الى مضاجعهم تلك الليلة أن يزعم لهم أنه اهتدى الى مقر عالية وأن لا بأس عليها هناك ، وأنه لولا خشيته أن يقلقوا لتأخره بالليل لركب اليها فعاد بها معه ، ولكنه لما حدثه عبدان عما سمع من راجية من احتمال أن يكون ثمامة بين أولئك الفرسان الملثمين الذين مروا بها فى المحتطب ، فاختفت عالية على أثر مرورهم ، لم يستطع أن يصبر عن استنطاق أخته الصغرى الى الغد ، وكانت راجية قد هبت من فراشها عند قدوم حمدان لتشوقها الى سماع ما أسفر عنه بحثه ، فجلس

الجميع يستمعون الى حمدان وهو يقص عليهم بعض ما كان منه ، ثم طفق يسأل راجية أسئلة مختلفة عن الفرسان الملثمين وهيئتهم وكيف عرفت ثمامة بينهم وعاتبها على أن لم تذكر له ثمامة من قبل ، فاعتذرت اليه بأنها ما عن لها هذا الخاطر وتوضح لها الا بعد لأى ، حينما حضر عبدان وأخذ يستعلمها عن الحادث .

وتشقق الحديث وتجاذبوا أطرافه بين اعادة لقص ما حدث وتوقع لما يحدث واقتراح لما ينبغي أن يعمل ، تتخلل ذلك كله ذكريات مؤثرة ، يتبادلون حديثها عن عالية ، فتفيض عيونهم بالدمع ، ما خلا عيني حمدان الحمراوين ، فليس للبكاء اليهما من سبيل .

وهكذا قضى أهل الكوخ ليلة نابغية لم يغمض لهم فيها جفن.

— ٥ —

مضى أسبوع منذ اختفت عالية لم يهدأ لحمدان جنب ولم يقر له قرار . وقد شغله هذا الخطب عن كل شيء ، فترك عمله في المزرعة لاثنين من الاجراء يتناوبان القيام به . ولم يدع سبيلا من سبل البحث عن أخته الضائعة الا سلكه ، فقد اتصل بعامل قرية الدور فأعلنه بالحادث ليوعز الى الشرطة بالبحث عنها وأعطاه كل ما عنده من بيان وتفصيل .

وبدا له أن يزور سيده ابن الحطيم ليشكو له ذات أمره ويستعين بجاهه ونفوذه ليحث عامل القرية ورئيس شرطتها على الاهتمام بالحادث . ولم يسبق لحمدان أن زار قصر ابن الحطيم أو رأى له وجها ، اذ كان يزهد في ذلك ويعد السعي اليه ضربا من ضروب التزلف يربأ بنفسه عنه ، حتى انه كان يتخلف عن الولائم العامة التي يقيمها المالك الكبير في مواسم خاصة يدعو اليها الجمع الغفير من الفلاحين الذين يعملون في أراضيه الواسعة .

واستأذن عليه في القصر الكبير الواقع في الطرف الشمالي من القرية، فقابله قيم القصر واخبره أن سيده في قصره بالكوفة منذ اسبوع ، ولا يدري احد متى يعود ؛ ثم سأله ماذا يريد منه، فحكى له حمدان قصة أخته ، وما يلمس من العون عند سيده ، فتلطف معه القيم في الحديث واخذ يواسيه ووعده بأنه سيبلغ رسالته الى سيده حين يقدم من المدينة ، ولكن حمدان قال له انه



الخطب لا يحتمل التأجيل، وانه عازم على السفر الى الكوفة ليقابل ابن الحطيم هناك . فجعل القيم يثبطه عن عزمه ويقول انه لاحاجة به الى تجشم عناء السفر ففى استطاعته هو ان يقوم مقـام سيده في هذا السبيل فرضي حمدان منه ذلك وشكره وانصرف

ولم يتكل حمدان على هذا المسعى الذى قام به عند عامـل القرية أو عند ابن الحطيم لعلمه ان ذلك قليل الغناء .

ان عليه الا يعتمد فى البحث عن اخته الضائعة الا على نفسه وان سبيل الاهتداء اليها لصعب فى هذا الظلام الدامس الذى يحيط بمعالم القضية . بيد أنه لايعدم بصيصا من النور يشع فى جوانبه فيكشف له عن سواد ثمامة يظهـر له ويختفى من بعيد فليقتف أثر ثمامة ، فانه متى اهتدى اليه فقد وجـد السبيل الى اتصاله .

وكان عبدان حريا أن يكون عونا له فى هذا الوجه . ولكن عبدان ما زال عليلا منذ تلك الليلة تنتابه الحمى وتعروه البرداء وكان حزنه الممض لفقده عالية عونا للعلة عليه يزيد فى شدتها ويطيل من امدها . وقد اراد ان ينتقل الى داره بالقرية ولكن حمدان ابى عليه ذلك ، والزمه ان يبقى فى كوخه ليعنى به أهله حتى يبرأ من علته .

وكان حمدان قد تحرى قليلا عن ثمامة فيما مضى حينما تقدم ثمامة يخطب أخته راجية فعرف عن سيرته ما دفعه الى رفض خطبته، فكان يسيرا عليه الآن أن يستأنف التحرى عنه بالرجوع الى أولئك الاشخاص الذين سألهم عنه من قبل وأشخاص آخرين من أهل القرية التى نشأ فيها ثمامة . واستطاع بعـد لأى أن يعرف عصابة العيارين التى انضم اليها ثمامة ويعـرف اسم رئيسها الشيخ سلام الشواف . وكان قد سمع من قبل بهـذا الرجل الذى طالما ألقى الرعب فى قلوب الناس بجرأته وشدة بأسه وكثرة مغامراته فى السطو على الاموال ونهب القوافـل وتسور القصور العالية ونقب حوانيت التجار . كانت له فى ذلك تدابير محكمة وخطط عجيبة أعيى أمرها رجال الشرطـة والعسس ، حتى ذهب كثير منهم صرعى بطشه وحيلته . فكانوا يتقون جانبه ويتفادون من لقائه .

وكان على ذيوع صيته قلما رآه أحد رأى العين أو عرف له مقرا ثابتا . وان كان الناس يتحدثون عنه أنه يغشى الاسواق

ويحضر الصلوات فى المساجد ويشهد المواكب فى ازياء مختلفة وهيئات شتى ، حتى قيل انه قد يندس فى مجامع النساء متخذا زى امرأة ٠

اغتم حمدان لما علم ان ثمامة من عصابة هذا الشيخ وتضاءل أمله في سهولة الاهتداء اليه بله استرداد اخته منه ؛ فرجع الى كوخه كسيرا حسيرا يكاد ينفض يده من الوصول الى مطلبه من هذا السبيل ٠ وتعلق أمله بعامل القرية ورئيس الشرطة من جديد عسى أن يأتيه الفرج من قبلهما ، فجعل يتردد عليهما مرة بعد مرة فيخبرانه بأن الشرطة مجتهدون فى البحث عن ضالته وأن عليه الصبر حتى يهتدوا اليها ٠

وبلغه ذات يوم ان ابن الحطيم في القرية فخف اليها وانطلق الى قصره الكبير ليقابله ، فلما استأذن عليه برز له قيم القصر وقال له ان سيده متعب لايريد ان يقابل احدا ، فلما الح عليه فى طلب مقابلته نهره القيم وتأفف منه وقال له انه قد اوصى العامل بالاهتمام بأمر اخته الضائعة قائما فى ذلك مقام سيده ولا يستطيع ان يصنع بعد هذا شيئا ٠

فكظم حمدان غيظه وقال له : « لعل سيدى ابن الحطيم اذا سمع بقصتى يستطيع بجاهه ان يصنع لنا شيئا ، وان لنا لحقا عليه فنحن من خدام ارضه »٠٠ فضحك القيم ساخرا ثم قال : « ان لكم حقا عليه أن لا يطردكم من ارضه ما قمتم باصلاحها واستثمارها وتأدية حقه فيها اليه وحسبكم ذلك الفضل منه ٠ وليس عليه ان يحرس لكم اخواتكم وامهاتكم أن يختطفهن اللصوص ، ولا يستنقذهن لكم من ايديهم ! »

فقال حمدان محتدا : « لاحق لك أن تسخر بى فى قصر سيدى ٠ انى ما أطلب منه الان يوصى العامل بالاهتمام بقضيتى وخلاه ذم » ٠

فقال القيم : « هو اليوم متعب لايقابل أحدا)

ــ فسأجيء له غدا ٠

ــ غدا سيعود الى الكوفة ٠

ــ فاليوم اذن ٠

فقال القيم : « ما ابلد الفلاحين ! أما تستطيع ويلك ان تفهم ما اقول ؟

فنفد صبر حمدان ونظر اليه بعينيه الحمراوين وقد زاد

احمرارهما فكأنهما جمرتان تتلظيان • ثم قال له بصوت اجش لا أثر للضعف والاستكانة فيه : « لولا بلادة هؤلاء الفلاحين لما استطاع مثلك أن يستمتع دونهم بثمرات كدهم فيقيم في مثل هذا القصر متقلبا في اعطاف النعيم، وهم يكدحون طول نهارهم في الشمس ويبيتون في الاكواخ من جوع يتضورون » •

ـ هذا ما يقوله صاحب الزنج لاصحابه العبيد •

ـ ان يكن هذا ما يقوله ذلك الرجل فلم يقل الا صوابا •

ـ حذار ان يعرف عنك التشيع لمذهبه فيمسك الاذى من السلطان •

ـ مالي ولصاحب الزنج ؟ لا أعرفه ولا أعرف مذهبه •ولكني أقول الحق ولا اخشى في الحق احدا •

ـ خير لك ان تنصرف الان بعافيتك وتدع الخوض فيما لا يعنيك •

فانتفض حمدان غضبا وصاح قائلا: « ولكن هذا يعنيني؟»

ـ هل أردت ان تقابل السيد لتقول له مثل هذا ويحك ؟

ـ انني اعرف ما ينبغي ان اقول له وليس من حقك وانت خادم مثلي أن تمنعني من مقابلته •

وخشي القيم من بوادر هذا الاكار الذي تقدح عيناه شررا ، فقال له بلهجة لينة :

ـ صدقت ليس ذلك من حقي واني ما منعتك مما تريد وانما أطيع امر السيد •

ـ انك لم تعلمه بمجيئي •

ـ لاني اعرف انه متعب •

ـ عجبا هل جئت لاكلفهأن يحرث الارض مكاني؟ أمايقدرأن يراني بعينيه ؟

ـ سأبلغه اليوم حاجتك فيحقق ما تريد •

ـ فبلغه الآن رغبتي في مقابلته • قل له اني هنا ولا اريم مكاني حتى اراه •

ولم يسع القيم حين رأى من تصميم حمدان ماراعه الا أن يتوجه الى داخل القصر وهو يقول : « انتظر قليلا ، سأفعل ما تحب » •

وانتظر حمدان في حجرة الاستئذان الخارجية وهو يرى سور القصر وسدته الحديد عن يمينه والباب المؤدي الى داخل

القصر عن يساره فوقف يتأمل النقوش البديعة على جدران الحجرة محلاة بماء الذهب والزخارف الدقيقة على الباب المنجور من الابنوس الفاخر المطعم بالعاج الثمين • ترى كم بدرة من الذهب أنفق على هذه التصاوير والتخاطيط التى لا تكسو من عرى ولا تشبع من جوع •

وهذه البسط الثمينة التى تطؤها نعلاه التربتان ما احوجه واحوج امثاله الى قطعة منها ليفرشها لضيوفه في الولائم والاعياد فان كان هذا كله فى حجرة الاستئذان الخارجية فكيف يكون داخل القصر وكيف تكون غرفه العليا وماذا يوجد فيها من زينة ومتاع ؟

هذا كله لابن الحطيم الذى ما حمل قط فى حياته فأسا ولا وقف بقدمه على سنة محراث ولا يعرف كيف يؤبر النخل او يبذر الحب أو يسقى الزرع ثم يقال انه متعب لا يقدر ان يقابل احدا •

وهنا اختلجت بسمة وانية حول شفتيه الغليظتين سرعان ما وأدها بينهما اذ ذكر ان ابن الحطيم قد يقبل فى تلك اللحظه فيراها ويرى من ورائها ما يجول فى صدره • ثم عاد فشك هل يخرج له ابن الحطيم الى حيث هو ام يأمر فيدخلونه اليه • ثم تذكر انه ما رأى ابن الحطيم من قبل قط فهو لا يعرفه اذا رآه وانه ليخشى حين يدخل عليه ان يكون معه بعض رجال حاشيته فلا يميزه من بينهم •

وسمع خفق النعال من الداخل فأصلح من هيئته وتوقع ان يظهر له ابن الحطيم او قيم القصر ليوصله اليه • فما راعه الا ان برز له رجل ما رأى فى حياته مثله ضخامة وطولا حتى ليكاد الباب الكبير يضيق دون ولوجه • وكان اسود اللون كريه المنظر ، له عينان صغيرتان يؤودهما جفنان ثقيلان ، كأنه نعسان يريد أن ينام • واضطرب حمدان قليلا لرؤيته ولعبت بباله خواطر شتى • ولكنه تماسك وتجلد ليرى ما يكون من امر هذا الهولة وقد ادرك من هيئته وملابسه أنه أحد خدام القصر • ولعله الحاجب الخاص لابن الحطيم وقد جاء ليأذن له فى الدخول عليه •

وقف الرجل هنيهة يرنو اليه بعينيه الصغيرتين وهو يحرك مشفريه الغليظين كالذى يتلمظ لرؤية الطعام الشهى • وانتظر حمدان ان يبدأه بالتحية او بالقول ، ولكنه بقى صامتا ثم مشى

متثاقلا نحو حمدان حتى دنا منه ــ وحمدان لا يدرى ما يصنع ــ فقبض بيديه الضخمتين على معصمى حمدان فكأنما طوقهما بقيد غليظ ٠

فصاح حمدان قائلا : « ماذا تريد ان تصنع بى يا هذا ؟ »

فلم يقل له الرجل شيئا وانما جره نحو سدة السور فأدرك حمدان ان ابن الحطيم او قيم القصر قد بعث هذا المارد ليطرده من القصر ٠ فثار به الغيظ فدفع باحدى رجليه فى فخذ المارد فظهر الغضب فى وجهه وشدد قبضته حتى أحس حمدان أن عظام معصميه قد رضت ٠ ورأى أن المقاومة لا تغنى ، فأسلس له القياد ومشى معه فى ممر الحديقة التى تفصل بين السور والقصر فرأى الورود والرياحين متفتحة فى ضوء الشمس وكأنها تبتسم شماتة به ، والتفت خلفه ــ وهو يسير أمامه فى قيادة المارد ــ فلمح بعض النقوش والتصاوير التى كان يتأملها فى حجرة الاستئذان منذ قريب باقية كما هى ٠ ورفع بصره صوب الطبقة العليا من القصر فبصر فى احدى شرفاتها بوجه قيم القصر ، والى جانبه شاب أبيض الوجه حالك سواد الشعر مرجله ، كأنه من وبيصه يقطر دهنا ينظران اليه ويتضاحكان

حتى اذا انتهى به المارد الى السدة أرسل معصميه وأومأ له أن ينصرف لسبيله دون أن يقول له شيئا ، فخطا حمدان عتبة السدة ثم استدار خلفه ليرى وجه ذلك الشاب المطل من الشرفة كرة أخرى فوجد العملاق قائما دون السدة قد حجبه عن كل شيء داخلها ، فاتخذ سبيله امما فى الطريق وهو يشعر بالخزى وخيبة الامل ، ويلعن ابن الحطيم فى سره ، ويمسح معصميه ليسكن الالم الذى بقى من أثر قبضة المارد ؛ ورأى ظل السور ممدودا ، فما مشى فيه الا قليلا حتى ازور عنه الى الشمس مؤثرا حرها على برده كيلا يكون لهذا الغنى اللئيم من فضل عليه

ــ ٦ ــ

وسار حمدان فى طريقه غضبان أسفا حتى بلغ سوق القرية دون قصد منه ، فتذكر أنه يريد شراء بعض الحوائج لاهله قبل أن يعود الى المزرعة ، فأخذ يمشي فى أزقته الضيقة بين الحوانيت الصغيرة ، وقد بدأت حركة الناس تخف فى السوق من أجل الحر ، وطفق الباعة يرتبون بضائعهم أو يرشون الماء أمام حوانيتهم ليخففوا وقدة الشمس ؛ وجلس بعضهم قدامها

يتحدثون .

ثم وقف امام حانوت صغير مغلق هو حانوت ابن عمه . فجاش صدره بالشجون ومر في خياله عبدان وعالية وثمامة وابن الحطيم وعامل القرية متتابعين في صف واحد ، فاذا شخص يناديه باسمه . فالتفت اليه فوجده صديقا لعبدان تاجرا يواجه حانوته حانوت عبدان ، فحياه الرجل ودعاه ليستريح قليلا عنده ، فلما جلسا في الحانوت سأله صاحبه عن عبدان فأخبره بأنه يتماثل من علته وسيفتح حانوته وشيكا ، وما مضيا في الحديث الا قليلا حتى أدرك حمدان من لحن قول جليسه أنه قد ألم بطرف مما حدث لعالية ، وانما يمنعه الاشفاق عليه أو الحياء منه أن يبدأه بحديثها ، فلم ير حمدان بأسا أن يقص عليه قصتها لعله يجد رأيا ينفعه ، وعجب حمدان لما رأى الرجل يصغي الى قصته وهو يتوجع توجعا شديدا ، ويصعد الزفرة تلو الزفرة ، فحسب في أول الامر أنه يتصنع ذلك مجاملة له وتطييبا لخاطره ولكن الرجل مالبث أن اغرورقت عيناه بالدمع ثم جعل يبكي بكاء حارا وينتحب انتحابا حتى أشفق حمدان عليه ، وعجب من نفسه كيف لايجد الدمع سبيلا الى مآقيه حتى انه لم يذرف دمعة واحدة على أخته الضائعة ، وان حديث مصابها ليبكي الا باعد عنها اذا سمعوه .

واحس الرجل بما دار بخلد حمدان فكفكف دموعه وقال له بصوت متهدج :

« لاتعجب ياحمدان لما ترى مني فاني مصاب مثلك » ; وحار حمدان كيف يجيب الرجل لانه لما يفهم قصده من هذه الجملة المبهمة ، وعاد الرجل ليوضح حديثه فقال : « ان ماوقع لاختك قد وقع لابنتي من قبلها » .

ومضى الرجل يحدث حمدان كيف اختطفت ابنته منذ ثلاثة أعوام وكيف أنه لم ير وجهها منذ ذلك اليوم أهي الآن في الاحياء أم في الاموات » .

ـ أما بلغت أمرها الى الشرطة ؟

ـ بلى ولكنهم ما أغنوا عني شيئا .

ـ ويلهم ... أما استطاعوا في هذه المدة الطويلة أن يعثروا على المجرم ؟

ـ ما أشك أنهم عرفوه فستروا عليه واعرضوا عنه .

ـ أواه ... أوقد أصبح السلطان عاجزا لايقدر على شراذم العيارين والشطار ؟ انها والله لبلية كبيرة .
ـ لكن هؤلاء لايخطفون بنات الناس ولا يسطون الا على أموال الاغنياء .
ـ تلك كانت سنتهم فيما مضي وقد كنت مثلك حسن الرأى فيهم ، فلقد تغيروا اليوم فما يفرقون بين غنى وفقير ولايتذممون من هتك الحرم .
وحكى له حمدان ماكان من ثمامة وانتمائه الى عصابة الشيخ سلام الشواف وانه لايشك أن ثمامة هو الذى خطفها انتقاما منه لرفض خطبته لاخته الثانية ، فقال له عبد الرؤوف : « انني أعرف العيارين وخالطت كثيرا منهم حين كنت أبحث عن ريا ابنتي . فأيقنت أنهم لايمكن أن يأتوا مثل هذه الاعمال الدنيئة . فان صح أن ثمامة فعلها فبدون علم من جماعته ولا رضاهم » .
ـ ولكنهم ركبوا معه وعاونوه على ارتكاب الجرم .
ـ فلا بد أنه كذبهم ولم ينبئهم بحقيقة الامر .
ودهش حمدان لما استطرد عبد الرؤوف فحدثه بأنه ما كشف له عن الذى اختطف ابنته الا العيارون .
ـ أو تعلم الذى اختطف ابنتك ؟
ـ نعم .
ـ من ؟
ـ أحد أغنياء القرية .
ـ أيهم ؟
ـ أتحلف لى انك لاتقول هذا لاحد ؟
ـ نعم احلف لك .
ـ مالك الارض التى تعمل فيها ياحمدان ؟
ـ أتعنى .. ؟
ـ نعم أعنى ابن الحطيم !
فذهل حمدان وشعر برجفة خدرت لها أوصاله . وظل برهة وهو لا يسمع الا هذا الاسم يطن فى أذنيه ، وكأن أرجاء الارض وأحواز السماء تدوى به وتردد صداه : ابن الحطيم ... ابن الحطيم ... ابن الحطيم ! وتمثل لعينيه وجه ذاك الشاب المطل من الشرفة بشعره المرجل اللامع ، فى ومضات خاطفة

متقطعة تواكب ما يطن بأذنيه !
وما أخرجه من ذهوله الا صوت جليسه يقول له وهو يضرب بيده على كتفه : « لا تعجب يا حمدان فما هذا بأول جرم ارتكبه هذا الغنى الفاسق . وله وللهيصم جرائر كثيرة من هذاالقبيل»
فسأله حمدان وهو يبل بريقه ما شعر به من جفاف شفتيه :
« هل تحققت أن ابن الحطيم هو الذى . . . ؟ »
ــ نعم لقد سمعت ذلك من بعض خدم قصره بالسكوفة وسماها لى ونعتها فلم يبق عندى شك أنها ابنتى ريا .
ــ هلا شكوته الى السلطان ؟
ــ ما أغنى عنى ذلك شيئا . فما كانت لى بينة عليه ، ولا كان فى وسعى أن أحمل الوالى أو رئيس الشرطة على تفتيش قصره وهما من ندمائه وله عليهما أياد وأفضال .
فسكت حمدان قليلا كأنه يوازن بين ما كان من أمر هذا التاجر المنكوب وأمره هو ثم قال له : « لماذا لم تشهر به وتفضح أمره فى الناس ؟ وعلام استحلفتنى أن لا أقول هذا لأحد ؟ » .
ــ « ويحك يا حمدان لقد دأبت زمنا على التشهير به حتى لقينى بعض غلمانه الاشقياء ذات ليلة فتوعدونى ليقتلننى قتلة الكلب اذا لم أكف عن التشهير بسيدهم . وبعد فماذا يضيره ذلك أو يجدى ؟ لقد رأيت خيرا لى آخر الامر أن أوارى سوأة ابنتى عن عيون الناس . ولأن يقولوا انها اختطفت وضاعت أهون عندى من أن يقولوا انها عند ابن الحطيم يمسكها على سفاح » وما أتم التاجر كلمته حتى انفجر باكيا . ولما مسح دمعه نظر الى حمدان فبصر بدمعتين تترقرقان فى عينيه الحمراوين ، فقال له مشفقا مرتاعا : « ويحك يا حمدان انك لتبكى دما » ! . .
فتبسم حمدان من قول صاحبه ومسح عينيه بطرف كمه فما بدا عليه أثر لدم ، وانما هو قليل من الدمع . ففطن الرجل لما وقع فيه من الوهم ، فتبسم ضاحكا وما يزال فى عينيه آثار البكاء ، فكان منه مايكون من الطفل يبكى لشىء أغضبه أو لأمر عز عليه فجىء له بغتة بما اشتهى فغلبه الفرح فطفق يضحك وهو بعد على حاله يبكى !
وتذكرا ما هما فيه فعجبا كيف تسلل الابتسام الى شفاههما .

قال حمدان وهو يتنهد : « يجب أن يثور الناس على هـــذه الحال ويجب أن ننقذ ابنتك من يد هذا الفاسق » .

فقال عبد الرؤوف بصوت حزين مؤثر :

ـ « هيهات يا حمدان فقد كان آخر ما بلغني من خبرها عن ذلك الخادم أنها اختفت من القصر منذ عامين فلم يعرف أحـد عنها شيئا ؟ » .

ـ فأين ذهبت ؟

ـ لا أدري ـ لعلها ماتت أو قتلت أو رحلت الى جهة نائية . فقد بلغني أنهم يفعلون بعض هذا بالفريسة حين يستغنون عنها

قال له حمدان : « أما قلت لي انه حبسها في قصر الكوفة ؟ »

فقال عبد الرؤوف وهو يحسب أن حمدان يريد بسؤاله هذا أن ينقذها « بلى ولكن لا تشغل نفسك بأمرها فليست اليوم هناك » .

وتذكر حمدان أن ابن الحطيم قضى الايام التي تلت اختطاف عالية في قصره بالكوفة كما حدثه بذلك قيم قصره . فخطر له أن عالية قد تكون هناك . ومن يدري لعلها تنزل في نفس الغرفة التي كانت فيها ريا . فأزعجه هذا الخاطر المخيف ولكنه سرعان ما طرده من قلبه اذ ذكر ثمامة وجماعته العيارين . فأني يصح أن تصير من عند هؤلاء الى ابن الحطيم ؟ .

وما انتهى من هذا الخاطر حتى تذكر أن جليسه قد ظن به الاهتمام بانقاذ ابنته ريا . فخجل حمدان في سره وأراد أن يداري هذا الخجل فقال له : « أما نستطيع أن نصنع لابنتـك شيئا ؟ » .

فقال له عبد الرؤوف « شكرا لك يا حمدان . لا فائدة من محاولة المستحيل . اني قد يئست من ابنتي ولم يعد لي فيها مطمع وعددتها كأنها لم تكن . فدعنا نهتم الآن بأختك عسى الله أن يأذن بردها اليك ويومئذ أشعر بأن ابنتي رجعت الي » .

فتأثر حمدان من مقالته وجعل يشكره شكرا بليغا ثم قال له : لو أعلم أن أختي عند ابن الحطيم أو عند الهيصم لاقتحمت القصر عليه وليكن ما يكون . ولكنها ـ واأســـفاه ـ بأيدي العيارين من جماعة الشيخ سلام الشواف فكيف السبيل الى هؤلاء ؟ .

فسكت عبد الرؤوف هنيهة ثم قال له : ان تكن حقا عنـد

هؤلاء فأيقن أنها بمأمن من السوء وأنها عما قريب سترد اليك. بيد أني ما زلت أشك أن يتعرض هؤلاء لفقير مثلك لا يطمعون عنده في مال أو فدية .

ـ لا تنس ثمامة وانتقامه مني .

ـ ان فعلها ثمامة فلا شك عندي أنه خدعهم .

ـ اني أراك مصرا على هذا الرأي .

ـ لأني لا أستطيع أن أومن بخلافه .

ـ فماذا تنصحني أن أصنع ؟

ـ أن تتصل بهم فترى ما عندهم .

ـ لو كان في مقدوري ذلك لقد فعلت . ألا تستطيع أنه تدلني على أحد منهم ؟ فارتبك الرجل واعتراه خجل شديد اذ تذكر أنه قد أخبر حمدان آنفا أنه يعرفهم وأنه قد خالط كثيرا منهم . وأحس أن حمدان يستنجد به الآن ويلتمس معونته في هذا السبيل فكيف يسعه أن يتنصل مما قال ؟ وزاد ارتباكه لما نظر في وجه حمدان فرأى في عينيه بريقا ينطق بكثير من الاستعطاف وقليل من العتب الجميل ، فما كان منه الا أن دنا من حمدان فهمس في اذنه قائلا : « في وسعي أن أجمعك بأحدهم ولكن حياتي وحياتك ستكونان معلقتين بكتمانك هذا السر فهل تحلف لي على هذا يا حمدان ؟ » . فأقسم له حمدان أغلظ الايمان أن « لا يخرج هذا السر من صدره أبدا » .

فلما وثق به صاحبه قال له : « فقم بنا الساعة لنشهد صلاة الظهر في الجامع وليقضي الله بعدها ما يشاء » .

وما لبث الرجل أن أغلق باب حانوته . فطفقا يمشيان ناحية الجامع ، وحمدان منشرح الصدر طيب النفس يشعر برغبة شديدة في الصلاة ليشكر الله على أن ساق اليه هذا الرجل الطيب يواسيه ويعينه في مصابه . وما يدريه لعل الله أراد بأخته خيرا فقيض له هذا المعين الصالح من حيث لم يحتسب .

وبلغا الجامع فدخلا من بابه الخلفي الى الميضأة فوجدا خلقا يتطهرون فانتظرا قليلا حتى جاء دورهما فتوضآ للصلاة ثم أفضيا الى صحن الجامع فجازاه الى الشطر المسقوف منه حيث ألفيا جمعا ينتظرون الصلاة أن تقام وهم بين قائم يتنفل ، وجالس يسبح أو يتلو القرآن ، وداخل مثلهما يبحث عن فرجة

يشغلها في الصفوف .

وأومأ عبد الرؤوف لحمدان أن يتبعه فتخللا الصفوف حتى وقفا الى جنب سارية قد جلس اليها شيخ مهيب الطلعة يرتدي جبة خضراء وعلى رأسه عمامة كبيرة بيضاء كأنها غمامة ، فصليا ركعتي التحية وما ان سلما من صلاتهما حتى التفت عبد الرؤوف الى الشيخ الجالس عن يساره فحياه وأكب على يده يقبلها وتوقع حمدان حينئذ أن يقدمه صاحبه الى الشيخ ولكنه لم يفعل بل أخذ يساره والشيخ يميل أذنه اليه ويسترق النظر الى حمدان مرتين أو ثلاثا فيخفض حمدان بصره كلما وقعت عين الشيخ عليه اذ يحس أن لها شعاعا غريبا نفاذا يكاد يخترق حجاب قلبه . وأدرك حمدان أن صاحبه يحدث الشيخ عنه دون أن يسمع شيئا مما يقول .. وخالطه شيء من الارتياب من جراء هذا الهمس ، فلولا اطمئنانه الى صاحبه التاجر لظنهما يأتمران به .

وان حمدان ليدافع هذا الخاطر عن نفسه اذ التفت اليه عبد الرؤوف قائلا : « هذا الشيخ بهلول السمرقندي ياحمدان » واذا الشيخ يمد اليه يده ليصافحه فأهوى عليها حمدان فقبلها وهو يقول « ادع الله لي أيها الشيخ الصالح عسى أن يرحمني ببركتك » وجذب الشيخ يده منه فأحس حمدان بثقلها وقوتها وشثانة أصابعها فتعجب منها ، ولكن صرفه عن التفكير في أمرها ما رأى من أثر السجود على جبهته الواسعة وقد افتر فمه عن بسمة جعلت تضيء من خلال شاربه وعنفقته وعارضيه ، وسمعه حمدان يقول بصوت خافت : « تقضى حاجتك ان شاء الله » .

وكان حمدان قد سمع بالشيخ بهلول الذي يعظ الناس فيبكيهم من خشية الله ويقص عليهم سير الانبياء والرسل والصالحين فيشوقهم الى عبادته ويزهدهم في الدنيا ويرغبهم في الدار الاخرة . وطالما اشتاق الى سماعه ورؤيته فلم يقدر له ذلك لكثرة مشاغله ، واذا هو اليوم يحظى بمعرفته والاتصال به من طريق صاحبه التاجر ، فما أسعده لولا ظل الشك الذي يساوره من جراء مسارة التاجر للشيخ آنفا واستراق الشيخ النظر اليه .

وقامت الصلاة فكبر الناس وكبر حمدان واجتهد أن يتخشع

فى صلاته ويتجرد من كل مايشغله من الخواطر ، ولكن عز ذلك عليه فقد ظل التفكير فى أمر الشيخ وما همس به التاجر اليه شاغلا باله طوال الصلاة ، فتشاءم من ذلك ووقع فى روعه أن الله لن يظفره بحاجته لانه لم يستطع أن يخلص له الدعاء .

واخذ الناس ينصرفون الى بيوتهم بعد انتهاء الصلاة ، وأقبل جماعة منهم فطفقوا يصافحون الشيخ ويلتمسون بركته ودعاه بعضهم الى الغداء فى بيوتهم فكان يشكرهم معتـذرا بأنه قد وعد عبد الرؤوف التاجر بأن يتغدى اليوم على مائدته : فلمـا سمع حمدان هذا منه خف عنه شعوره بالارتياب ، اذ جوز أن تكون هذه الدعوة الى الغداء بعض موضوع المسارة ، بيد أنه تضايق من وجه آخر لان غداء الشيخ عند صاحبه سيشـغل التاجر وقتئذ عن الاخذ فيما وعده به أن يجمعه بعد الصـلاة بأحد العيارين . وتذكر أنه وعد أهله بالرجوع من القرية قبل وقت الغداء ، فلا بد انهم ينتظرون مجيئه الان . وسـيقلقون عليه اذا تأخر فقد صار القلق لايسر الاسباب ديدنهم منذ ألم بساحتهم حادث الاختطاف الاليم .

- ٧ -

ونهض الشيخ من مقعده فنهض الرفيقان معه ، وخرجوا من باب الجامع وهم صامتون . حتى اذا أخذوا فى بعض الطريق وهم حمدان أن يستأذن صاحبه فى الانصراف على أن يعود اليه لقضاء مهمته فى وقت آخر ، بدره صاحبه فقـال له : « انك ستتغدى معنا اليوم » . فحاول حمدان أن يعتذر فأخذ عبـد الرؤوف بطرف كمه يجره اليه وهو يقول : « ويحك ياحمدان أنسيت الحاجة التى مضينا من اجلها اليوم ؟ » . ولم يسـع حمدان الا الانصياع لامره الجازم دون أن يراجعه ليفهم ماعناه ولا سيما اذ نظر الى الشيخ فوجده يبتسم له كأنما يقول له : « ألا تريد أن تشهد الغداء معى ؟ » .

وساروا فى طريقهم صوب الجنوب وهم يلوذون بظـلال البيوت . فاخترقوا زقاقا ضيقا ؛ ثم انتهوا الى شارع متعرج أفضى بهم الى ميدان فسيح يقوم فى جانب منه قصر كبير قد برزت شرفاته من سور الحديقة التى تحيط به فعرف حمدان أنه قصر الهيصم . وما يدرى حينئذ لماذا خطر له أن يدع رفيقيه فينطلق الى القصر فيقتحمه على حراسه وحجابه عسى أن يجـد

أخته عالية محبوسة في احدى غرفه · وكان الثلاثة يعبرون الميدان من الجانب الاخر فلما توسطوه بدا لحمدان فنظر عننا الى وجه الشيخ ، فاذا عيناه ترنوان جهة القصر من تحت الرداء الذى ألقاه على عمامته ليتقى به حر الشمس ، واذا شعاع غريب يتطاير منهما تطاير الشرر من الجمر · فطارت من ذهن حمدان معانى الصلاح والتقوى ، وحل محلها ماكان يتخيل فى طفولته أن يراه فى عيون القتلة والسفاحين ·

وما نقله من خاطره هذا الا صوت عبد الرؤوف يقول له : « هذا قصر الهيصم لعلك تعرفه ياحمدان · ألا تراه أفخم من قصر سيدك ؟ » ·

فأومأ حمدان برأسه أن نعم ولم يقل شيئا اذ لمع فى ذهنه كالبرق حينذاك قصرابن الحطيم ووجه الشاب المطل من الشرفة يقطر شعره المرجل دهنا · وما راعه الا أنّ التفت الشيخ اليه قائلا : « ان حمدان لراض بكوخه ··· راض بكوخه لو تركوه» ·

نالت هـــذه الكلمة من حمدان ما لم ينله أى كلام آخر · فاهتز لها قلبه اهتزازا شديدا · وخيل اليه أن هذا الشيخ يعلم من قصة حياته ومكنون سره ما لا يمكن لعبد الرؤوف أن يكون قد ساره ببعضه فى تلك النجوى القصيرة بالجامع ·

ثم عاد الشيخ فقال وهو يتكفأ فى مشيته الهوينى : « فاز المخفون يا حمدان ! فاز المخفون يا عبد الرؤوف ! » وما زال يرددها حتى انتهوا الى زقاق طويل فساروا فيه نحوا من ثلثيه ، فانعطفوا يمينا الى حارة ضيقة مسدودة · فقال عبد الرؤوف حينئذ : « ها نحن أولاء قد وصلنا » وتقدمهما الى باب غليظ قد بان عليه القدم ، واسودت زوافره العليا من طول اللمس · فما كاد يضع يده على مقرعته حتى سمع صوت المزلاج · فدفع الباب قليلا ومال برأسه داخله ولبث هنيهة ثم فتحه على وسعه وأذن لضيفيه فدخلا معه · وصعد بهما الدرج حتى قادهما الى غرفة متوسطة لا بأس بزينتها وأثاثها · فقد كانت مفروشة بطنفستين احداهما ثمينة هى التى فى صدر الغرفة وفوقها الارائك والوسائد ، والاخرى دونهـا قيمة وهى الموضـــوعة فيما يلى الباب ·

فلما استقر بهم المجلس أخذ صاحب البيت يرحب بضيفيه ويؤانسهما ويدنى الوسائد الى ظهرهما ويقدم لهما المراوح ،

ويروح باحداها عليهما ٠
وكان حمدان اذ ذاك يقلب عينيه فيما يرى ٠ فيأخذه العجب أن لا ينم منظر الدار من الخارج عما عليه داخلها من النظافة والاناقة والمتاع ٠
وفتح الباب فدخل غلام صغير يحمل مجمرة فوضعها بين يدى سيده ثم انصرف فأخذها الرجل فأصلح نارها قليلا ثم رمى عليها قطعة من العود الجيد فجعل يتصاعد منها دخان أبيض ينفح بالعرف الطيب ٠ فقدمها الى الشيخ فأدناها من أنفه يستنشق دخانها ثم جعل يطيب بها ثيابه وعمامته ٠ فلما انتهى من ذلك وضعها دون صدره فجعل الدخان يتصاعد الى لحيته وعارضيه ٠ ويتسرب خلال الشعر الابيض ، فيخيل الى العين أن الشعر يتناثر من لحيته وعارضيه فى الهواء ٠ ثم قدمها الى حمدان فاستجمر بها مليا ولسان حاله يقول : « أنى لى أن أظفر بمثل هذا غير اليوم ؟ » حتى عرق جبينه من حر المجمرة فسره ذلك وأسر فى نفسه أن هذا العرق سيكون أعقد للطيب فى جسده ٠
وحين قضى منها لبانته ، دفعها لصاحب البيت وما كاد أن يفعل ٠ وان عبق العود ليفعم خياشيمه بعد اذ وسوس له خاطره فتسلل به الى حيث يرى بعين خياله ربة الدار وقد فرغت من تهيئة الطعام وتسوية شؤون الدار ، فارتدت حلتها الحرير وسوت شعرها وتطيبت وتجملت بحليها من الذهب والفضة والجواهر ، ووقفت على الشباك تنتظر مجىء زوجها التاجر لتستقبله عند باب الدار ثم تحضر له الطعام فتواكله لولا وجود الضيف عنده اليوم ٠ ثم طار به الخيال الى ابن عمه التاجر عبدان ٠ وكيف كان يأمل أن تعيش معه أخته عالية حين يتزوجها عيشة أرغد وأهنأ من العيشة التى يحياها هو وأهله فى المزرعة ٠ وماذا يمنع عبدان وهو تاجر مثل عبد الرؤوف حين يتقدم فى تجارته أن يسكن عالية فى دار كهذه ويلبسها من الحلل والحلى ما تلبسه زوجة مضيفه فيما تخيلها عليه ؟
ولكن أواه ! أين عالية الان ؟ لقد خطفها اللصوص قبل زفافها بأيام قلائل ٠ وتذكر ثمامة فتحرق قلبه موجدة عليه ٠ أواه ٠٠٠ كيف السبيل الى ثمامة ؟ ثم تذكر أنه ماسار مع عبد

الرؤوف الى حيث سار الا ليجمعه عبد الرؤوف عقب الصــــلاة بأحد العيارين عسى أن يدله على ثمامة اللعين • واذا هوالساعة قاعد فى بيت عبد الرؤوف ينتظر الغداء مع هذا الشيخ الواعظ ولا يدرى متى ينصرف الشيخ لسبيله فيفرغ عبد الرؤوف له • وخيل اليه أنه قد انتظر دهرا دون أن يأتى الغداء ، واستبد به الضيق وتذكر انتظار أهله اياه فى المزرعة فندم على أن خضع لعبد الرؤوف ولم يرفض دعوته منصرفهم من الجامع • وحدثته نفسه أن ينهض ساعتئذ مستأذنا للانصراف بعذر يختلقه اختلاقا لكى يذكر عبد الرؤوف بما نسى من حاجته على الاقل ، فمـا راعه الا الشيخ يميل رأسه اليه ويقول له بصوت خافض لايكاد يسمعه سواه • « أتعرف ثمامة يا حمدان ؟ » •

فارتبك حمدان لما فوجىء به من سؤال الشيخ من حيث لم يتوقعه فسكت قليلا لايدرى كيف يجيبه ونظر الى صاحبـه التاجر كأنه يستنجد به • فرآه مبتسما كأنه يشجعه على الجواب فلما أعاد الشيخ السؤال عليه قال له حمدان : « نعم ••• قد جاءنى يوما يخطب اختى الصغرى فلما رفضت خطبته انتقم منى فاختطف أختى الكبرى المخطوبة لابن عمى » •

فقال الشيخ : « اذا فما اختطف تلك التى خطبها ؟

فأجابه حمدان قائلا : « لاياسيدى الشيخ • انه خطب راجية وخطف عالية » •

ـ فكيف علمت أن الذى فعل ذلك هو ثمامة ؟

ـ لا أحد سواه • وقد رأته راجية راكبا فى كوكبـــــة من الفرسان الملثمين على هيئة الشطار • فما لبثت أختها أن اختفت عقب مرورهم •

فنظر اليه الشيخ مليا ثم اقترب منه حتى كاد فمه يلامس أذن حمدان فقال له : « هل رأيتنى أو سمعت بى قبل اليوم ؟ »

فتعجب حمدان من هذا السؤال • ولـــكنه أجابه قائلا : مارأيتك من قبل ؛ ولكن طالما سمعت الناس يتحـــدثون عن صلاحك وحسن وعظك •• » واراد حمدان أن يســـتطرد فى الثناء عليه • فقاطعه الشيخ قائلا : « حسبك يا حمدان • • ان عبد الرؤوف حدثنى ببعض أمرك وأخبرنى بأنك أهل للثقة وقمين بكتمان السر فهل أنت كذلك ؟

فخفق قلب حمدان وتذكر استحلاف عبـــد الرؤوف له

على ذلك • وتوقع أن يسمع الساعة أمرا بالغ العجب من ذاك الشخص الغريب • فقال له : «ارجو أن أكون كذلك • وقد حلفت لعبد الرؤوف ، وانى على الاسرار لامين • »
ـ هل سمعت بالشيخ سلام الشواف وعصابته ؟ •
ـ نعم وقد بلغنى أن ثمامة منهم •
ـ أرأيت لو أرادوا الفتك بك أيعصمك منهم أحد ؟
ـ لاعاصم من هؤلاء فيما سمعت • ولكن ماذا يحملهم على قتلى ؟ اللهم الا أن يكون ثمامة •
ـ دع عنك ثمامة فانه لايقدر على ذلك ••• ولكن ان أفشيت لهم سرا ائتمنوك عليه فلا تلومن الا نفسك •
ودهش حمدان لكلام الشيخ وعجب من شدة لهجته ، وهو ينطق بهذه الكلمات الاخيرة • وايقن انه أراد بها تهديده • ولكنه رأى أن يمضى فى تجاهله لحقيقة مقصد الشيخ حتى يصرح به • فقال له : « وانى لى ان أؤتمن على سر لهم ؟ » •
فنظر الشيخ نظرة الى عبدالرؤوف ثم ابتسم لحمدان ابتسامة غريبة دب لها الرعب فى قلبه • وقال : « فاعلم ياحمدان اننى منهم • وقد ائتمنك على سرى وأوليتك ثقتى ، فحذار يا هذا ان تخوننى فتخسر حياتك » •
ولم يدهش حمدان كثيرا لسماع هذا القول العجيب • فقد توقع أن يسمع شيئا كهذا منذ القى عليه الشيخ أسئلته الغريبة بل أحس الان بالطمأنينة اليه والقرب منه بعد ذاك الارتياب الخفى الذى ظل يساوره منذ رأى عبد الرؤوف يساره فى الجامع وتذكر مارابه من صلابة يده وشثانة أصابعه وما أنكره من ذاك الشرر الذى تطاير من عينيه عند مرورهم بقصر الهيصم •• فاستراح الان قلبه من كل حيرة كانت تنوء به •
قال حمدان وقد تطلق وجهه وانطلق لسانه : « اطمئن ياسيدى ، فسرك فى قلبى لايجيزه حلقى ولو جازت الشفار عليه »
وسمعت حركة من خلف الباب فوضع الشيخ يده على فمه اشارة السكوت وقام صاحب البيت فخرج من الباب ثم عاد فقال : « هلما الى الطعام فقد أعد » • فقاما معه الى قاعة الطعام فى وسط الدار ، فاذا خوان كبير ممدود قد صفت عليه أطباق الطعام أصنافا وألوانا • فطفقوا يأكلون وصاحب البيت يباسطهما ويقدم لهما اللون تلو اللون ، وكان حمدان قد اطمأن قلبه

فتفتحت شاهيته ، ورأى طعاما لاعهد له بمثله فجعل يأكل ويأكل حتى كاد يعجز عن النوض شبعا ، وقد لوحظ أن الشيخ يأكل أكلا ذريعا لايكاد يستقر على طبقه شيء حتى يأتي عليه ٠ فلم يعجب من صنيعه بعد اذ عرف حقيقته ، وانما أخذه العجب من جمال القاعة وازديانها بالامتعة والرياش والستائر والبسط الثمينة ، ومن ذلك الخوان وما عليه من الاكال المتنوعة والاطباق البديعة والاكواب الفاخرة ؛ فتفكر في أمر هذا التاجر كيف يكون عنده كل هذا المتاع والزينة ، وكيف يتيسر له الانفاق على كل هذا الترف ، وان حانوته الصغير وما فيه من البضائع القليلة لايعقل أن يدر عليه مايقوم ببعض مارأى عنده ، فلا بد أن يكون لديه مورد اخر للرزق ٠ وما لبث أن ذكر صلته بالشيخ بهلول الذى اتضح له الان أنه أحد العيارين من أتباع الشيخ سلام الشواف ، وقد اتخذ عبد الرؤوف موضع سره٠

فماذا يمنع عنده أن يكون عبد الرؤوف عيارا في صورة تاجر كما كان الشيخ بهلول عيارا في صورة واعظ ؟ حقا ان آمر هؤلاء القوم لعجيب وعسى أن يطلع غدا من أمورهم على ما هو أعجب وأغرب

ومما قوى عنده صدق ظنه هذا ما اطرد عنده من ان مايظهر للناس من حال عبد الرؤوف يقل دائما عما يخفى منه ٠ فحانوته أقل من داره ، وخارج داره أقل من داخله ؛ وغرفة الضيوف أقل من قاعة الطعام ، وهكذا دواليك ، فلما اقتنع بصحة ماذهب اليه أو كاد ، انبثق له سؤال آخر : ترى ماالذى حمل التاجر والشيخ ــ وهما ماهما ــ على الاهتمام بأمره كل هذا الاهتمام حتى أفضيا بسرهما اليه دون غيره من الناس ، وحاول جاهدا أن يجد جوابا يستريح اليه فأعياه ؛ ولكنه موقن أن هذا السر لايلبث أن ينكشف له غدا ، ولعله لايبرح الدار اليوم حتى يكون قد عرفه فان الشيخ لما يقل كل ماأراده ،اذ حضر الطعام فقطع حديثه ، فلينتظر قليلا ولا يتعجل ٠

ولما فرغوا من طعامهم دار الغلام عليهم بمغسلة فضية فجعل يفرغ الماء على أيديهم من ابريقها الرشيق اللامع كأنه أوزة مصنوعة من الفضة ٠ وقد احس حمدان وهو يغسل يده ويتمضمض بالاشفاق على ذلك الاناء الثمين أن يغسل الوضر عليه أو ينفث الماء فيه ٠

وكان يتوقع أن يعودوا بعد الطعام الى الغرفة التى كانوا فيها

فاذا بصاحب البيت يقودهما فى ممر طويل ينتهى بدرج ضيق نزل بهما فيه حتى دخل بهما الى حجرة واسعة تفوق فى زينتها وأثاثها ورياشها كل مارأى فى الدار من قبل · ولهـا ثلاثة أبواب من داخلها مرخاة عليها ستائر من الحرير الاسـود ، رفعها عبد الرؤوف وفتح الابواب فاذا صحن واسع فى وسطه فسقية يتفجر الماء من نافورتها ، ومن حولها أصص مختلفـة الاحجام والاشكال تحمل أشجار الورد والريحان والفـل والياسمين وغيرها من الزهور ·

وما أفاق حمدان بعد من دهشته حين أقبلت جارية كهلة لاتخلو من آثار الملاحة ففرشت أمامهم بساطا من الجلد الاصفر الناعم عليه نقوش بديعة وتصاوير · ثم خرجت وما لبثت أن عادت تحمل أكوابا وأباريق فصفتها على البسـاط ، ووقفت قليلا كأنها تنتظر أمر سيدها · فأومأ لها سيدهـا فانصرفت وأغلقت الباب من خلفها · ولم يدر حمدان ماذا يضطرب فى قلبه من الخواطر اذ ذاك ، ولكنه ازداد يقينا بصدق ماظن فى حال عبد الرؤوف ·

قال عبد الرؤوف حين خرجت الجارية : « الان نستطيع أن نتحدث فيما نشاء كما نشاء دون رقيب الا هذا الشراب » ·

فقال الشيخ : « قد يكون الشراب رقيبا عليك حين تأذن له أن يلعب برأسك » ·

فقال عبد الرؤوف وقد ملأ ثلاثة أقداح وضعها أمامهـم : « أما انه ليعلم انا لانأذن له بذلك أبدا » ·

ورفع الشيخ قدحه فجعل يتحساه تحسيا ، وكذلك فعـل عبد الرؤوف · واعتذر حمدان بأنه لايشرب الخمـر أبدا ، ولكن الشيخ نظر اليه مبتسما وقال له : « ويحك ياحمـدان انه شراب منعش يزيل عنك الهم ، ولا يبلغ بك حد السـكر ، فاستمتع به ولا تخف » ·

فرأى حمدان أن ينتهز هذه الفرصة فيذكره بأمره ليصـل ما انقطع من حديثه ، فقال : « ان همى لايزول ياسيدى عنى حتى أسترد عالية أختى » ·

فقال الشيخ : « سنتحدث الساعة فى أمرها فاشرب » ·

ونظر فرأى وجه عبد الرؤوف تجلله غاشية من الكآبة فقال فى نفسه : « لابد انه ذكر ابنته الضائعة » وهم أن يقـول

للشيخ : « فما بال عبد الرؤوف لم يزل الشراب همه ؟ ! »
ولكن عبد الرؤوف مالبثأن سرى عنه وعادالى حاله من البشاشة والارتياح ..

فرفع حمدان القدح الى فمه فلما ذاق مرارته عبه عبا حتى أفرغه كما يشرب المريض الدواء على كره منه ، فلما انتهى منه نظر فاذا صاحباه ينظران اليه ويتضاحكان .

وعرض عليه عبد الرؤوف أن يملأ له قدحا آخر ، فشكره حمدان واستعفاه .

فقال الشيخ : « دعه يا عبد الرؤوف فحسبه اليوم قدح واحد » . ثم التفت الى حمدان قائلا : « أرجو ألا يتغير حسن رأيك فينا بعد ما عرفت حقيقة أمرنا يا حمدان »

فقال له حمدان متأثرا « انكما واسيتماني وأطعمتماني ووعدتماني بمساعدتي في أمر أختي . فكيف يتغير فيكما حسن رأيي ؟ هذا لا يكون أبدا » .

ـ فما تقول في العيارين ؟

ـ قوم يقسون على الاغنياء ويرحمون الفقراء .

ـ أتقول هذا مجاملة لنا ؟

ـ لا والله لقد كنت حسن الرأي فيهم ، ولا أرى الا ان الله سلطهم على الاغنياء عقابا لهم على منعهم الزكاة والاحسان وهضمهم حقوق أمثالي من العاملين في أرضهم . فاستنار وجه الشيخ وطرب عبد الرؤوف فقال : « زه ! لكأنك يا حمدان ولدت عيارا ! »

فقال الشيخ : « كلا يا عبد الرؤوف . انه ما صار عيارا بعد . العيار مظلوم يشعر بظلمه فينتصف لنفسه من ظالمه بيده . وهذا مظلوم ولكنه لا ينتصف ، فهو نصف عيار » .

فقال عبد الرؤوف : « فليس بينه وبين أن يصبح عيارا الا خطوة واحدة ! »

فسكت الشيخ قليلا ثم قال لحمدان : « فما يمنعك ياحمدان أن تكون عيارا ، فاني لأراك تصلح أن تكون معنا ؟ »

قال عبد الرؤوف مؤيدا كلام الشيخ « أي والله انك لذو أنف حمي وقلب ذكي وساعد قوي ! »

فتردد حمدان قليلا ثم قال : « لكنني لاتطوع لي نفسي أن أسطو على أموال غيري » .

فقال الشيخ : « ويحك يا حمدان انا نسطو على أموال غيرنا؛ ولكنا لا نسطو أبدا على حقوقهم » ٠

فقال حمدان : « أليست أموالهم حقوقا لهم ؟ » ٠

فالتفت الشيخ إلى عبد الرؤوف قائلا : « أرأيت يا عبد الرؤوف أنه ما صار عيارا بعد ؟ » ٠

ثم قال لحمدان : « أهيصمي أنت أم حطمي ؟ » ٠

— بل حطمي ٠

— أرأيت قصور ابن الحطيم وما تحوى من أموال ومتاع ؟ ٠

— ما رأيت الا قصره الذى هنا بالقرية ٠

— فحسبى هذا فاعلم أن ما فيه ليس كله حقا له ، فان فيه حقوق الفقراء والمساكين فى الزكاة والصدقة ، وان فيه حقك يا حمدان وحقوق أمثالك من الأكارين الذين يستثمرون له أرضه ، وهو قاعد يلهو ويلعب ، فيستأثر دونكم بثمراتها ولا يترك لكم منها جزاء عملكم وكدكم الا نزرا يسيرا لا يكفيكم ، فذلك ماله وملكه فيما يقول الناس ٠ ولكن ليس حقه فيما يقول الله ٠

— وليس حق العيارين كذلك ، فكيف يحل لهم أن يأخذوه ؟

— ما تقول فى القوم المحتسبين ؟ ٠

— رجال تطوعوا لله ألا يروا معروفا الا أمروا به ، ولا منكرا الا نهوا عنه ، لا تأخذهم فى ذلك لومة لائم ٠

— فكذلك العيارون ، بيد أن العيار يعتمد فى ذلك على الفعل اذا اعتمد المحتسب على القول ٠

— ولكن المحتسبين لا يأخذون شيئا لانفسهم ٠

— فذلك شأنهم ، لا ضير عليهم أن يحتسبوا عند الله ثواب ما يعملون ٠ ولكن ما تقول فى العاملين على الصدقات ؟ ٠ ألم يجعل الله لهم فيها حقا فهم يأخذونه ؟ ٠

— بلى ٠

— فنحن معشر العيارين كهؤلاء فى هذا السبيل ، نأخذ حقنا فيما نغنمه من أموال الاغنياء بقوتنا واقتدارنا ، ثم ننفق ما يفضل عن حاجتنا على المستحقين من الفقراء والمساكين وذوى القربى واليتامى وابن السبيل ٠

— ولكن العيارين فيما أعلم لا يأخذون نصيبهم من ذلك المال بالمعروف ، بل يسرفون فى الانفاق على أنفسهم ولا

يقتصدون •

ــ حسابهم فى ذلك على الله ، ان شاء عاقبهم وان شاء غفر • وما هم الا بشر ولا يدعون العصمة ، ومثلهم فى ذلك كمثل من يغل فى الصدقات من العاملين عليها وهم كثيرون ، وقد جاء فى حقهم وعيد شديد فى الكتاب والسنة ، وانا بعد لنطمع فى عفو الله وتجاوزه ، من حيث أن لنا فى أخذ النصيب بالمعروف مجالا للتأويل وسعة فى التقدير •

وكان حمدان قد عجب من نفسه كيف جرؤ على مخاورة الشيخ ومناظرته ، وكيف انطلق لسانه فى هذه الشؤون العلمية الدقيقة بذلك اليسر وهو آكار جاهل حتى لكأنه يلهم ما يقول الهاما • ترى أكان ذلك من فعل ذلك القدح من الشراب المر ؟ •

ولم تبهره بلاغة الشيخ كثيرا لان الشيخ كان رفيقا فى جداله لطيفا معه ، ولأن حمدان كان مأخوذا بما وفق هو اليه فى الحوار من المنطق الصائب والقول السديد • أما عبدالرؤوف فقد كان يصغى اليهما بلذة وشغف ، وقد ملكه العجب من براعة حمدان فى القول وقوة حجته حتى ساءل نفسه مرارا : أفلو كان مكان حمدان أكان يقدر أن يقول مثله ؟ •

انقطع حمدان آخر الامر عن مجاراة الشيخ اذ لم يستطع أن يعقب على كلامه الاخير بشيء • ولكنه لم يجد فى نفسه غضاضة من هزيمته ، ولم ينقص ذلك من زهوه بما أعجبه من توفيقه فى جولاته الاولى الا قليلا ، لا بل شعر حمدان فى دخيلة نفسه بالارتياح لهزيمته ، فقد كانت بعض تلك المعانى التى أفصح عنها الشيخ تجول فى فكره من قديم ولكن على حال من الغموض والابهام • فكان موقفه وهو يجادل الشيخ موقف من يعارض فى الرأى ليستوضحه ويزداد به اقتناعا •

وسر حمدان كذلك اذ خيل له أنه قد أدرك الآن السبب الذى دفع هذين العيارين الى الافضاء بسرهما اليه : فقد أرادا أن يدخلاه فى جماعتهما لما توسما فيه من الاستعداد لذلك : أليس هو مظلوما ثائر النفس ؟ فهو الآن نصف عيار كما قال الشيخ ، فاذا انتصف لنفسه من ظالمه بيده صار عيارا ؟ •

بيد أنه سرعان ما اغتم حين ذكر أنهما لم يعطفا عليه لوجه الله ، بل لمنفعة يبتغيانها من ورائه باجتذابه للانضمام الى

العصابة . وتذكر أخته عالية وكيف نسيا ما يشغله من أمرها وما اهتما الا بما يعنيهما من أمره . وانه ليهم بأن يذكرهما بذلك اذ قال عبد الرؤوف وقد رأى انقطاع حمدان عن التعقيب على كلام الشيخ : « لعلك اقتنعت الآن يا حمدان بأن العيارين قوم صالحون لا ينبغي لمثلك أن يتحرج من الانتساب اليهم » .

فرأى حمدان الفرصة قد سنحت ليدلي بما أراد فقال « انى ان اقتنعت بحجة الشيخ فيما قال فقد بقى فى نفسى شيء من الانتساب الى قوم يتخطفون نساء الناس » .

فتمعر وجه الشيخ قليلا وقال : « من قال لك هذا ؟ حاشا للعيارين أن يأتوا مثل هذا العمل الدنيء » .

فقال عبد الرؤوف : « ان حمدان يا سيدى يعنى خطف أخته » .

فقال الشيخ : « لا حق له أن يرمى العيارين بما يخالف ما درجوا عليه قبل أن يتثبت من الامر » .

قال حمدان عند ذلك : « لا يغضبنك قولى يا سيدى الشيخ فما زلت أعتقد أن العيارين لا يتعرضون لنساء الناس حتى كان ما كان من ثمامة . وما كان ثمامة ليجرؤ أو يقدر على ما فعل لولا انتسابه الى جماعتكم » .

فقال الشيخ : « لو تريثت قليلا حتى أحدثك بأمر ثمامة ، لعلمت أننا برآء مما فعل ، وأنه فعل ذلك من أجل غيرنا لا من أجلنا ، وأن الفرسان الذين كانوا معه ليسوا من جماعتنا » .

فقال حمدان متلهفا : « فمن كانوا ؟ » .

فأجابه الشيخ بهدوء : « كانوا نفرا من غلمان سيدك ابن الحطيم ! » .

فذهل حمدان من هذا النبأ الذى لم يتوقعه قط . وأراد أن يقول شيئا فوقف الكلم فى حلقه الذى أصابه جفاف شديد ، وأحس كأن الحجرة تدور به . وفى هذه الغمرة تمثل لعينيه فى مثل ومضات البرق وجه ذلك الشاب المطل من شرفة قصر ابن الحطيم بشعره المرجل المدهون ، وأشفق عبد الرؤوف على حمدان مما غشيه من الكرب حتى جعل العرق يتفصد من جبينه فى مثل حبات البرد ، فقدم له شيئا من الشراب شجه بقدره من الماء ، فشربه حمدان دون أن يقول شيئا . وما هى الا هنيهة حتى بدا حمدان كأنما أفاق من غشية ألمت به ، وأخذ

يمسح العرق عن وجهه بأطراف ثيابه ثم نظر الى الشيخ فقال : « كيف عرفت هذا ؟ » .

فقال الشيخ : « اننا نعرف كل شيء . لنا عيون فى كل مكان تنقل الينا الاخبار » .

ــ أليس ثمامة من جماعتكم ؟ فكيف اتصل بغلمان ابن الحطيم ؟ .

ــ لم يبلغ ثمامة أن يكون من الجماعة ، وانما كان من غلماننا الذين نستعين بهم فى صغار الامور . وقد اختفى عنا منذ ارتكب حادث أختك ، ونحن فى طلبه حتى نبطش به جزاء خيانته لنا وافشائه سرنا .

ــ ويله . . أوقد أفشى سركم ؟ .

ــ لا ترع ! فما كان يعرف الا نفرا من غلماننا الذين هم فى مثل درجته ، وقد قبض على اثنين منهم بسعيه ووشايته .

ــ أفليس عليكما منه خوف ؟ .

ــ لا ياحمدان فليس يعرفنى ولا يعرف عبد الرؤوف ولا أحدا من الجماعة غير الغلمان .

ــ أليس يعرف الشيخ سلام الشواف ؟ .

ــ ويحك يا حمدان ، ذاك رئيسنا لا يعرفه الا سبعة منا ليس عبد الرؤوف أحدهم . فدهش حمدان وقال : « حتى عبد الرؤوف لا يعرفه ! »

فابتسم الشيخ وقال : « حتى عبد الرؤوف ، انما يتصل به من طريقى ، وستكون أنت معى مثل عبد الرؤوف ، ليس بينك وبين الرئيس الا شخص واحد هو أنا . فانظر يا حمدان كيف نلت من ثقتنا من أول ما عرفناك ما لم ينله سواك » .

وحينئذ قال له عبد الرؤوف : « فهل بقى فى نفسك شيء بعد يا حمدان ؟ » فقال حمدان : « لا والله ما بقى فى نفسى شيء ، ولكنى لا أجدنى أستطيع أن أنفعكم فى شيء حتى أجد أختى عالية أو أعرف مصيرها » .

قال الشيخ : « فقد عرفت مصيرها الآن . انها فى قصر ابن الحطيم بالكوفة ، وان ثمامة الذى اختطفها له لمعتصم هناك فى القصر » .

فجن جنون حمدان وصاح وهو يتميز من الغيظ : « والله لأسرين الليلة الى الكوفة فلأقتحمن القصر وأستنقذن أختى ! »

ـ خفض عليك يا حمدان ، فليس ذلك بالأمر الهين • ان للقصر لحراسا أشداء •
ـ فلأشكونه الى السلطان !
ـ افعل ان شئت ولن تجديك الشكوى شيئا ، ان للمال لسلطانا على السلطان •
ـ فماذا أصنع ؟ قولوا لى ماذا أصنع ؟ •
ـ كن عيارا • حارب معنا طغيان المال • كن معنا حربا على الاغنياء ، تنقص أموالهم فتنقص من قوتهم وطغيانهم • انتقم منهم لنفسك ولآلاف المظلومين أمثالك • أسلب منهم ما استطعت كما يسلبون الفلاح ثمرة كده ، والاجير جل أجره على جهده والفقير معلوم حقه •
فصاح حمدان حينئذ: « ويل للمال ويل للاغنياء ؟خذونى معكم أنا منكم ! أنا منكم ! » •
فبسط الشيخ اليه يده فصافحه ثم ضرب بها على صدره ، وقال : « أبشر ياحمدان فلن تجوع بعد اليوم ولن يهضم حقك وهذا أخوك عبد الرؤوف سيلقنك دستورنا ثم يبلغك ما يجب عليك عمله » •
ـ والمزرعة اعلى أن أتركها ؟
ـ لابل تبقى فيها كما انت •• ستكون عيارا فى صورة فلاح
فسكت حمدان قليلا ثم قال وفى صوته رنة الحزن : واختى عالية ياسيدى الشيخ ؟ »
فقال الشيخ : « سنبذل جهدنا فى استنقاذها ان كان الى ذلك سبيل » •
ـ ان كان الى ذلك سبيل !
ـ أجل ياحمدان • لسنا جيشا يقاتل للفتح والغلبة فى وضح النهار ، وانما نحن جماعة تعمل فى الخفاء وتغير على أهدافها فى الظلام •
ـ فما يمنعنا أن نكون جيشا ؟
ـ ويلك ياحمدان أتريد منا أن نحارب السلطان ؟
ـ لم لا ؟ ألسنا نحارب طغيان المال ؟ فمن ذا يحميه من بأسنا الا السلطان ؟
فنظر الشيخ مليا اليه ثم التفت الى عبد الرؤوف قائلا : « أرأيت ياعبد الرؤوف أن أخاك ليس عيارا وانما هو ثائر »

فقال عبد الرؤوف : « اعذره ياسيدى فانما به هم أخته ،
فهو يحلم بغزو الكوفة لتخليص أخته من قصر إبن الحطيم ،
وقد كنت فى مثل حاله يوم اختطف هذا اللعين ابنتى وعلمت
انها فى قصره ولم أجد اليها سبيلا . وغــــدا تهدأ ثورته
ويستمر مريره ويكون عيارا صالحا » .

— ٨ —

خرج حمدان من عند عبد الرؤوف ، واتخذ سبيله راجعا
الى م رعته ، وقلبه مفعم بالخواطر والشجون تذهب به كل
مذهب ، وشعر بالشوق الشديد الى لقاء أهله بالكوخ ، كأنما
غاب عنهم دهرا طويلا ، لكثرة ما مر به من الحوادث فى يومه
هذا وما رأى وما سمع من الغرائب والعجائب ، حتى لم يكد
يصدق أنه ما فارقهم الا فى صباح ذلك اليوم .

وكانت الشمس قد مالت للغروب ، فنفضت على رمــال
الطريق ، وعلى السهول والتلال عن يمينه وشــماله ، وعلى
المزارع وما فيها من أكواخ وجواسق ، وعلى غصون الاشجار
وفروع النبات ذلك اللون الذهبى الرائع ، فخيل الى حمدان
أنه يسير فى عالم جديد غير ذلك العالم الذى سار فيه حين
خرج من كوخه يؤم القرية فى حاشية الصباح .

وما كان هذا المنظر بجديد على حمدان ، فطالما رآه فى ساعة
الأصيل وهو يسير على هذا الطريق عينه من القرية الى المزرعة ،
دون أن يثير فى نفسه هذا الاحساس الغريب على هذا الوجه
من القوة والوضوح ، ولكنه كان يشعر حينئذ بأنه قد استحال
شخصا جديدا منذ اتصل بالشيخ والتاجر وعرف منهما من
أسرار الحياة وأحوال الناس ما عرف ، فلعل شعوره بهــذا
التبدل العجيب فى نفسه هو الذى فتح عينيه ساعتئذ على
ما فى منظر الكون فى وقت الاصيل من الغرابة والروعة

وكان عبدان قد وجد فى نفسه شيئا من القوة والنشاط ،
فنهض عن فراشه وخرج يتفقد عمل الاجيرين فى المزرعة ،
فلما رأى حمدان قادما أقبل يسعى اليه . فعنفه حمدان عــلى
خروجه وهو بعد واهن القوة . فقال له عبدان : « كلا ياحمدان
اننى الآن بخير ، وما عدت أشكو شيئا » فسر حمدان لما رأى
من برئه وخفته ، وانطلق معه صوب الكوخ ، واستقبله أهله
فرحين مستبشرين بمقدمه كأنما كان ضائعا فوجدوه .

وما كاد يخلع جبته حتى أقبلت عليه أمه وزوجته وأختــه يسألنه هل وجد أثرا لعالية أو سمع عنها نبأ جديدا • فجعل يقص عليهن وعلى عبدان ما وقع له فى ذلك اليوم حتى اذا وصل الى خبر التاجر والشيخ أمسك عنه ، واكتفى بأن حدثهم أنه اتصل بجماعة من العيارين ، وعرف منهم أن عالية فى قصر ابن الحطيم بالكوفة قد اختطفها ثمامة له ، وأن الذين كانوا مع ثمامة ليسوا من العيارين بل من غلمـــان ابن الحطيم ، وأن العيارين وعدوه بمساعدته فى استنقاذ أخته •

وقد تألموا جميعا لمصير عالية ، وطفقوا يلعنون ابن الحطيم ، ويدعون عليه وعلى ثمامة الا أنهم وجدوا شيئا من الطمأنينة لما تجدد عندهم من الأمل فى استرداد عالية ، فباتوا تلك الليلة يحلمون برجوعها •

الا راجية فانها أرقت وباتت تتقلب على فراشها والهواجس تلعب بها ، فقد آلمها ما ظهر من ثمامة من الخسة والنذالة ، اذ اشتغل قوادا لابن الحطيم حتى تبرأ منه العيارون ونذروا دمه • ولكنها تشعر بنسمة من الارتياح تتسلل الى قلبها لأن ثمامة ما اختار عالية دونها لحب أو اعزاز • ثم انتقل خاطرها الى عبدان فجعلت تتحسر اذ خاب أملها فى اجتذابه اليها ، فمـا زاده غياب عالية الا تعلقا بها ونفورا من راجية على فرط تحببها اليه ، وعنايتها به فى أيام مرضه • فلتعد عالية على الرحب والسعة فما فى غيابها أى نفع لها ، وانها بعد لفى شوق الى رؤية أختها الجميلة •

وطار بها الخيال الى قصر ابن الحطيم ، وأخذ يصور لها ما فيه من نعيم ومتاع فقالت لنفسها : « ان عبدان مستهام بعالية يذوب شوقا اليها وينفر منى ولا يطيق وجهى • فلولا كنت مكانها فى قصر ابن الحطيم فيجتمع شملها بشمل حبيبها وليكن مصيرى هناك ما يكون ، فداء لأختى وقل لها الفداء ! » •

وما كاد عبدان يشعر بالابلال من علته حتى عاد الى القرية ليقيم فى داره ويفتح حانوته ، الا أنه كان يلتقى بحمدان دائما ولا ينقطع عنه يوما واحدا • وظل حمدان أياما يكتم عنه قصة انضمامه الى العيارين ، ثم لم يجد بدا من اخباره بذلك دون أن يفضى اليه بسر الشيخ بهلول ولا بسر صديقه التاجر عبــد الرؤوف • وان عبدان ليرى اتصال حمدان بجاره عبدالرؤوف

واجتماعهما بحضوره تارة وفى غيابه أخرى ، فلا يعدو ذلك عنده أنها صداقة قد تولدت بينهما من سابق الصلة التى بين عبدان وعبد الرؤوف ثم قواها ما يبديه عبد الرؤوف من التألم لخطب عالية والاهتمام بأمرها ٠

أما أهل بيته فظلوا يجهلون حقيقة أمره ، وان أنكروا شيئا من التبدل فى طباعه وعاداته ، ولحظوا كثرة خروجه ليـــلا وتأخر مجيئه الى ما بعد منتصف الليل ، وأحيانا الى قرب طلوع الفجر ، وأنكروا كذلك وجود الاسلحة الماضية عنده ، وتقلده بعضها عند الخروج ، وان كان يوهمهم أنه انما يفعل ذلك كله سعيا لاستنقاذ عالية ٠ ولحظوا امتلاء يده بالمـــال وسخاءه فى الانفاق عليهم ، حتى رفغ عيشهم وحسن ما يأكلون وما يلبسون ، وكثر اعتماده على الأجراء والأجيرات فى عمل المزرعة دون أن يشترك معهم أو يشرك أخته وزوجه فى العمل الا قليلا ، فاذا قيل له فى ذلك من غير أهله قال لهم انه أصبح شريكا لعبدان فى تجارته فذلك نصيبه فى ربحها ، أما أهله فكان يقول لهم : « هذا رزق ساقه الله الينا من فضله ، فكلوا واشربوا ولا تسألوا عما لا يعنيكم » فكانوا يتعجبون من أمره ويسكتون ٠

وكان يحسن الى اجرائه ويعطف عليهم ويعطيهم أجورا أفضل مما يجدونه عند غيره ، فكانوا يحبون العمل عنده ويجتهدون فيه ، فكان اذا رأى منهم ذلك تنهد وقال فى نفسه : « ويحكم ٠ ما يجنى من اجتهادكم هذا الا اللعين ابن اللعين » ٠

وما انقضت ثلاثة أشهر منذ اشتغال حمدان بالعيارة حتى صار يعرف سننها وأسرارها وحيلها وخططها ، وبرع فى ركوب الخيل كرا وفرا ، وأتقن الرماية وسائر فنون القتـــال ٠ وسرعان ما تقدم عند جماعته وعرف بينهم بالبطولة والاقدام ، فكانوا يعتمدون عليه فى المهمات ٠ وكأنما وجد فى هـــذه الحياة الجديدة الحافلة بالمغامرات العظيمة والمفاجـآت العجيبة تعزية له عن مصاب أخته ، فمضى فيها مضى الهارب من شر يطارده الى أى ملاذ يصل اليه ، لا يخاف فى طريقه شـــيئا لعلمه أنه لن يكون أهول مما خلفه ، فكان ذلك سر نجاحه الباهر فى هذا اللون الشاق من ألوان الحياة ، وبه استطاع أن ينسى همه الى حين ٠

أما عبدان فلم يجد مهربا من همه غير عمله الممل فى حانوته الصغير ، لا يحصى ما يخرج منه وما يدخل اليه ، ولا يدرى كم يربح وكم يخسر ، ولا يبالى أكثر الشارون منه أم قلوا ، ويقضى جل وقته بالجلوس الى جاره عبد الرءوف يستريح بالشكوى اليه ، حتى اذا لقى حمدان فى حانوته أو حانوت جاره أو فى المزرعة سأله ما فعل فى شأن عالية ، وماذا تم من سعيه فى استنقاذها . فيعلله حمدان بأن ذلك سيتم وشيكا ، ثم يشرح له ما يقوم دون ذلك من العقبات ويوصيه بالاصطبار قليلا حتى ينجح التدبير الذى يريد القيام به مع جماعته لمباغتة حراس القصر واقتحامه ، أو مغافلتهم والتسلل اليه ثم الفرار بعالية . فكان عبدان يطوى صدره على ألمه ولا يقول شيئا .

حتى عيل صبره من طول الانتظار وضاق صدره بمطاولة حمدان فقال له يوما وقد اختليا فى دار عبدان وليس معهما أحد : « بل نسيت أختك يا حمدان وشغلك عنها هؤلاء العيارون وما تغنم من كسبهم الحرام » .

فهم حمدان أن يثور على ابن عمه لهذه الكلمة الجارحة ، ولكنه آنس من شدة التياعه ونفاد صبره ما جعله يشفق عليه فقال متلطفا : « لا والله يا ابن عمى ما نسيتها ، وماخالطت هؤلاء القوم الا من أجلها لعلى أستنقذها بعونهم وبريحهم » .

ـ فأين هذا العون وهذى الريح ؟ .

ـ أحسبنى قد حدثتك بكثير مما فعلنا . لقد حملنا حملات موفقة على ذلك اللعين ابن الحطيم فنهبنا دوره ونقبنا مخازن غلاله وسطونا على قوافله ورزأناه أموالا جسيمة ولن ندعه حتى نلصق أنفه بالرغام .

ـ فهل أفردتم ابن الحطيم بذلك ؟ انكم لتسطون على غيره كما تسطون عليه .

ـ نعم فكل أولئك من طغاة المال ، وقد آلينا أن نحارب طغيان المال حيث كان .

ـ فما صنعت شيئا ما تركت أختك قاعدة فى قصر ابن الحطيم يفعل بها ما يشاء من المنكر وأنت لاه عنها بالسطو على أمواله مع عصابتك . ووالله ما ترزأون من ماله بما تفعلون الا مقدار ما يرزأ الطائر من النهر العظيم يغمس منقاره فيه .

ان هؤلاء العيارين انما غرضهم المال ، فلتجعل أختك ليلة واحدة غرضك ! •

ــ ان اقتحام القصر ليس هينا كما تظن •

ــ ان عجزتم عن ذلك فدعنا نشكه الى السلطان •

ــ لن يجدينا ذلك شيئا ، فوالى الكوفة وعامل القرية ومن دونهما من أولى الأمر كلهم صنائع لابن الحطيم •

ــ فلنفضحه ولنعلن سوء عمله فى كل مكان •

ــ ان نحن فعلنا هذا فسيأخذ ابن الحطيم حذره وينقلها من قصر الكوفة الى مكان مجهول فلا يبقى لنا اليها سبيل ، ولكن أمهلنا بضعة أيام أخر فسترى ما يسرك •

كان حمدان قد تأثر من كلام ابن عمه وشعر بأنه قد فرط حقا فى جنب أخته ، فكلم جماعة العيارين كلاما شديدا فى هذا المعنى ، وهددهم بالانفصال عنهم اذا لم يعجلوا باستنقاذ أخته ، فرفعوا أمره الى رئيسهم فتولى تدبيره بنفسه ، فبث عيونه لرصد حركات ابن الحطيم حتى علم انه سيخرج بحريمه الى جوسق له بقرب النجف ، فندب فرقة من أشد رجاله وأمهرهم فيهم حمدان ، فاقتحموا الجوسق ولم يكن معه الا قليل من الحرس فكتفوا أيديهم وقتلوا واحدا منهم هم بالمقاومة والبطش ثم اندفعوا فى البيت فوجدوا ابن الحطيم سكران بين قيانه لا يكاد يعى ما يدور حوله وهن يسقينه ويرقصن بالدفوف والصنوج بين يديه •

وما وقع بصر حمدان على وجهه الابيض وشعره اللامع المرجل حتى عرفه ، فرفع سيفه وهم بقتله فاعترضه جماعته ومنعوه من ذلك وذكروه بأوامر الرئيس القاطعة بألا يقتلوا الا من قاوم ولا يتعرضوا للنساء ، فأطاع حمدان على مضض •

وتصايح النسوة حين رأينهم واستولى عليهن الذعر فتكأكأن على سيدهن يلذن منه بركن ضعيف • فصاح فيهم قائد الفرقة بأن يسكتن وألا خوف عليهن ما بقين فى مكانهن ولزمن السكوت ، فخضعن للأمر طائعات وجلات • وقام أحدهم بالسيف على رأس السيد المخمور وقد أيقظه الذعر من خماره فجعل ينظر اليه فاغرا فاه وفرائصه ترعد •

وتفقد حمدان أخته فما وجدها بينهن ، فانطلق ببعضهم الى الغرف الاخرى يتفقدونها ، ووجدوا احداها مغلقة فاقتحموا

بابها فاذامخدع وثير الفراش يتضوع الطيب فيه ، واذا امرأتان احداهما جالسة وعليها حلة لازوردية والاخرى قائمة على رأسها تمشطها وتزينها ، فهبتا مذعورتين ووقف حمدان لحظة كالمذهول ثم تقدم الى أخته فتراجعت خائفة فحسر لثامه فاندفعت اليه وهمت أن تصيح باسمه لولا أنه أشار لها بالصمت • ونظر حوله فوجد عباءة من الخز فألقاها عليها وانطلق بها • وما هي الا لحظات حتى فرغ القوم من نهب ما في الجوسق من النفائس وسلب ما على القيان من الحلى فقفزوا على جيادهم فانطلقوا بها كالريح في جنح الظلام •

وخشى ابن الحطيم من افتضاح أمره فلم ينه الى السلطان الا أن جماعة من العيارين قد اقتحموا جوسقه فنهبوا ما فيه • وقد غلب على ظنه أن حمدان هو الذى أوعز الى العيارين باسترداد أخته عالية ولكنه لم يشأ أن يتعرض له لئلا تتكشف فضيحته •

— ١٠ —

رجعت عالية الى أهلها ففرحوا بها أشد الفرح كأنما ماتت فبعثت من قبرها حية ولكنها كانت تبدى الفرح معهم وتخفى في نفسها هما لاعجا لا انفكاك لها عنه ولا حيلة لها فيه • وكذلك كان عبدان فما كاد يقضى حظه من فرحة اللقيا حتى دب اليه الهم وساورته الريبة ولعبت به الظنون والوساوس فأخفى كل ذلك جهده عمن حوله ، بيد أن هذا الهم المكنون ما لبث أن تسلل من قلبيهما فدب في قلوب الآخرين حتى خيل الى بعضهم أنهم كانوا قبل رجوعها أسعد منهم بعده •

وانتبهوا ذات صباح فلم يجدوا بينهم عالية ، فكأنها كانت حلما سنح لهم في المنام ثم انطوى عند اليقظة • وكان حمدان غائبا تلك الليلة عن داره في احدى خرجاته البعيدة مع العصابة ولم يعد الا في الليلة التالية فذهب يبحث عنها في كل مكان فلم يجد لها أثرا •

واتفقوا جميعا في التألم لاختفائها ، ولكنهم اختلفوا في تقديره وتفسير ما دفعها اليه ، بين رفيق يلتمس لها المعاذير ، وشديد عليها يرميها بأشنع التهم ، ومتردد بين بين لا يدرى ماذا يقول • وكان يجمعهم من وراء ذلك احساس غريب بأنهم قد فقدوها هذه المرة الى الابد فلن يروا لها وجها آخر الدهر •

وكان عبدان يشعر دونهم بأن بعض التبعة فى اختفائها واقع عليه ، فهو يذكر أن عالية جلست اليه ذات عشية فأخذت تتلطف معه وتسأله عن حال تجارته كأنها تقول له متى زواجنا وأنه رد عليها بأجوبة مقتضبة تنم عما فى قلبه من التردد فى قبولها زوجة له بعد انثلام شرفها فكأنه بذلك يؤاخذها بأمر لا ذنب لها فيه • وانه ليعلم أن عالية دقيقة الحس تنفذ عيناها الى ما يجول في خاطر جليسها فتستغنى به عن كلامه • فلا ريب عنده أنها لما رأت منه ذلك آثرت الفرار بنفسها خشية أن يتزوجها على غير رغبته مجاملة لاهلها وسترا لعرضها • كان هذا الشعور بالتبعة ثقيل الوطأ على عبدان وكان مما يزيد عذابه به أنه لا يستطيع أن يكاشف به أحدا •

واشتد الحزن بأمها فأسلمها الى مرض لم تقو شيخوختها الواهنة على احتماله فما لبثت أن قضت نحبها دون أن تعرف أن ابنها حمدان الاكار قد انقلب عيارا • ولم يجد حمدان بعد وفاة أمه التقية الصالحة من سبب يدعوه بعد الى كتمان مهنته الجديدة عن أهله فباح لهم بسرها فما عجبوا له ولادهشوا منه كأنما كانوا على علم به من قبل •

— ١١ —

وتنوسى أمر عالية شيئا فشيئا كأنما ماتت مع أمها فى يوم واحد فحزنوا عليهما ثم ما لبث الحزن أن بلى بعد حين • ولكن الأيام لم تستطع أن تبلى حقد حمدان وعبدان على ابن الحطيم ، فظلا يفكران كيف ينتقمان منه وكان عبدان أشدهما فى ذلك • وكانا يعلمان أن الناس في قرية الدور وما حولها يعرفون كثيرا من فضائح ابن الحطيم وقبح سيرته ، ولكنهم لا يجرؤون على الجهر بانكارها خوفا من قوة جاهه واتقاء لأذاه • فاتفقا على أن ينتدب عبدان لاعلان فضائحه على رؤوس الاشهاد وتأليب الناس عليه ويبقى حمدان ردءا له من ورائه •

وتناقل الناس أخبار ابن الحطيم وتجاهروا بحكايتها عن عبدان التاجر فصارت حديث المجالس والاسمار • وشق ذلك على ابن الحطيم فأوعز الى رجال السلطان فضربوا عبدان وعزروه وتوعدوه بالعقاب الشديد ان عاد الى التشهير بابن الحطيم • فكف عبدان عن التشهير به جهارا ولكنه استمر يحرض عليه ويندد بعمله سرا ، وبلغ ذلك ابن الحطيم فأرسل اليه من غلمانه من هدده بالفتك فما بالى عبدان بذلك الا أنه

أخذ حذره فصار يحمل السلاح دائما فى ثيابه .
وكان ابن الحطيم قد صب نقمته على حمدان أيضا لقرابته من عبدان فطرده من العمل فى مزرعته ، فانتقل حمدان بأهله الى قرية الدور فسكنها وابتاع له أثوارا فكان يحمل عليها غلات السواد الى القرية ، متخذا ذلك عمله فيما يظهر للناس ليخفى به عنهم أنه عيار ، فاذا كان الليل ارتدى زى العيارين وخرج مع عصابته كعادته . وكان كثيرا ما يعرج على دارعبدان فيتحدث معه قليلا قبل انطلاقه الى جماعته .
وانه لفى دار عبدان ذات ليلة فاذا أحد أتباع ابن الحطيم قد طرق الباب ومعه شرطيان ليقبضا على عبدان بدعوى أنه قذف ابن الحطيم على مشهد منهما فأخذا يجرانه وهو يتأبى عليهما ـ وكان حمدان قد اختبأ في الدار لما سمع الطرق ـ فلما سمع المشادة برز لهم وهو شاكي السلاح وقد ثار غضبه فجرد سيفه وأهوى به على التابع فأرداه . فلما رأى الشرطيان ذلك أرسلا عبدان ودلفا اليه فما أمهلهما أن فلق هامة أحدهما بالسيف ووثب على الآخر فطرحه على الارض ثم ذبحه .
وقف حمدان وعبدان على الجثث الثلاث ملقاة أمامهما فخشيا المغبة وحارا ماذا يصنعان . ولبثا برهة يتشاوران ويقلبان وجوه الرأى حتى استقر عزمهما آخر الأمر على أن يتركا الجثث مكانها ويبرحا الدار فأما عبدان فيختفى ويترك القرية الى بلد بعيد لا يعرفه فيه أحد وأما حمدان فيبقى عند أهله يعولهم ويرسل لعبدان سرا بعض ما يحتاج اليه من نفقة ان تيسر له ذلك .
وأسرع حمدان فانطلق بابن عمه الى بيت أحد أصحابه العيارين فأخذ من عنده ثيابا مما يتزيى به طلاب العلم فأمر عبدان فلبسها ثم انطلق به خارج القرية فانتظرا عند تل هناك فاذا بصاحبهما العيار قد وافاهما على جواد مطهم فانتبذ حمدان بعبدان ناحية فتناجيا قليلا ثم عانقه حمدان وودعه . ثم دنا من الفارس العيار فقال له : هذا ابن عمى فأردفه معك وانطلق به فى طريق واسط حتى تنزله حيث يبلغ بك السير عند الثلث الاخير من الليل فتدعه هناك وتعود .
فلم يقل العيار شيئا وانما مد يده الى عبدان يساعده على امتطاء الجواد خلفه فلما استقر عبدان في موضعه همز العيار جواده فاضطرب فى عينى حمدان لحظة ثم اختفى !

السفر الثانى

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث اوتتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون »

« قرآن كريم »

- ١ -

في ليلة من ليالى بغداد الشاتية ، وقد خلت الشوارع من المارة ، وأطفئت مصابيح البيوت ، وأوى الناس الى مضاجعهم وهم يرتجفون من تحت الاغطية واللحف الغليظة فلا ينجيهم من عذاب البرد الا أن تثقل جفونهم فيناموا – كان نور ضـــئيل ينبعث من مصباح تخفق ذبالته في غرفة صغيرة بخان كبير يقيم فيه الغرباء من طلاب العلم ببغداد على مقربة من جامع ابى جعفر المنصور ، وقد جلس اثنان من الطلاب يتدارسان الفقـــــه ويتباحثان في مسائله بهمة وحماسة ، لا يكترثان لذلك البرد القارس تضاعف من شدته الريح البليلة التي تتسرب الى غرفتهما من خصاص بابها ونوافذها ، كأنما يستدفئان بلهب ذلك المصباح الضئيل ، أو يجدان في حماستهما المتوقدة للعلم ما يرد عنهما مس الزمهرير .

وانهما لكذلك اذ اختلفا في مسألة فاشتد الجدل بينهما دون ان يقدر احدهما على اقناع اخيه بصواب رأيه وسداد حجته ، ثم اتفقا على أن يحتكما فيها الى جارهما الاهوازى لحسن رأيهما فيه واعترافهما ببراعته وسعة اطلاعه ونفاذ ذهنه في الفقـه ولا سيما في ذلك الباب الذى اختلفا فيه .

ولما عزما القيام اليه استدرك احدهما قائلا : « ولكن عبدان قد نام فكيف نزعجه من نومته ؟ » فأجابه الاخر مصممـا على عزمه : « انه يحب المناقشة فلا بأس ان ايقظناه » .

ذلك ما كان من عبدان بعد ان قضى زهاء عام يطلب العـلم ببغداد ، وقد تغير زيه وسمته وطريقته في المشى وفى الكلام فلو رآه أحد معارفه من قرية الدور لما عرفه الا أن يدله عليه صوته الذى ظل كما كان لم يتغير فيه شيء .

وكان قـد قضى عامين في واسـط حيث استقر به المقـام عقب فراره من قريته متنكرا في زى طلاب العلم ، فاشتغـل بطلب العلم محمولا عليه في أول الامر ، ولكنه لم يلبث ان لذله ذلك فلازم شيوخ العلم بها وجد واجتهد في الدرس والمطالعة يساعده في ذلك فرط ذكائه وتوقد ذهنه وصفاء قريحته . فما تم له عامان حتى ظهر نبوغه وتقدمه على الاقران في كل ما اشتغل

به من فروع العلم ولا سيما فى الفقه ·
وانه ليقرأ اليوم فى باب الزكاة او باب المزارعة والمساقاة أو باب الاجير أو باب الجعالة أو غير ذلك من الابواب التى تبحث فى معايش الناس ومعاملاتهم وترشد الى تنظيمها على وجه يكفل العدل والخير لجميع الناس على اختلاف طبقاتهم ويقطع دابر الظلم عنهم ، فيرى وجه حمدان يطل عليه من خلف السطور ، ويكاد يسمع اقواله وهو يشرح ما يلقى الفلاح من ظلم مالك الارض واستئثاره بثمرات كده ،والعامل او الصانع الاجير من ظلم صاحب العمل ، والفقير من قسوة الغنى وامتناعه عن أداء حقه اليه · وما كان حمدان الا فلاحا جاهلا ولكنه فقه معنى العدل فى مختلف صوره فذهب يلتمسه بين الناس وبين الراعى والرعية فلم يجده ، فكيف به لو قدر له ان يتفقه فى الدين ويقرأ هذه الابواب التى تفصل العدل الذى امر الله به تفصيلا ؟

وقد احس عبدان من اول ما بدأ يدرس العلم بانجذاب قوى الى هذا الفرع من فروع الفقه فكان اشد به اهتماما وامضى فيه ذهنا واحفظ لمسائله وقضاياه مما سواه حتى كاد يختص به دون غيره ، وحتى لامه بعض شيوخه على ما رأوا من قلة اهتمامه بالفروع الاخرى ، فكان يقول فى سره : « مالى ولابواب الحيض والاستحاضة والطلاق والعدة اضيع فيها وقتى واشغل بها قلبى عن فهم القسطاس الذى عليه مدار حياة الناس وبه قوام سعادتهم ؟ »

ولما ضاقت به واسط ولم يجد فيها ما يرضى طموحه ويشفى غليله رحل عنها الى بغداد كما كان يفعل الوف من امثاله فى كل عام يأتون من الافاق ويقطعون الفراسخ سعيا على اقدامهم، او يضربون اكباد الابل ليتعلموا فى مدينة العلم والعلماء أو يستزيدوا علما ·

— ٢ —

ولم يكد يخالط الطلاب المقيمين فى الخان وفى غيره ويجالس العلماء فى حلقات التدريس ويباحثهم فى المعضلات حتى عرفوا عبدان الاهوازى ــ وكان هذا هو اللقب الذى انتحله لنفسه منذ جاء الى واسط ــ واشتهر بينهم بعلو الهمة والجد فى التحصيل والفطنة الخارقة والذكاء النادر ·

وكان أول مقدمه الى بغداد قد بهرته وفرة حلقات العلم فى مساجدها العامة ، فكان يختلف اليها كلها ليحضر جهد ما استطاع منها ، فيأخذ عن هذا العالم وعن ذاك ، وكلهم من الفطاحل الذين طالما سمع من قبل باسمائهم وتواليفهم حين كان فى واسط ، ثم ادرك بعد ذلك ان المعارف والعلوم اوسع من ان يحاط بها وان السعى الى ذلك عمل ضائع وجهد غير نافع .

وتمثل له خيال حمدان واخذت اقواله ترن فى اذنيه فيقول لنفسه « لم لا اقصر جهدى على القسطاس الذى عليه مدار حياة الناس وبه قوام سعادتهم » فصار بعد ذلك يتنقل فى الحلقات ولا يشهد الا الدروس التى تتصل بما يريد عند هذا الشيخ أو ذاك ، وكان الشيخ من هؤلاء يعجب بحسن تلقى عبدان وغوصه على الدقائق وبراعته فى المناقشة ،فكان كثيرا ما يشفق على غيره من الطلاب أن يستأثر عبدان بانتباهه دونهم ، ثم أخذوا يضيقون بمناقشاته حين بدأ يميل عن النقاش النظرى فى المسائل الى السؤال عن مدى تطبيقها فى احوال الناس ومعاملاتهم فكان يقول لهم مثلا : « الا ترون ان الاغنياء لو ادوا حق الزكاة فى اموالهم لما بقى فى ارجاء الدولة من يجوع او يعرى ؟ »

فيقولون له: «بلى » فيقول لهم «ففيم يعرى الفقراء ويجوعون؟ لم ترك هذا الركن معطلا ؟ » فيقولون له : «ماذا نصنع ؟ قد فسد الزمان . ان علينا تبيان الاحكام وعلى غيرنا تنفيذها فان الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » فيقول لهم « فلم لا يقوم أولو الامر بتنفيذه وعقاب من يخالفه ؟ » فيقولون له « هذا سؤال يوجه اليهم لا الينا ، نسأل الله ان يخمد نيران الفتن فى أطراف الدولة حتى يتفرغ رجالها للنظر فى اصلاح احوال الناس » فاذا قال لهم : « اليس عليكم ان تنكروا هذا الفساد وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر ؟ » قالوا له : « حسبك يا عبدان دعنا نمض فيما نحن فيه من درسنا هذا » .

وذات يوم استبقاه احد الشيوخ ليكلمه وحده بعد انصراف الناس من درسه ، وكان قد بعل بمناقشات عبدان تلك ، فلما اختلى به قال له : ويلك يابنى اتريدنا ان نفعل ما تقول فيحبسنا السلطان وان لنا لاولادا فمن ذا يعولهم اذا حبسنا الخليفة ؟ .

فقال عبدان : « لكن علام يحبسكم » ؟

ـ كما حبس صاحبنا ابا البقاء البغدادى • الم تسمع بأمره؟
وكان عبدان قد سمع شيئا عن هذا العالم واشتاق الىمعرفة خبره ولكنه وجد الناس يجتنبون الكلام عنه خيفة السلطان ، فأحب ن يسمع قصته من الشيخ فقال له : « لا والله ما اعرف قصته » •

ـ متى قدمت الى بغداد ؟

ـ منذ عام •

ـ اذن فما شهدت ايامه • انه حبس قبل مجيئك •

ـ فيم حبسوه ؟

ـ كان يجمع الفقراء ويسير بهم للمطالبة بحقهم من الاغنياء ويجمع العمال والصناع والاكارين ويحرضهم على المطالبة برفع اجورهم وزيادة نصيبهم من ريع الارض او ريع العمل •

ـ وماذا يغضب السلطان من مثل هذا ؟

ـ ان الموفق اخا الخليفة رجل قوى ،وقد وجد الدولةمضطربة فوضى فأراد ان يرجع اليها قوتها واستقرارها فعنى بكسرشوكة الاجناد الترك وبالقضاء على فتنة يعقوب الصفار فى سجستان وفتنة صاحب الزنج فى البصرة ، فاغضبه ان يثير ابو البقاء شغبا فى العاصمة يشغل الدولة عن التفرغ لمهامها ولذلكحبسه الموفق وفرق جموعه •

فسكت عبدان قليلا ثم قال : « قد كان على الموفق ان ينصف هؤلاء من ظالميهم ،اذن لبطل الشغب ولكانوا قوة معه » • فحرك الشيخ رأسه متعجبا من ذكاء عبدان وقال له : « كانوايطالبون السلطان ايضا بتخفيف الضرائب والرسوم واسقاط بعضها جملة • ولا يستطيع الموفق ان يوافق على هذا وهو محتاج الى الاموال للقضاء بها على الفتن • ثم لا تنس ان الاغنياء ذوو نفوذ ولا بد له من مصانعتهم » • فتمثل له وجه حمدان حينئذ وتذكر ما كان يقوله دائما عن سلطان المال ووجوب محاربته اذا أريد اصلاح الاحوال وذلك لعظم سيطرته حتى على السلطان نفسه • والله لقد صدق حمدان فيما كان يقول •

وقد كف عبدان منذ ذلك اليوم عن مناقشاته المحرجة للشيوخ ، ثم انقطع عن حضور حلقاتهم الا قليلا ، فقد رأىقلة غنائها ، واشتاقت نفسه الى غزو ميادين اخرى للنشاط العلمى ببغداد • وكان يسمع ان للعلماء والادباء وعشاق الحكمة مجالس

خاصة يتسامرون فيها ، ويتقابسون نفـــائس العلم وطرائف الحكمة ، وقد يتذاكرون اخبار الخاصة والعامة ، ويخوضون فى شئون الدولة وسياسة الخليفة واعمال الوزراء والقواد . وفى الفتن القائمة وما يبلغهم عنها من جديد الاخبار ، فسعى عبدان طويلا يلتمس السبيل اليها فعزت عليه حتى اتصل به رجل من الاهواز تدل ملامح وجهه على انه فارسي الاصل وتنم هيئتـــه وثيابه عن السراوة وحسن الحال . وكان عبـــدان يراه احيانا يشهد بعض حلقات الدرس ، ويجلس فى اخـــريات الناس . ويصغي الى الدرس ، وبيده سبحة يحرك حباتها وهو مطرق قلما يرفع عنها رأسه . وربما التفت اليه عبدان ، فرآه ينظر اليه فاذا التقى بصراهما ظهر فى عينيه كأنه يريد ان يقول له شيئا، ثم لا يلبث ان يخفض بصره .

وانه لجالس في غرفته بالخان ذات يوم اذ حضر الرجل اليه فسلم عليه باسمه ، وعرفه بنفسه قائلا : « انا جعفر بن احمد الكرمانى ، جئت ازورك لانك اهوازى مثلي » .

فرحب به عبدان وأوسع له . ولما استقر بهما المجلس سأله الرجل : « من اى حي فى الاهواز أنت ؟ » فتردد عبدان قليلا ، فاستدرك الرجل قائلا : « استغفر الله .. اردت ان اسألك : متى عهدك بالاهواز ؟ » فأجابه عبدان متلعثما : « انى مارأيت الاهواز قط ، وانما هذا لقب اسرتنا » ، فأظهر الرجل الاقتناع بجواب عبدان . وقال له : « لا ضير فأحد ابائك اذن كان من الاهواز . لقد سمعت بعض مناقشاتك فى حلقـــات الدرس فأعجبت بذكائك ، ثم علمت انك اهوازى فتملكني الزهو بك ، فرغبت منذ ذلك اليوم ان تكون بيننا صلة ومعرفة » . فخجل عبدان من ثناء الرجل عليه وشكره على حسن ظنه به . قال الرجل « انك لاهل للثناء ، واني لارجو ان يكون لك فى العلم النـــافع شأن . بيد اني افتقدتك في حلقات الدرس منذ حين ، فمـــا الذى قطعك ؟ »

فشرح له عبدان خبره ورغبته في حضور المجالس الخاصة وامتناعها عليه ، فاذا الرجل يقول له : « انى سأوصلك اليهـــا فلن يمتنع عليك منها مجلس » . ودعاه الرجل لزيارته فى بيته فلم يتردد عبدان فى قبول دعوته .

وما خطر لعبدان حين وعد الرجل بالزيارة ، ولا حين وافاه

الرجل عشية ذلك اليوم عقب صلاة المغرب ليستصحبه الى بيته، انه سيجد هناك مجلسا من تلك المجالس الخاصة التي يشتاق اليها قلبه فسر لذلك كثيرا وعده من بسمات الحظ السعيد ٠

- ٣ -

توثقت في خلال ذلك صلة عبدان بالكرماني وزاد تعلقه به فصار يكثر التردد عليه في منزله ويتغدى او يتعشى على مائدته، وانه لعند الكرماني ذات صباح وكان يوما من ايام الربيع وقد رق النسيم وفاح عرف الزهر والرياحين من حديقة المنزل اذ قال له صاحبه : هلم بنا ياعبدان ننزل الحديقة فان الجلوس بها لامتع ٠

وصارا الى الحديقة فجلسا على مقعد مفروش ببساط من المخمل ، في ظل ايكة ملتفة الغصون على هيئة الاريكة يتدلى منها الزهر ، وامامها بركة لطيفة مملوءة بالماء تحيط بها اشجار الحديقة من كل جانب ٠ وبينا عبدان يسرح طرفه فيما حوله ويعجب لجمال الحديقة وتنسيقها، وصاحبه ينظر اليه كالمسرور باعجاب عبدان بحديقته ، اذ سمعت حركة من خلف الايكة برزت لهما على اثرها فتاة باهرة الحسن رشيقة الحركة ، فلما لحتهما اجفلت فارتدت الى الوراء ٠ فخفق قلب عبدان وتحرك في مقعده وقد بان الخجل في وجهه ، فاذا الكرماني يقوم من مقعده وينادي الفتاة قائلا « هلمي ياشهر ٠٠ ليس عندي احد غريب ٠٠ انما هذا ابن عمك الاهوازي عبدان » واختفى لحظة ثم اقبل بالفتاة تتهادى في مشيتها وقد تورد خداها وهي تقول بصوت رقيق : « ما كنت اعلم ان احدا هنا في الحديقة » فقال لها الكرماني : « انما هذا عبدان الاهوازي وهو منا ولا يستحى منه » ثم التفت الى عبدان ـ وكان واقفا قد غلبه الحياء فأرخى بصره الى الارض ـ وقال له « هذه اختي شهر ياعبدان جئت بها لتسلم عليك » ٠ فرفع عبدان بصره ومد اليها يده المرتعشة فصافحها ٠٠ وقال الرجل لاخته : « اجلسي معنا قليلا يا شهر » فجلس الثلاثة وبقي عبدان صامتا مطرقا لا يدري ماذا يفعل او يقول ٠

قال الكرماني وهو يضحك : « انظر يا عبدان الى وجه شهر لترى جمال الاهوازيات لعلك ان تشتاق الى بلدك فتتزوج احداهن هناك » ٠

فما سمع عبدان ذلك حتى غلبه الضحك ، وحاول جاهدا ان يمنعه فلم يقدر ، وما كف الضحك عنه الا حين سمع الكرمانى يقول : « انظر . . أليست جميلة رائعة ؟ » . .
فنظر عبدان الى الفتاة فرآها تبتسم وعيناها متطلعتان كأنما تنتظران جوابه فقال : « بلى والله انها لكما وصفت وأكثر » .
فاستضحكت الفتاة وقالت له وهى تكسر من جفنيها : « لو آثرت الحق لقلت انك لن تتزوج اهوازية أبدا بعد ما رأيتنى ! »
قال عبدان وقد انبسطت اساريره وحلت عقدة لسانه : « صدقت ! »
واذا بسحابة من العبوس بدت فى وجهها ثم اختفت فى مثل لمح البصر فقالت وهى تبتسم :
– لانى عنوان سيىء لنساء بلادى !
– كلا ... ماهذا قصدت .
– فماذا قصدت ؟
– لم يبق لى فيهن من أرب .
– من اين تعلمت هذا كله يا نزيل الخان ؟
– من عي . . . . !
ولم يكمل عبدان كلمته اذ تذكر انه فى مشهد اخيها فخجل وتلعثم ..
ولكن الكرمانى ابتسم يشجعه وقال : « ويلك ان الكلمة التى ما اكملت نطقها هى اجمل شىء فى هذه الحورية الاهوازية !! » .
فتشجع عبدان وقال : فلقد صنتها عن الابتذال فى لسانى ! »
قالت شهر : « هلا قلت صنتهما فهما أثنتان ! »
فقال عبدان: « لكن واحدة منهما تكفى لفتنة الف نزيل خان! »
فضمت فمها الارجوانى الصغير بقوة لئلا يبض بالابتسام ، فجعل الابتسام يتفيض من عينيها واسارير وجهها ثم ما لبث ان طغى على فمها فتدفق ثم سال !
والتفتت الى الكرمانى تقول : ان صاحبك الطالب يا .... يا اخى ليجيد الغزل !
ورجع عبدان الى خانه وهو متبول القلب وظل باقى يومه وشطرا من ليلته لا يفكر الا فى شهر ولا يغيب عنه خيالها .
وكان عبدان قد زهد فى النساء منذ فقد ابنة عمه عالية ، ووجد فى انصرافه لطلب العلم وانهماكه فى الدرس ما أنساه

ما بقى من ذكراها الأليمة فى قلبه وما شغله عن التطلع الى غيرها بعد ذلك •

ولم يخطر بباله قط أنه سيغرم يوما باحداهن ، وأنى يخطر له ذلك وشتان بين سبيل العلم وسبيل الغرام ؟ ولكن هذه الحورية الاهوازية قد قعدت له فى وجه الطريق الذى يسلكه ، وجاء أخوها الذى ما جمعه به الا هذا الطريق فجلاها عليه ، وأتاح له أن يحادثها وتحادثه ، فأين المهرب من قدر كان مقدورا عليه ؟

ها هى ذى تتخطر فى قلبه فارعة القوام ، ممشوقة القد ، مشرئبة الصدر ، ناضجة تكاد تقول لرائيها : كلنى ! لقد عرف حب عالية من قبل ، وانها لمن أجمل من رآهن من النساء ، ولكنه ما كان يجد فيها هذا الشىء الذى يتلهب فى وجنات هذه الاهوازية ويتوقد فى عينيها ويتسعر فى كل جارحة فيها فيتضرم لها ما بين جوانحه نارا • • •

وكثر تردده على بيت الكرمانى أو بالحرى بيت شهر ، فقد صار يؤم بيتها لا بيته ـ فكانت تلقاه كلما جاء ، وتجلس اليه مع أخيها واذا حضر وقت الطعام شهدته معهما على المائدة •

ثم صار الكرمانى بعد ذلك لا يرى بأسا أن يخرج لبعض حاجته فيتركهما فى البيت وحدهما •

وفى غمرة هذا الشاغل الجديد لم يجد عبدان وقتا للتفكير فى أمر الكرمانى وتساهله معه فى لقاء أخته والاختلاء بها ، فاكتفى بأن حمل ذلك محمل الثقة من الكرمانى بدينه وتقواه والرغبة فى تزويجها له اذا طلب منه ذلك ، وما يدريه لعل تلك عادة الاهوازيين قبل الزواج • وبعد فهذه متعة قد ذاقها ولم يعد يستطيع الصبر عنها ، فعلام يحاسب من ساقها اليه ؟

بيد أنه خشى على نفسه يوما أن تخون الامانة ، وان النفس لأمارة بالسوء ، وان السبيل اليه لمهيأ ، وان الاغراء به لشديد • وقد امتدت يده الى بعض ما لا يرضاه من نفسه ووجد من الفتاة مقاومة ولكنها مقاومة تغرى بالهجوم ! ! فأيقن عبدان أنه هالك لا محالة ان لم يتدارك أمره ، ولا سبيل الى ذلك الا بأن يتزوجها ، وقد أحبه الرجل ووثق به فلم لا يطلب يدها منه ؟ وليس بضاره أن يكون أبوها غنيا وهو فقير ، فلولا أن أباها يرغب فى مصاهرته على علاته لما خلى بينه وبينها

على ذلك الوجه الغريب .

وتشجع يوما فقال له : في نفسي حاجة أريد منك قضاءها ويمنعني من الافضاء بها حيائي منك .

فقال الكرماني : « قلها يا عبدان فوالله ان تكن في وسعي لأقضينها لك » .

قال عبدان : « فما يقدر عليها غيرك » .

ـ فأخبرني ما حاجتك ؟

ـ أختك شهر .

ـ فهي بين يديك .

ـ أريد أن أتزوجها .

ـ لم تريد أن تتزوجها ؟

فتردد عبدان قليلا ثم قال : « لأنني أحببتها ! »

فقال الرجل : « فهل منعتها عنك يا عبدان ؟ »

فدهش عبدان لقوله ولم يفهم مراده فأطرق واجما .

وعاد الرجل يقول : « أليست بين يديك تراها كل يوم وتراك ؟ » .

فسرى عن عبدان قليلا وقال : « ولكن ذلك لا يكفيني » .

فبدره الرجل قائلا : « ان كان ذلك لا يكفيك فخذ منها ما يكفيك ! » .

فما سمع عبدان هذا منه حتى احمر وجهه خجلا وعراه الدهش فظل هنيهة صامتا لا يدري ما يقول ، ثم عاد اليه صوابه فقال : « ان ما يكفيني منها لا سبيل اليه الا بالزواج » .

فضحك الرجل وقال : « ما يدعوك الى الزواج وهي ميسرة لك بدونه ؟ »

فتغير وجه عبدان وقال له : « كأنك يا سيدي تسخر بي وتهزأ بطلبي !! » .

فقال الرجل بلهجة جادة : « كلا والله ما أسخر بك ، واني لأعني ما أقول » .

ـ فكيف تقول هذا الذي لا يعقل ؟

ـ لقد عقلته ولا أقول الا ما أعقل .

ـ والله ما فهمت مقصدك .

ـ ولكني فهمت مقصدك يا عبدان ، انك لا تريد شهرا وانما

تريد أن تستأثر بها دونى !

ــ ماذا تقول ؟

ــ ليس لى غيرها فمن ذا يقوم بشؤونى اذا أنت أخذتها منى ؟

فقال عبدان وقد انبسطت أساريره : « فسأبقيها عندك اذا شئت ، وأنت تعلم أن هذا سيكون أحب الى لما لا يخفى عليك من رقة حالى » .

فقال له الرجل : « ما يضمن لى ألا يبدو لك يوما فتقاضينى بما فى يدك من وثيقة الزواج فيحكم لك بما تريد ؟ »

قال عبدان : « أفهذا هو الذى يمنعك من تزويجى ؟ »

فقال له الرجل : « ان أردت الحق فليس هذا فحسب هو الذى يمنعنى ! » .

ــ لقد فهمت ما تريد . انك تعنى فقرى .

ــ كلا ، ما هو بذاك ولكنى ظننتك حرا تنشد اصلاح أحوال الناس وتبغى سعادتهم ، ولا تخضع الا لحكم العقل ، فاذا أنت كسائر الناس ترسف فى أغلال العقائد الموروثة وقيودها .

نسى عبدان عند ذاك مسألة الفتاة واستحوذ عليه حبه للجدل العلمى فقال :

ــ ولكن لا غنى عن بعض هذه القيود التى فرضها الدين لصلاح البشر واستقامة أمورهم .

ــ متى صلحت أحوال الناس بالدين يا عبدان ؟ لقد وجد الدين من قديم وما برح الفقير يموت من الجوع ، والغنى يموت من البطنة ، والقوى يسطو على الضعيف ، والسلطان يجور على الرعية ، والرعية تخضع لهذا الجور .

ــ ولكن الدين لا يرضى بهذا

ــ فأين الدين ؟ أليس فى صدور حملته من العلماء ؟

ــ بلى . . .

ــ فهل كانوا الا أعوانا للظلم ، يتأولون نصوص الدين بما يرضى السلطان لكيلا ينالهم أذاه ، وبما يرضى ذوى الجاه والمال لينالوا نصيبا من جاههم ومالهم ، ويوصون الفقراء ومهضومى الحقوق بالصبر على ما يلقون والقناعة بما يجدون والرضا بقضاء الله وقدره لئلا يثوروا على ظالميهم ، فيأمن هؤلاء جانبهم ويعيشون مطمئنين وادعين ؟

ــ ليسوا جميعا كما وصفت ، فذاك أبو البقاء البغدادى

مثلا قد قام بما أوجبه الدين عليه ، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وجمع المظلومين من الفقراء والفلاحين والعمال والصناع ليطالبوا بحقوقهم ويرفع الظلم عنهم ٠

ــ لا يخدعنك هذا وأمثاله ، فان أبا البقاء لأخطر على العدل الشامل الذى ينشده الاحرار للناس جميعا وأعون على بقاء الظلم والفساد من غيره من العلماء المتقاعدين ٠ فقد رأى النفوس المظلومة تغلى بالحقد على ظالميها ، وتتحفز للوثوب بهم فى قومة واحدة لا تبقى منهم ولا تذر ، فجاء يقودها الى المطالبة ببعض حقوقها فى لين وهوادة لكى يكسر من شرتها ويخفف من غليانها فلا تنفجر ٠ وها هو ذا قد قام بما قام فلم يصنع شيئا ٠

ــ ان لم يصنع شيئا فلأن السلطان حبسه فحال بينه وبين ما أراد ٠

ــ والله لهذا خير عمل قام به السلطان ، فلو قد أفلحت حركة أبى البقاء لقضى على الثورة التى تضطرم فى نفوس المظلومين فضاع كل أمل لنا فى تحقيق العدل الشامل ؟

ــ ماذا تعنى بالعدل الشامل ؟

ــ أن تكون الارض كلها لله يشترك فيها الناس جميعا لا يحتجنها أحد دون أحد ، فلا يكون بينهم غنى ولا فقير ، اذ يصيب كل امرىء حاجته وحاجة عياله بالمعروف دون اسراف ولا تقتير ٠

ــ ان فى الناس القاعد والمجتهد وليس من العدل ان يتساويا فيأكل القاعد من كد المجتهد وعمله ٠

ــ كلا بل سيكون الناس جميعا عاملين مجتهدين ، كل يعمل على قدر طاقته ويأخذ حسب حاجته ، ولن يبقى فيهم قاعد عن عمل يقدر عليه اذ لا يؤذن لمثله بأن يعيش ٠

ــ والمال ؟

ــ حكمه حكم الارض ، لا يأخذ منه أحد الا قدر حاجته ٠

ــ هذا حسن ولكن كيف السبيل اليه ؟

ــ لا سبيل الا هدم الدولة القائمة على الظلم وتأسيس دولة جديدة على أساس العدل الشامل ٠

ــ فمن يتولى أمر الدولة الجديدة ؟

ـ يتولاها الرجال الذين يؤمنون بهذا الاساس •
ـ فكيف تضمن ألا ينحرف هؤلاء الرجال عنه اذا صار في أيديهم النفوذ والسلطان فيستمرئوا ظلم الرعية كما استمرأه سلفهم من قبلهم ؟

ـ سوف تسن قوانين صارمة لعقاب من ينحرف عن النهج • ولتعلم يا عبدان أن الطغيان مصـــدره النفوذ ، وأن النفوذ مصدره امتلاك الارض والمال ، وحيث لا امتلاك لهذين فلا نفوذ ولا طغيان • ثم ان وجد الطغيان بعد هذا فلا بقاء له الا ريثما ينزع النفوذ من يد من طغى ويسند الى من هو أصلح منه من السائرين على المنهج المتمسكين بالعدل ، ولن يستطيع الطاغي أن يقول حينذاك : هذا حقي أو ارث ورثته عن أبي •

ـ ان حجتك لقوية وان منطقك لسديد ، بيد أنه لو كان هذا المنهج مما يستقيم عليه أمر الناس ويصلح به حالهم لجاء الدين به •

ـ أما تزال تحتج علي بالدين ؟ فلم لا تقول : لو كان الدين صحيحا لجاء بهذا الذي قد أقررت أنت بحسنه ؟؟ •

ـ ان الدين لا يجيء بشيء لا يمكن تحقيقه مهما يكن حسنا •

ـ فقد جاء دينك بأشياء ما أمكن تحقيقها كذلك • خذ مثلا لذلك أنه فرض الزكاة على الاغنياء فهل أدوها ؟ وأوجب العدل الجزئي على ولاة الناس ورعاتهم فهل قاموا به ؟

ـ ليس هذا ذنب الدين وانما هو ذنب الذين قصروا في تنفيذ أحكامه •

ـ فكذلك هذا النهج لا يعيبه ألا يسير الناس عليه ما دام العقل قد حكم بحسنه وصلاحه •

فسكت عبدان قليلا ثم قال : «مالي ولهذا الجدل ؟ انمـا جئتك في أمر شهر لتزوجني بها ، فما تقول في طلبي ؟ »

فقال الرجل : « عد الى رحلك الآن ففكر فيما حاورتك به ، فاذا رأيت عقلك قد عتق من رق التقليد والوهم فاستطعت أن تدرك صواب ما بينت لك فجئني حينئذ لتكلمني في شهر » •

ـ ٤ ـ

لبث عبدان أياما وليالي لا ينقطع عن التفكير في أمر **هذا الاهوازي العجيب الذي يتكشف له كل يوم من سره ما هو** أعجب وأعجب • انه ليعرف له الفضل فيما سلف من **احسانه**

اليه وعطفه عليه ، وانه ليحبه حبا صادقا منذ استولى عليه حب أخته شهر ، ولكنه أصبح يشعر نحوه الآن بشيء من الكراهية ، لأنه عمد الى ما يدين به من المثل العليا فهدمها ، والى ما يحلم من رؤى جميلة وأطياف محببة فأطارها ، وجاءه بآراء جديدة كان بدنه يقشعر لمحض سماعها ، ففرضها عليه بقوة حجته وحسن بيانه وأحلها محل الايمان من قلبه • نعم قد كان الشك يدب الى عقيدته اذا حضر مجلسا من المجالس الخاصة ودار به النقاش في الالهيات وأمور الغيب أو في خلق العالم ومباحث الروح والمادة ، أو في حقيقة الوحي وعصمة الانبياء والموازنة بينهم وبين الفلاسفة أو ما أشبه ذلك ، ولكن الشك لا يلبث أن يزول عنها ، فمثله كمثل الريح تهب على سطح الماء دون أن تبلغ الى قراره ، فتثير آواذيه وتتلاعب بأثباجه حينا ، ثم لا تلبث أن تركد فاذا هو والبساط سواء •

أما هذا الذي جاء به الكرماني فقد عصف بعقيدته من الاعماق فقلب عاليها سافلها ، فكأنه اعصار قلب سفينته قلبا وحطمها تحطيما ، ثم أسلمه الى دوامة شديدة تدور به وبحطام سفينته علوا وسفلا في حركة دائبة لا تنقطع ، وبعض الحطام يصدم رأسه أو ظهره أو بطنه ، فلا يجد وقتا للتوجع والتألم من فرط الحاح الدوامة عليه ، ولا مهرب له منها الا أن يتعلق بحبل قد مد له من سفينة أخرى في معزل عن الدوامة يصل الى سمعه من ظهرها صوت صاحبه الكرماني ينـــاديه : « الحبل ! الحبل ! » •

وما أشبه هذا الذي عصف بعقيدته من اعصار الشك اذ فتنه كلام الكرماني بذاك الذي عصف بقلبه من اعصار الحب حين فتنه جمـــال أخته ! وما يدريه لعل الاعصـــارين كانا متظاهرين عليه أو لعلهما كانا اعصارا واحدا هب من جهتين

وجعل خيال شهر الجميلة يتشفع لأخيها عنده ، ويعاتبه على ما تحول من وده عنه • وتغير من قلبه عليه ، لغير ذنب جناه أخوها الا أنه أراد أن يهديه من ظلمة الجهل الى نور العقل وأن يهدي اليه الحورية التي يتمناها قلبه ويذوب اليها شوقا • وما زال به خيالها الحبيب حتى لان واستعتب ثم خضـــع واستسلم •

وغدا الى الكرماني بعد ما انقطع عنه بضعة أيام ، فرحب

به وبالغ فى تكرمته ثم سأله متلطفا : « ليت شعرى ماذا فعل الله بك يا عبدان ؟ لعلك اهتديت الى سبيل الرشد وآمنت بالعدل الشامل » .

فقال عبدان : « نعم قد شرح الله صدرى لهذا المذهب الحق ، فوالله لأكونن من دعاته المخلصين حتى يزول الظلم ويتحقق العدل الشامل » .

فقام اليه الرجل فاحتضنه وقبل بين عينيه وقال له : « بأبى أنت وأمى لقد علمت أنك ستستجيب لدعوة الحق يوما بما رزقت من رجاحة العقل وقوة التمييز وسلامة الادراك .

فتأثر عبدان تأثرا شديدا وقال له : « انما كان ذلك بفضل ارشادك وهدايتك » . ولو أنه قال : « بفضل جمال أختك » لكان أدنى الى قول الصواب .

ولعل هذا المعنى اختلج فى خاطره اذ دخلت عليهما شهر حينئذ لتقدم لهما قدحين من شراب اللوز فلما رأته حيته وقالت له : « تغيبت عنا أياما يا عبدان أفتراك نسيتنا ؟ »

فقال عبدان والقدح يضطرب فى يده : « لا والله ما نسيتكم وكيف أنساكم ؟ »

قال الكرمانى : « انما غاب ليؤامر نفسه . وقد جاء اليوم مهتديا » .

فلم تقل شهر شيئا وانما نظرت اليه نظرة تنطق بالفرح والتيه ويرنق فيها ظل من السخرية الناعمة كأنها تقول : « ويحكما . . انما آمن هذا بالمذهب من أجلى ! » .

وتناولت القدحين الفارغين فانصرفت بهما .

قال عبدان عقب انصرافها : « فهل لى أن أكلمك الآن فى أمر شهر ؟ »

فقال الكرمانى : « حبا وكرامة » .

ــ ألا تزوجنى بها ؟

ــ علام هذا العناء ؟ لقد صارت اليوم حلالا لك فافعل بها ما تشاء ! .

ــ ولكن هذا يخالف . . .

ــ الدين ؟ أما برحت تؤمن بالدين ؟ أتريد أن تعود الى حالك القديم ؟

ــ لا بل أردت أن أقول انه يخالف العدل الذى ندين به .

ـ كيف ؟
ـ سيكون ذلك عدوانا مني على ما ليس لى بحق ٠
ـ انما ذلك حق شهر وحقى ، فمتى سمحنا لك به فهو حقك ٠ أما أنا فقد علمت رضاى وأما هى فلتلتمس رضاها ولن يعجزك !
ـ ولكنى أجد من ذلك فى نفسى شيئا بعد ٠
ـ ويحك يا عبدان ، ألست قد جلست اليها كثيرا وحادثتها ؟
ـ بلى ٠
ـ فهل كان ذلك يتاح لك لولا رضاها ورضاى ؟ خبرنى يا عبدان أما قبلتها قط ؟
فاحمر وجه عبدان خجلا ولم يجب ٠ وأصابه كرب عظيم ٠
فعاد الكرمانى يقول : « قل الحق يا عبدان ولا تخف ٠ أما قبلتها قط ؟ »
فقال عبدان بصوت مرتجف : « بلى وأعتذر اليك ٠ فوالله ما كان ذلك عن قصد منى وانما غلبتنى نفسى فزللت ٠ فبالله عليك الا ما عفوت عنى وأغضيت » ٠
ـ دع عنك هذا فلست من يؤنبك على مثل ما فعلت ، والا لما خليت بينها وبينك ٠ وحسبى انك اعترفت بالقبلة واعتبرتها زلة منك لجهلك برضاى ٠ فما يمنعك منها الآن وقد أذنت لك ؟
ـ لكنى لا أريد التقبيل فحسب ؟
ـ التقبيل وما وراء التقبيل سواء وقد سمحت لك بكل شيء فكل ما عليك ألا تكرهها على ما لا تريد ٠
ـ ولكن ٠ ٠ ٠
ـ ويلك يا عبدان ، لقد فهمت مرادى ٠ فحرام عليك أن تحوجنى الى التصريح بما لا يجمل بكرام الناس ذكره ٠

***

كان هذا فى وقت الضحى ، فما غابت شمس ذلك اليوم حتى ذاق عبدان الثمرة التى حرمها الله وأحلها قوم كانوا يبغون أن ينشروا العدل الشامل بين البشر ! وماذا على عبدان أن يجدها تذوب فى فمه لينا دون أن تحوجه الى خضم وقضم ؟ وقد كان اليسر بركة عليه فى بداية الامر ونهايته ، ففيم يتوخى العسر أو يحزن عليه ؟ وانه لسعيد بالحاضر الموجود ، فعلام يسأل عن الماضى المفقود ؟ وما يفصل بين هذين الا ليلة

فما أهونها من فرق !

بيد أنه ذكر المستقبل فانتفض قلبه رعبا . ماذا يكون الحال لو طرق باب الجنة طارق جديد ؟ أيكون رضا الحورية وحارسها كافيا لفتح أبوابها الثمانية له يدخل من أيها شاء ؟ ولكنه عاد فقال لنفسه : « ان من العبث أن يشغلنى خوف الغد عن نعيم اليوم » ثم عن له خاطر ما أعمل فكره فيه حتى استراح اليه . لقد أصبح رضاه شرطا ثالثا لدخول الطارق الجديد وانه لن يرضى أبدا . فما خوفه من أمر يملك هو ألا يقع ؟ .

ثم هيئت لعبدان غرفة فى دار الكرمانى لينزلها ، فودع الخان ونزلاء الخان وأقام مع الكرمانى يأكل مما يأكل ويلبس مما يلبس ، فتبدل حاله وبدت عليه سمات النعمة واليسار حتى انه ليصعب على من يراه أن يعرف أنه عبدان الاهوازى نزيل خان الغرباء . وقد وثق به الكرمانى فأفضى اليه بسر حركته ، فاذا هى حركة واسعة المجال دقيقة النظام ، يرئسها فى ذلك العصر أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح ومركزها (سلمية) بالشام بعد أن كان (الاهواز) . ولها شعب منتشرة فى أمهات المدن وسائر أصقاع الدولة . وما الكرمانى فى بغداد الا أحد دعاتها . وقد اختير ليدير شعبة العاصمة لسعة حيلته وعظم مقدرته وغزارة علمه فضلا على اخلاصه للحركة ونشاطه فى خدمتها . وعلم عبدان أن أموالا ترسل اليه من سلمية لينفقها فى سبيل الدعوة ، وأنه يتسلمها من تاجر يهودى كبير فى العاصمة ، وأنه قد اجتذب الى مذهبه خلائق كثيرين من طبقات مختلفة ومشارب متعددة ، وعقد أواصر الصداقة مع رجال كثيرين من الرؤساء والعلماء والفقهاء والادباء ، يجارى كلا منهم فى مشربه وعقيدته ولا يعرفون من حقيقته شيئا ، وهو يستعين بهم فى تحقيق أغراضه من حيث لا يعلمون . وما جماعة اخوان الصفاء الذين يجمعهم فى داره مرة فى كل أسبوع الا بعض هؤلاء . وقد آثرهم بالعناية فتعهدهم بألطافه ووصل ذوى الحاجة منهم ببره لأنهم من دعاة التفكير الحر ، فحسبه من عملهم أنهم يشككون الناس فى عقائدهم الموروثة ، فيمهدون بذلك سبيل النجاح للقداحيين اذا ثاروا على النظام القائم ليعصفوا به ويقيموا مكانه نظامهم

الجديد .

وهكذا أفضى الكرمانى بكل أسراره الى عبدان ما خلا سرا واحدا لم يره أهلا لاحتماله بعد ، فطواه عنه الى حين .

وانقضت شهور تذوق عبدان فيها أفانين السعادة فى ظل حبيبته الجميلة ، وتجدد له بدخوله المذهب حلم كبير يسعى فى تحقيقه بكل ما أوتي من قوة ، فكان له فى ذلك حافز يدفعه الى الحركة والنشاط ، ويعصم همته من شر الركود والاخلاد الى النعيم .

وقويت به حركة الكرمانى فى بغداد وتعاظم خطرها . وصار لها أنصار متحمسون فى مختلف الهيئات والطبقات ، ولم يقتصر نشاطها على الرجال ، بل امتد الى النساء أيضا . فكانت شهر تزور بيوتهن ، وتتخير منهن العوانس والمطلقات والنواشز من أزواجهن والمعلقات ، فتدعوهن الى بيتها حيث يجتمعن فيتشـــاكين ما يلقين من ظلم الازواج والآباء لهن واستبدادهم بهن ، فتفضى اليهن شهر عند ذلك بأن عهد الظلم والاستبداد قد أوشك أن يزول ، وأن عليهن أن ينضوين الى لواء المهدى المنتظر الذى سينقذ النساء من ظلم الرجال وينقذ الرجال من ظلم بعضهم بعضا فيسألنها : متى يظهر هـــذا المهدى ؟ فتقول لهن : ان وقت ظهوره قد حان أو كاد .

ثم تصطفى من هؤلاء من تثق بهن ، فتشككهن فى دينهن وتدعوهن الى الانطلاق من قيوده الثقيلة عليهن والاستمتاع بمباهج العيش ولذات الشباب . وتقول لهن ان الرجال هم الذين وضعوا تلك الحدود والاحكام ليخضعوا بها النســـاء لسلطانهم فيتقيدن بها وهم لا يتقيدون ويخشين الله وعـذاب الآخرة وهم لا يخشون .

ثم صارت تجمعهن ببعض الرجال والفتيان من أنصـــار الدعوة ، فيبالغ هؤلاء أمامهن فى استنكارهم ظلم النساء ، ويقسمون لهن الايمان لا يقر لهم قرار حتى يرد اليهن ما استلب الرجال من حقوقهن وحتى يصبح الرجل والمرأة سواء فى كل شىء .

وتسامع الفتيان والفتيات بنبأ هـذا المنتدى الشـــائق العجيب فأخذوا يهرعون اليه . وسرعان ما نشأت له فروع فى مختلف أحياء العاصمة كان الكرمانى يتعهدها جميعـا بالانفاق ويتخللها عبدان وشهر بالزيارة والتوجيه .

ولكن أنباء الحركة ما لبثت أن وصلت الى سمع الخليفة المعتمد فهاله أمرها واستشار وزراء دولته فأشاروا جميعا بألا بد من تطيير الخبر الى أخيه الموفق وانتظار ما يشير به فى هذا الصدد .

وكان الموفق غائبا عن العاصمة منذ شهور . اذ كان يتنقل فى البلاد يتفقد حصونها ، ويستطلع أخبار يعقوب بن الصفار والحملات التى وجهها اليه لاخضاعه ، ويهتم فى نفس الوقت بارسال القواد والجنود جنوبا ليناوشوا صاحب الزنج ويعوقوا من تقدمه وتقدم رجاله الى الشمال صوب العاصمة ريثما يتفرغ لحربه بعد القضاء على فتنة يعقوب . وكان أخوف ما يخاف الموفق أن يتصل صاحب الزنج بيعقوب فيكونا البا عليه ، ومن أجل ذلك جعل وكده أن يضرب سدا بين الشمال والجنوب أقام على طوله المسالح والجنود وتعهدها بنفسه ليحول دون اتصال الفتنتين .

وكان الموفق نازلا فى « عسكر مكرم » حين بلغه أن يعقوب قد مات فخلفه عمرو أخوه وكان عمرو بن الصفار يميل الى مسالمة الخليفة ، فأرسل الى الموفق يفاوضه فى ذلك على شروط بينها له ، فتردد الموفق فى قبولها ورأى الفرصة سانحة للقضاء على الصفارين واستئصال شأفتهم حتى يتوجه بجملته بعد ذلك لمحاربة صاحب الزنج ، لولا أن الانباء وردت اليه بأن الزنج قد تقدموا من واسط وهدفهم بغداد ، وجاءه أيضا بريد بغداد يحمل اليه كتاب الخليفة الخاص بحركة الكرمانى ، فلم يجد الموفق بدا من قبول شروط عمرو بن الصفار فعقد الصلح معه ومضى يغذ السير قافلا الى بغداد .

وكان أهل بغداد قد روعتهم اخبار الزنج وما يرتكبونه فى الناس من الفظائع ، اذ يقتلون الشيوخ والاطفال ، ويعتدون على اعراض النساء ، ويبقرون بطون الحوامل ، وينهبون المتاجر والاموال ، ويأتون على الاخضر واليابس ، وصاروا يترقبون انباء تقدمهم بخوف وقلق . وبلغ بهم الهلع مبلغه اذ انتشرت بينهم شاعة بأن طلائع الزنج قد وصلت الى جرجرايا وماهى الا ايام حتى يغيروا على العاصمة . فعرض كثير من الناس املاكهم للبيع بأبخس الاثمان ليغادروا بغداد فرارا بانفسهم

وأولادهم ، فما رضى بشرائها الا نفر من تجار اليهود •
اما الكرماني فقد انتهز فرصة اضطراب الناس وجزعهم ، فضاعف نشاطه ودفع انصاره الى الاجتهاد في حركتهم ،وافهمهم ان الله قد آذن بظهور الحق على ايديهم ، فسلط على النـــاس صاحب الزنج واصحابه ، عقابا لهم على ما سكتوا على الظلم ، ورحمة بهم لان صاحب الزنج سيقوم لهم بهـدم هـذا النظام القائم على الجور والطغيان ، حتى اذا فرغ من ذلك اهلكه الله بظلمه واتاح لانصار الدعوة ان يبنوا نظامهم الجديد القـــائم على العدل الشامل •

وأسند الى عبدان أمر الاتصال بسواد العـــامة من الفقراء والعمال والصناع وارباب الحرف • فمضىعبدان يبث فيهم هذه الفكرة بنفسه وعن طريق دعاته ، ويؤكد لهم أن عهد شقائهم وفقرهم قد آذن بالزوال ، وانهم عما قريب سيسكنون قصور الاغنياء ويقاسمونهم اموالهم •

وكثر اتصال الكرماني بتجار اليهود ولا سيما كبيرهم عزرا بن صمويل الذى كان يمده بالنقود المحالة له من سلمية عليه• فتواطأ معهم على نشر الشاعة المقلقة بالمدينة لكى يبيع الناس املاكهم بأثمان بخسة فيشتروها منهم • وكانوا قد اكثروا من شراء الحبوب والاطعمة من الاسواق ليحتكروها ، فانتظروا أن ترتفع اثمانها كلما زاد قلق الناس وخوفهم وانقطع ورود الميرة من خارج بغداد اليها ، فيبيعوها للناس حينئذ بأغلى الاسعار •
ومن أقدر على نشر الشاعة المقلقة فى طبقات الناس من الكرمانى الذى يملك جيشا من الاعوان والاتباع منبثين فى كل مكان ، ويهيمن عليهم جميعا بفضل نظامه الدقيق ؟ فلا غرو ان اتفـق التجار اليهود معه على ذلك التدبير وقبلوا ان يعطوا الكرمانى واتباعه ثلث ما يجنونه من الارباح •

وبينما كان الناس على هذه الحال فى بغداد ، اذ وصل الموفق اليها عند الفجر ، فتباشروا بمقدمه وشعروا بشيء من الطمأنينة ورجوا ان يقشع به الله عنهم هذه الغمة • وما كذب رجاؤهم فى الموفق ، اذما كاد يتصل بالخليفة ورجال الدولة ويستوعب ما عندهم من انباء الحال حتى خرج بجنوده ليقودهم بنفسه ، فغادر بهم العاصمة مغرب ذلك اليوم ، وتوجه بهم جنوبا صوب جرجرايا •

وكان اهل العاصمة يترقبون انباءه بنافد الصبر ، فقد ايقنوا جميعا انه ان هزم فى هذه المعركة فلا مناص من سقوط العاصمة فى أيدى الزنج ، وباتوا يبتهلون الى الله ويتضرعون له فى البيوت والمساجد ان يؤيد الموفق بالنصر ويقطع به دابر الزنج ·

الا الكرمانى واصحابه ، فقد اكتأبوا لقدوم الموفق ، وتطيروا من خروجه السريع لمناجزة الزنج ، ولكنهم تجلدوا ومضـــوا ينشرون الشاعة فى الناس بأن الموفق سيهزم لا محالة ، وان قوة الزنج اضعاف قوته ، فلم يأبه الناس كثيرا لهذه الشاعة · ثم اشاعوا انه قتل ، فجزع الناس واضطربوا وتجهز كثيرمنهم للرحيل ، واضطر الخليفة ان يخرج بموكبه فى شوارع العاصمة لينفى للناس ما شاع بينهم من انه قد برح بغداد مع اهلهورجال حاشيته ·

وانه ليطوف بموكبه فى الشـــوارع اذ جاءته البشرى بأن الزنج قد كسروا كسرة منكرة فى جرجرايا وارتدوا على اعقابهم منهزمين ، وان جيش الخلافة يتعقبهم ويوسعهم قتلا وتشريدا ، وان الموفق عقد لابنه ابى العباس لواء الجيش المطارد ، وانههو عائد الى بغداد بعد غد · فأمر الخليفة رجاله فأعلنوا البشرى للناس ، ومضى بالموكب لساعته الى المسجد الجامع فصلىبالناس صلاة الشكر ·

وكان أول عمل قام به الموفق بعد عودته بالموكب الى بغداد ان امر باطلاق ابى البقاء البغدادى من سجنه · وذلك انالموفق عقب هزيمة الزنج فى جرجرايا قد انطلق مع نفر من خاصته فوصلوا بغداد ليلا دون أن يعرفهم أحد اذ كانوا متنكرين فى زى الاجناد · فلما وصل بهم الموفق الى داره امرهم فارتدوا زيا مما يلبسه العامة في بغداد · وفعل هو مثلهم فخرجوا معه الى بعض اطراف المدينة واختلطوا بالصناع والعمـــال وهم فى منتدياتهم يسمرون · فأدرك الموفق فى جولته الليلية هذه ان اغلب انصار الكرمانىهم منالصناع والعمال الذين كانوا انصار أبى البقاء من قبل · فرأىقبل أن يقبض على الكرمانى وخاصته ان يفرق عامة انصاره عنه ، وان خير سبيل لذلك ان يطلقابا البقاء من سجنه ليعود انصاره اليه ، وذلك ما كان ·

ولما بلغ الكرمانى اطلاق سراح ابى البقـــاء توجس شرا ، وأدرك ان ذلك تدبير من الموفق موجه اليه ، فأوصى خاصة اتباعه

بالتيقظ والانتظار لما يسفر عنه ذلك التدبير .

وما خرج ابو البقاء من سجنه حتى انطلق الى مجلس الموفق. فاستؤذن له عليه ، فظن اهل المجلس انه جاء ليسلم على الموفق ويشكره على اطلاق سراحه ، فما راعهم منه الا أن حيا الموفق تحية مقتضبة ثم جعل يعنفه على سوء تدبيره وحمله تبعة خروج صاحب الزنج وفتنته . اذ ما كان.ذلك ليكون او لينجح لو انه عمل بنصائحه في انصاف الفقراء والعمال والصناع والفلاحين من ظالميهم الاغنياء . وخشي الموفق أن يمضى ابو البقاء فى توبيخه الى حد يغض من مقامه فى مجلسه ، فأمر جميع من في المجلس بالانصراف . واختلى بأبى البقاء ، فلما انتهى ابو البقاء من توبيخه اعتذر له الموفق عما كان من حبسه بأن سياسة الدولة قد اقتضت ذلك منه . ثم اخذ يحادثه فى امر الكرماني وبدعته التى تعاظم خطرها في الناس . وكان ابو البقاء يجيبه بان تبعة ذلك ايضا واقعة عليه ، وانه المسئول عنها امام الله وامام الامة، فقد خشي سلطان الاغنياء فظاهرهم على الفقراء ، فعرضهم بذلك للافتتان بمثل هذه الدعوة التي قام بها الكرماني وجماعته

وكان مما قاله له أبو البقاء : « الآن أطلقتنى من السجن لينضم انصارى القدماء الى وينفضوا عن الكرمانى ، حتى اذا تم ذلك اعدتنى الى السجن وفرقت شملهم . فلا والله ما انا بتاركك تخدعهم ابدا » .

فجعل الموفق يحلف له بانه لن يفعل ذلك ابدا ووعده بأنه سينفذلهم مطالبهم بعد ان يقضى على صاحب الزنج حين تهدأ الاحوال ، وتقل حاجة الدولة إلى المال ، فيستغنى عن مجاملة أربابه . وما زال به حتى رضى أبو البقاء منه ذلك وانصرف .

وأثمر تدبير الموفق حقا ، فما كاد انصار ابى البقاء يتسامعون باطلاق سراحه حتى عادوا اليه زرافات ووحدانا ، واعلنوا له توبتهم من بدعة الكرمانى ، فقبل توبتهم واعاد تنظيم نقاباتهم وتوحيد صفوفهم .

ولما رأى الكرمانى انفضاض اتباعه العوام عنه وانحيازهم الى ابى البقاء ، ايقن ان الموفق سيقبض وشيكا عليه . فعهد برئاسة الدعوة فى بغداد الى رجل من اتباعه المستورين يدعى ابا هاشم ابن صدقة الكاتب . واوصاه بالتربص الى ان تصفو الاحوال ويهدأ الطلب ليقوم بتدبير الحركة من جديد . واسرع هو وعبدان وشهر ففروا خفية من بغداد وغايتهم مركز الدعوة فى الشام .

السفر الثالث

ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء
ذى القربى وينهى عن الفحشـــــاء
والمنكر والبغى .

« قرآن كريم »

- ١ -

لما وجدت الجثث الثلاث في دار عبدان صبيحة ليلة فراره من قرية الدور جد الشرطة في البحث عنه ، ففتشوا دار حمدان والتمسوه في كل مكان فلم يقفوا له على اثر ، فاكتفوا بمصادرة ما وجدوه في حانوته ٠

واجتهد ابن الحطيم ان يثبت ان لحمدان يدا في الجريمة ولكنه لم يستطع ، فاصدر امره بمنع حمدان من ممارسة عمله الجديد في جميع تلك الناحية الداخلة في ملكه ٠ ولم يكن حمدان بحاجة الى ذلك العمل فقد كان يكسب من العيارة مايغنيه عنه ، ولكنه اغتاظ لتعنت ابن الحطيم عليه وقصده اياه بالمكروه فحلف لينتقمن منه انتقاما مرا ٠

وكان قد صار قوى النفوذ لدى جماعته العيارين مسموع الكلمة بينهم ، فدفعهم الى تشديد الغارات على املاك ابن الحطيم ومولاتها ٠ فكانت لا تمر ليلة او ليلتان دون ان يصاب ابن الحطيم في ماله او يزرأ في ملك من املاكه ٠ وكان حمدان يقود جل تلك الغارات بنفسه ، وقد اظهر في ذلك شدة ومهارة عظيمتين ٠

وكان لابد له من الاستمرار في عمل يغطي به اشتغاله بالعيارة ، واذ لم يستطع ان يجده في تلك الناحية الخاضعة لنفوذ ابن الحطيم فقد اضطر ان يلتمسه في الجهات الدنيا من بطائح الكوفة شرقي القرية ٠ وتلك البطائح كانت قبل عشر سنوات خلت ان هي الا اراض غامرة لا يملكها احد ولايستثمرها احد ، حتى اضطر الخليفة الى استقراض المال من عزرا اليهودى في بغداد لاستخدامه في القضاء على فتنة ابن الصفار وغيرها من الفتن الناشبة في اطراف الدولة ، فأقطعه هذه البطائح في مقابل ذلك المال ٠ وما لبث اليهودى ان وكل امرها الى صاحب له من كبار تجار اليهود بالكوفة يدعى اسرائيل بن اسحاق ، فجزأها هذا قطعا قطعا ثم جعل يطمع اغنياء الكوفة وكبار ملاكها في استصلاح تلك الاراضي واستثمارها ، فباعها لهم بأثمان طيبة تدفع له منجمة على بضع سنوات ٠ ثم بدأوا في شق الترع والجداول اليها من النهر ، فما مضت خمس سنين حتى انقلبت اراضي صالحة يجود فيها الزرع ويكثر فيها الضرع ، وصارت عامرة بالسكان بعد ان كانت يبابا مقفرة ،فاشتغل حمدان حراثا

يحرث الارض على أجر معلوم ، فكان يبكر لعمله فى الصباح ثم يعود فى المساء الى بيته بقرية الدور .

وكان الفلاحون حين دعوا للعمل فى اصلاح تلك البطائح قد وعدوا بأجور مغرية ، واعطيت لهم تلك الاجور فى بداية الامر فتكأكأوا عليها من كل فج . ولكن اليهودى ما لبث ان ضغط على الملاك فى تقاضى أقساطه السنوية ، فاضطر الملاك الى الضغط على الفلاحين وارهاقهم بالعمل والتقليل من اجورهم ، فصار حال الذين يعملون فى تلك الاراضى الجديدة مثل حال اخوانهم فى غيرها أو أسوأ وان حمدان ليرى ما يلقى الفلاحون هناك من ضروب القسوة والتسخير ، على سوء الغذاء ، وطول العناء ، وانتشار الداء فما يسعه الا ان يتنهد ويقول فى نفسه : «مادام سلطان المال قائما فلا خلاص من الظلم ولا مطمع فى عدل أو انصاف » .

وانه ليرى ابن الحطيم خاصة عنوانا لطغيان هذا السلطان ، فاذا نجح فى هدم هذا الجانب المشمخر من بنيانه فربما يتيسر للناس ان يأتوا على سائر جوانبه من القواعد .

اما ابن الحطيم فقد اعتراه القلق منذ اقتحم العيارون عليه الجوسق فى ظاهر النجف واختطفوا منه عالية . ثم تزايد قلقه وخوفه لما توالت الغارات على املاكه بشدة لم يعهدها احد من قبل ، فأيقن ان العيارين لا يأتون ذلك من اجل الحصول على المال فحسب ، بل لديهم خطة مدبرة للنكاية به خاصة من دون غيره من الاغنياء . ووقع فى نفسه ان ذلك قد يكون بتدبير من خصمه الهيصم يريد اضعاف مركزه ثم القضاء عليه ليتخلص من منافسته . فأقضى بما يساوره من الظن الى والى الكوفة ليبحث له هذا الامر سرا عسى ان يكشف للهيصم يدا فيه . فحقق الوالى رغبته ثم اخبره بانه لم يجد اى صلة بين الهيصم والعيارين ، فلم يرض ذلك ابن الحطيم وعده ممالئا للهيصم لرشوة اخذها فتغير ما بينه وبين الوالى من يومئذ .

وشق على الوالى ان يتغير قلب صديقه ابن الحطيم عليه ، ويحرم بذلك منافع جمة كان يفيدها منه ، فبقى يتحين الفرص ليعيد سابق الصفاء بينهما بخدمة كبيرة يؤديها لابن الحطيم ، الى ان جاءت الفرصة المطلوبة اذ روع ابن الحطيم بنبأ عظيم طار له صوابه وجن جنونه : ان العيارين قد خطفوا اخته من قصرها .

فاهتم الوالى بهذه الجريمة اهتماما عظيما ، واقام الدنيا واقعدها ، فحشد رجال الشرطة حشدا وعززهم بفرق من جنود الدولة ليقوموا بحملة كبيرة على العيارين ، فانطلقوا فى كل مكان يبحثون عن اوكارهم ومخابئهم فى احياء مدينة الكوفة وما حولها من القرى والدساكر يأخذون كل من يقع عليهم أى ظل من الشبهة فيسوقونهم الى السجون . وقد دارت بينهم وبين العيارين معارك حامية قتل فيها كثير من الفريقين . واستمرت الحملة اياما وليالى ولم تقف الا حين ايقن الوالى ان قد تبددشمل العيارين فى تلك المنطقة وذهبت ريحهم بعدما قتل زعماؤهم وابطالهم ، وقد عرف مصارع جماعة من رؤسائهم ، ولكنه لم يستطع ان يتحقق هل كان الشيخ سلام الشواف بين أولئك الصرعى .

وكان حمدان عسيا أن يقتل أو يؤسر لو أنه اشترك فى تلك المعارك ، ولكنه كان قد انطلق الى البصرة اذ ذاك فى نفر من أصحابه ليهدوا الفتاة المخطوفة الى طاغيتها صاحب الزنج

وكان الاعصار قد هدأ حين عادوا الى منطقة الكوفة خفية . فلما رأوا ما أصاب جماعتهم من القتل والتمزيق أخلدوا الى السكينة ولزموا الصمت .

وكان ابن الحطيم حريا أن يشتبه فى حمدان . ولكنه قد التاث عقله من هول الصدمة فأصبح لا يعى شيئا ولا يدرىماذا يأتى وماذا يدع .

وألقى فى قصره يوما كتاب مختوم ، فلما فضوه له اذا هو من صاحب الزنج واذا فيه بعد الديباجة : « ان أختك عاتكة قد أهديت لى فبنيت بها ، وانها مكرمة معززة عندى مفضلة على حظاياى الاخريات . فلا تقلقن عليها فسآتى بها معى حين أفتح الكوفة بجنودى وشيكا وأخلصها من ظلم الخليفة الرافضى دعى بنى العباس حامى الاغنياء ومذل الفقراء . . »

فلما قرىء الكتاب عليه اشتد به جنونه ، فصار يهذى كالمحموم ، ويحطم كل ما تناله يده فى قصوره من الأمتعة والآنية ، ويضرب كل من يدنو منه من خدمه وحاشيته حتى اضطروا الى تقييده وحبسه خوفا منه وخشية عليه .

وانتهز وكلاؤه وقيمو قصوره ومديرو أملاكه هذه الحالة فصاروا ينهبون لأنفسهم كل ما يقدرون عليه من أعلاقه

ونفائسه • فلما حجز عليه السلطان لم يجد شيئا من العين عنده ، ووجد عليه ديونا عظيمة فبيعت معظم أملاكه وقصوره لقضائها ، فانتقل كثير منها الى ملك الهيصم خصمه القديم ومنافسه •

– ٣ –

استمر حمدان يزاول عمله فى البطائح وهو يرى ماوصلت اليه حال ابن الحطيم حتى كاد يشفق عليه • وقد هدأت فى نفسه ثائرة الانتقام منه ، فلم يعد يحمل له أى ضغينة • ولولا ما يرى من سوء حال الفلاحين الذين يغاديهم ويراوحهم لربما خبا فى نفسه ما كان يضطرم فيها من الحقد على الاغنياء جملة •

وتذكر عصابته العيارين فساءه ما أصابهم من البطش والتمزيق • وعز عليه أن يكون هذا جزاءهم بعد ما أفلحوا فى هدم ذلك الركن العظيم من سلطان المال وتسويته بالارض • وكبر عليه أن يحال بينهم وبين هدم أركانه الاخرى • وخطر بباله أنهم لم يصنعوا شيئا ما بقيت تلك الاركان قائمة الا أن شفوا ذات نفسه من ابن الحطيم ونقلوا سلطانه من يد ظالمة الى يد ظالمة أخرى •

أواه ! أين الشيخ سلام الشواف وأين أصحابه ؟ لقد قتل منهم من قتل ، ومن بقى اما فر واما استتر • فقد خلا الجو اذا لسلطان المال يظلم ويبغى كما يشاء دون أن ينتقم للمظلومين منه أحد • كلا والله لا يكون هذا وحمدان حى يرزق لم يمسسه سوء • فلم لا يسعى فى تأليف العصابة من جديد ؟ انه على ذلك لقدير وبه زعيم •

ولم يكن رأى أحدا من العصابة بعد ، اذ كان كل منهم حريصا على أن يتجنب الاتصال بأحد من اخوانه خشية أن يثير الشبهة على نفسه • فلما عزم حمدان على استئناف تأليفها التمس صاحبيه القديمين الشيخ بهلول وعبد الرؤوف التاجر ليشاورهما فى الامر ، فوجد الشيخ بهلول فى الجامع يعظ الناس كعادته لم يتغير من سمته شيء ، ثم وجد التاجر فى دكانه كدأبه ، فاتعد الثلاثة على أن يذهبوا فرادى بعد صلاة العشاء ليجتمعوا فى دار عبد الرؤوف •

وما كان اشد دهش حمدان حين أفضى اليهما بعزمه فوجدهما

قد كرها العيارة وأعلنا له أنهما قد تابا عنها توبة نصوحا • وجعل يحاورهما طويلا ليقنعهما برأيه ، فما أصاب منهما شيئا بل انقلب الشيخ يعظه وعظا مؤثرا ويدعوه الى التوبة كما تابا عسى الله أن يغفر لهم ماسلف من ذنوبهم ، وافاض الشيخ فى حديثه فبين أن لانصاف الفقراء المظلومين سبيلا آخر غير هـذا السبيل ، وأن قصارى مايفعله العيار اذا أخلص نيته أن يأكل الحرام ، ويفسد النظام ، ويروع الانام ، دون أن يعطف الظالم على المظلوم ان لم يزد من قسوته ليعوض مارزئه من قبل العيار ثم اجمل كلامه فى آخر الحديث قائلا : « ان الظلم لايرفعــه الظلم وانما يرفعه العدل » •

ولم يسع حمدان أمام الحجج القوية التى أدلى بها الشـيخ فى بيان رصين وبلاغة متدفقةالا أن ينقطع عن محاورته وان لم يبد منه أنه اقتنع بصواب رأيهما وخطـــل رأيه ، ولما أراد الانصراف قال الشيخ : « ان كنت مصرا على معاودة هذا العمل ياحمدان فثق أننا سنبقى دائما على العهد فى كتمـــان سرك وحفظ مودتك ، حتى يهديك الله الى وجه الحق فيه فتتوب منه كما تبنا ، ، وانك لفاعل ان شاء الله » •

وصمم حمدان على تنفيذ عزمه ، فأخذ يتصل بغيرهما ممن بقى مستترا من أفراد العصابة فلقى من بعضهم قبولا وارتياحا وبينما هو منهمك فى تدبير ماأراد اذا زوجته أم الغيث تحم فى نفاسها ، وقد ولدت طفلا ميتا ، ثم ماأمهلتها الحمى ان ذهبت بها على أثره ، فشغله موتها عن الامر الذى بدأ يعد العدة له •

وكانت أم الغيث امرأة ورعة وطالما نصحت زوجها بالاقلاع عن العيارة تقول له فى ذلك : « ما أغناك ياحمدان عن أكل المال الحرام » وطالما حاول هوأن يقنعها بمنطقه العيارى فما سمعت له قط • ولما يئست من هداية زوجها أصابها هم ثقيل أضوى جسمها وانضب بشاشة وجهها • وكان حمدان يحبها حبـــا عظيما ، فعز عليه ماتكابده من الهم الدفين ، فصار يجاملهـــا ويعللها بالكف عن العيارة حينما يتم له شفاء غليـله من ابن الحطيم •

حزن حمدان لوفاة زوجته حزنا شديدا ، وشعر لاول مرة فى حياته بعزلة نفسية قاسية • فانطوى على نفسه وتذكر دنو الموت وحقارة الحياة ، ومسه فيض من الخشية والندم فمال الى

النسك والتزهد ، فصار يواظب على الصلوات لاوقاتها ويحرص على شهودها في الجامع ماستطاع ، فما صعب على الشيخ بهلول بعد هذا أن يقنعه بالاقلاع عن العيارة والتوبة منها •

وجعل حمدان يكثر من الصدقة على الفقراء يكفر بها عن سيئاته ويهدي ثوابها الى روح زوجته حتى أتى على كل ما ادخره من المال ، فاعتمد على أثواره في كسب قوته وقوت عياله الا أنه ترك الحراثة بالبطائح وعاد الى حمل غلات السواد على أثواره بعد أن ارتفع عنه حظر ابن الحطيم •

واستمرت الصداقة بينه وبين الشيخ بهلول وعبد الرؤوف وقويت أواصرها بعد توبته فكانوا يتزاورون • وبقوا على ذلك حتى اعتزم الشيخ بهلول حج بيت الله الحرام وسافر الى الحجاز ثم انقطعت أخباره بعد ذلك •

أما عبد الرؤوف فما لبث أن اجتوى المقام بقرية الدور فعزم على أن ينتقل الى بلد آخر يبتدىء فيه صفحة جديدة من حياته فوقع اختياره على بغداد فرحل اليها بأهله وتجارته •

ولم يبق لحمدان من أهل بيته الا أخته راجية وولداه الغيث وفاختة • وكانت راجية تظهر الزهد في الزواج بعد اختفاء أختها وفي نفسها انها لاتتزوج الا عبدان أو ثمامة لغير سبب الا أن كلا هذين قد رغب عنها وآثر عليها عالية •

وقد أنساها تقادم الايام كثيرا من الحوادث الماضية ،ولكنها لم تستطع أن تنسى هذه الحقيقة • كأنما لا تزال عالية أمامها وعبدان يؤثرها بالحب ، وثمامة يطريها من دونها ، ولا يخطبها هي الا لان عالية قد عزت عليه •

وكانت على ماتظهر من الزهد في الزواج عارمة الشهوة • قليلة الحظ من حياء العذارى واستمساكهن ، مفتونة بما تسمع من غزل الرجال ومعابثتهم ، لايسرها شيء مايسرها أن يكثر حولها عدد المعجبين من شباب القرية ، فما لبث ذلك أن أزلقها الى الاتصال بمن تهوى منهم ، فكانت تتسلل لذلك في الليالي التي كان حمدان يتغيب فيها مع عصابته •

وكان حمدان شديد الرغبة في تزويجها ، وطالما لامها على اعراضها عمن يتقدم لخطبتها ، فكانت تنتحل لامتناعها شتى المعاذير ، بيد انه انقطع عن الالحاح عليها بعد ما ماتت زوجه ، حين شعر بحاجته الى بقائها عنده لتقوم بشئون ولديه

- ٣ -

انقضت شهور على حمدان وهو على حاله من التزهد والاكثار من الصلاة والاستغفار ، وما يزال مكلوم الفؤاد من موت زوجته كثير التذكر لها والترحم عليها . وكان قد عرف بقالا فى القرية يقع دكانه على رأس الزقاق الذى يقيم فيه ، فأحبه لصلاحه وتقواه ، ونشأت بينهما صداقة متينة . فكان حمدان لايشترى حوائج بيته الا منه ، وكان كثيرا مايعرج عليه حين يعود من عمله فى المساء ، فيقف على باب دكانه يحادثه ، وقد يسوق أثواره الى الحظيرة ثم يعود اليه فيجلس عنده حتى يؤذن لصلاة العشاء ، فيذهبان معا الى الجامع .

وكان البقال شديد الاعتقاد فى الصالحين يزعم لحمدان أن بينهم قوما مستورين لايعرفهم أحد ، لو اقسم أحدهم على الله لأبره ، فطوبى لمن وفقه الله للاتصال بأحد هؤلاء ، ولما أكثر من ذكر ذلك لحمدان وقع فى نفسه أن صاحبه البقال يعرف واحدا من هؤلاء الابدال ، وانه يكتم سره حتى يستوثق منه . فقال له يوما وقد ظهر العتب فى وجهه : « اننى كنت أظن ياابن السماك أن قد كان بيننا من المعرفة والصداقة ما يجعلك تثق بى وبأمانتى ، فاذا أنا مخطىء ، انك تعرف أحد هؤلاء ولا تأمننى على سره » .

فاضطرب البقال قليلا ثم قال له : « من أخبرك بهذا ياحمدان ؟ » . فأدرك حمدان أن ماظنه كان صحيحا فقال له: « قد عرفت ذلك من لحن قولك ، فوالله لئن كتمتنى أمره بعد اليوم ليكونن هذا فراق بينى وبينك » .

فما وسع البقال حينئذ الا أن أخبره بأن رجلا صالحا من الاهواز قد ورد القرية منذ ثلاثة أشهر وانه اتصل به واستكتمه سره ريثما يؤذن له بالظهور للناس ، وانه يصلى فى اليوم خمسين صلاة ، وانه متقشف يسف الخوص ويأكل من كسبه ويتصدق بكل مافى يده .

ـ لقد شوقتنى الى هذا الرجل ، فأين هو الان ؟

ـ فى داخل هذا الحائط الذى تراه .

ـ هذا حائط آل العدوى ، فماذا يصنع فيه ؟

ـ جاءونى يوما فسألونى أن أطلب لهم رجلا يحفظ عليهم ماصرموا من النخل ، فدللتهم على هذا الرجل الصالح ،

فناظروه على ذلك ، فأجابهم الى حفظه بدراهم معلومة ، فهو هناك يحرس تمرهم ٠

ــ هل من بأس فى أن نذهب اليه الساعة فنزوره ؟

ــ قلت لك انه لما يؤذن له بالظهور للناس ، فأرى أفضل أن أحدثه عنك اولا واستأذنه في تعريفك به، فاذا اذن ذهبت بك اليه

فلما كان المساء من ذلك اليوم ترك البقال غلامه فى الدكان وذهب هو وحمدان فدخلا حائط آل العدوى ، فانتهيا الى بيت صغير مبنى بالمدر ، فبصرا بالشيخ الاهوازى قائما يصلى فى فناء البيت على حصيرة بالية ، فوقفا بعيدا عنه حتى سلم من صلاته فأقبلا نحوه وسلما عليه فرد عليهما السلام ثم قام ليصافحهما فقبلا يده ودعاهما للجلوس فجلسا معه على طرف الحصيرة البالية وهو يرحب بهما ٠

قال ابن السماك : « هذا ياسيدى الشيخ صديقى حمدان قرمط الذى حدثتك عنه قد جاء ليستمد من بركتك » فقال الشيخ « أهلا بك وبصديقك الصالح ٠ انى لارجو أن يرزقه الله الاخلاص وأن ينفع به » ٠

وكان حمدان يحدق فى وجه الشيخ يتأمل صورته فى نور السراج الخافت الموضوع على رف محفور فى جدار البيت خلف مقعد الشيخ ، فلما سمع هذا القول منه غض من بصره خشية أن يكون الشيخ انما دعا له بالاخلاص لما رآه يحدق فيه كالمرتاب فى أمره ، على انه استطاع باختلاسه النظر اليه أن يأخذ صورة مجملة منه ، فهو طويل القامة مستطيل الوجه واسع العينين رقيق الشفتين فى نبرات صوته غنة محببة ٠ وعلى رغم تشعثه توحى هيئته العامة الى حمدان انه كان ربيب نعمة خالية وتذكره بما سمع عن بعض ملوك الهند فى قصص العامة انه ترك عرشه وهرب من دار ملكه وآوى الى صومعة فى أحد الكهوف حيث انقطع للعبادة والتأمل ٠

وما لبث الشيخ أن تكلم فى الزهد والتقوى فسمع حمدان منه كلاما لم يسمعه من أحد من قبل ، ولما بلغ من كلامه الى ذكر الاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ، وضرب لذلك أمثلة شتى ، لم يملك حمدان أن خشع قلبه فغلبه البكاء ، اذ وقع فى نفسه أن الشيخ قد عرف سره من طريق الكشف ، فهو يوبخه ويدعوه

للتوبة والاستغفار ، والا فكيف ذكر العيارين فى هؤلاء ؟
ولما كفكف دمعه لم يشعر الا وهو يقول للشيخ : « أجل ياسيدى قد كنت عيارا فيما مضى ، ولكنى تبت الى الله فادع الله أن يتوب على » .
وعجب البقال لما سمع من حمدان ، فما كان يخطر بباله قط أن هذا الاكار الصالح كان يشتغل بالعيارة . ولكن سروره بشهود هذه الكرامة الظاهرة من الشيخ طغى على عجبه فجلس ينصت اليه لعله أن يسمع منه كرامة أخرى .
قال الشيخ لحمدان : « لاتبتئس ياأخى فمن تاب تاب الله عليه ، وان هؤلاء الذين يعملون السيئات وهم يقصدون الخير ويتوهمون أنهم يحسنون صنعا لاقرب الناس الى فعل الخيرات اذا هدوا اليها وبين لهم سبيل الخير من سبيل الشر ، لأن الله قد فطرهم على حب الخير ولم يبق الا أن يهديهم الى طريقه » .
ثم استطرد الى الكلام فى القضاء والقدر فوعى حمدان منه أن الله لايحاسب الناس الا على قدر مايسر لهم من الاسباب لسلوك الخير والبعد عن الشر . فالفقير الذى تدفعه الفاقة الى سرقة مايقتات به لايكون حسابه كحساب الذى يسرق ليتنعم فى مأكله أو مشربه ، اذ يقع شطر من تبعة الاول على جاره الغنى الذى حرمه بعض حقه فى العيش بما احتجنه عنه ؛ فقد خلق الله الارض وجعل فيهامن الرزق مايكفى أهلها جميعاويزيد عن حاجتهم ، ثم هيأهم للسعى فى طلبه ، لتنشط أجسامهم ، وعقولهم ، وليبلوهم أيهم أحسن عملا ، فيحسن الغنى الى الفقير ويأخذ القوى بناصر الضعيف ، لا ليجعل الغنى ماله ذريعة لاجاعة الفقير وتضييق مذاهب العيش عليه ، ولا ليتخذ القوى قوته وسيلة لاذلال الضعيف واضطهاده .
وبينما حمدان وصاحبه البقال يصغيان الى كلام الشيخ اذا بالشيخ ينهض بغتة فيستقبل القبلة ويكبر للصلاة ، فأومأ البقال لحمدان أن ذلك علامة الاذن بالانصراف ، فانصرفا بهدوء .
رجع حمدان الى بيته وهو يردد ماوعاه من أقوال الشيخ ويستذكر ما عزب منها عن ذاكرته . وأرق ليلته لما شغله من أمره فلم ينم الا غرارا .
ثم أخذ يتردد عليه بعد ذلك مع صاحبه البقال أو وحده فما يزداد الا ايمانا به وحبا له واعجابا بعلمه ، وقد أحس ـ لايدرى

كيف احس ـ كأنه اصبح اليوم بعد اتصاله بالشيخ أقرب الى نفسه الاولى قبل التوبة منه الى نفسه بعدها ، فقد أخذ حمدان التائب المنكسر يتضاءل ، ويعود الى مكانه حمدان الثائر العنيف الذى يشعر أن له رسالة فى الحياة عليه أن يؤديها لخير البشر ٠

ولما انتهى عمل الشيخ حسين الاهوازى فى حائط آل العدوى انتقل الى الجامع فاتخذ مقامه فيه ٠ وما لبث أن اشتهر أمره فأخذ الناس يهرعون اليه من كل مكان يتبركون ، ويلتمسون منه الدعاء ، وكانوا يأتون اليه بالطعام والمال فيفرق كل ذلك على من يحضر عنده من الفقراء والمساكين ، ويأبى أن يصيب الامن طعامه الخاص من كسب يديه فى سف الخوص يبيعه له صاحبه البقال فيشترى له بثمنه شيئا من الخبز والتمر ٠

ولبث على ذلك مدة حتى وجدوه يوما عليلا لا يستطيع الحركة ، فعرض بعضهم عليه أن يحملوه الى بيوتهم ليعالجوه ، فأبى وسألهم أن يحملوه الى صديقه البقال ٠ فلما صاروا به اليه فرش له البقال حصيرا على أرض الدكان فأرقدوه عليه وانصرفوا وكلهم يحسد البقال على ما اختصه الشيخ به من رفيع المنزلة عنده ٠

وكان البقال يريد أن يحمله الى داره ليعنى أهله بتمريضه ، ولكن الشيخ كان يستأنيه فى ذلك حتى أقبل حمدان يسوق أثواره راجعا من عمله ، فلما رأى ما حدث للشيخ أقسم عليه ليحملنه الى داره ، فتنازع هو والبقال على ذلك والشيخ بينهما ساكت لا يقول شيئا ثم قال لهما : « أنتما اخواى لا فرق بينكما عندى ، ولكن حمدان قد أقسم فلا بأس أن نبر قسمه » ثم جعل يطيب خاطر البقال حتى رضى ٠

— ٤ —

وأنزله حمدان منزلا كريما فى داره ، وأوصى أخته راجية بأن تبذل غاية جهدها فى تمريضه والعناية به ، وشدد عليها فى ذلك وأمرها ألا ترد له طلبا يسألها اياه ٠ فضاقت راجية بمقدم هذا الرجل الغريب ، وثقل عليها ما تلقى من العناء فى علاجه وتمريضه ، فعليها أن تدلك رجليه كل يوم وتدهنهما بزيت النعام ثم تلفهما بخرق الصوف ، واذا أراد القيام لقضاء حاجته أو للاغتسال أو التطهر وطأت له كتفها فتحامل عليها حتى توصله الى المستراح أو المغتسل ثم تعود به الى مرقده ٠

وعليها أن تغسل ثيابه وترفوها وتهيىء له طعامه وتصلح له فراشه فوق ما كانت تقوم به من علاج شئون الولدين • ولكنها لم تلبث أن أنست اليه فقد وجدته ـ لا كما تخيلته من قبل اذ وصفه لها أخوها شيخا زميتا لا عمل له الا الوعظ والارشاد والتوبيخ وهتك أسرار الناس من طريق الكشف ـ بل كهلا جميل الصورة لطيف المعشر غزل العينين فى حكمة وتبصر ، جياش القلب فى سكينة وهدوء ، ولما يعد سن الشباب الا قليلا ، واذا خرج من المغتسل ومشط شعره وسوى لحيته وشاربه وتكحل وتطيب انقلب فى عينها فتى آنسا تلتذه أكباد النساء •

وانه ليصلى جالسا فلا يرى بأسا أن يقطع صلاته اذا أقبلت عليه ليبتسم لها ابتسامته العذبة ، ويقول لها ان العلة التى ابتلى بها كانت نعمة من الله عليه اذ قيض له وجها جميلا يؤنسه ويعطف عليه ويشمه أنفاس العافية من ردنيه ، أو يسألها عن حال الغيث وفاختة ويحدثها أنهما أصبحا يحبانه ويتعلقان به • وقد يقول لها انه يتمنى على الله أن يطيل أمد علته ليبقى له أنس هذا المكان •

وقد ظهر لها جليا أنه يغازلها بأسلوب خفى ، ولكنها ظلت مدة تتحفظ أمامه وتتجاهل قصده خشية أن يكون ذلك منه انما هو من باب تطييب الخاطر والاعتراف بالجميل ، فهى لا تراه الا مصليا أو مسبحا ، وهو يكثر الصوم ويقول لها لولا العلة لواظب عليه • بيد أنه كان يريبها من أمره أنه يستلذ مس راحتها حين تدلك له رجليه ، ويهفو الى جسمها حين يتحامل عليها فى قيامه لحاجته • وعيناه الغزلتان : كيف يخطئها أن تفهم ما تنطقان به ؟ انها قد رأت شيئا من ذلك فى عيون عشاقها الاولين • وخطر لها ذات مرة أن تطالع حمدان بما رابها من أمره ، ولكن هل يصدق حمدان مثل هذا فى حقه ؟ وتذكرت ماضيها الذى تطويه عن حمدان فعجبت كيف خطر لها ذلك الخاطر السخيف • وعلام تسىء الى رجل يلاطفها ويطايبها ولم يسىء اليها قط ؟

مكثت راجية برهة يصطرع فى قلبها عقيدة الناس فى هذا الرجل الغريب وعقيدتها فيه ، يعزز الاولى عندها اجماع الناس وما تشهد من صلاته ونسكه ، ويؤيد الثانية ما يحس

به قلبها وما تشهد من حديثه وسلوكه ونظرته ٠ على أن حيرتها ما لبثت أن انجابت عنها اذ أيقنت ان احساس قلبها هو الصادق الامين ٠

كان قد انقضى شهر على مقام الاهوازى فى دار حمدان ، وكان قد تماثل قليلا من علته فاستطاع أن يقوم بنفسه لقضاء حاجته ٠ وكان حمدان على جارى عادته يبكر لعمله فى الصباح ويعود من المساء فيجلس الى ضيفه الصالح يخدمه بنفسه ويسمر معه طرفا من الليل يستمع الى حديثه ٠ وقد يأتى صاحبه البقال فيحضر مجلس الشيخ معه ٠ وكان الشيخ قد أوعز اليهما فكتما مقره عن الناس ريثما يبرأ من علته ٠ ولما ضاق صدر البقال بكثرة سؤال الناس عنه أشاع فيهم أنه تركه فى الدكان ليلة جاءوا به هناك ، فلما أصبح الصباح وجده قد اختفى ٠ فاذا تعجبوا من ذلك قال لهم لا عجب فهو من أهل الطى ٠ واذا أظهروا التأسف لفراقه قال لهم لا تبتئسوا فانه سيعود الى الظهور لكم ٠

وذات يوم خرج حمدان مبكرا لعمله كعادته وترك الشيخ فى صلاته التى لا تنقطع ٠ ورجعت راجية الى فراشها ٠ لتستريح قليلا حتى يطلع النهار ، بعد أن قد هيأت لأخيها بعض ما يحتاج اليه من الزاد ليأكله فى طريقه ٠

وبينما هى مستلقية فى فراشها ومن دونها الصبيان يغطان فى نومهما اذا بالشيخ يناديها من حجرته ، فخفت اليه ووقفت على باب الحجرة تسأله ماذا يريد ، فأومأ اليها أن تدخل فترددت قليلا ثم دخلت فأسرع هو الى الباب فأغلقه ٠ ولما رآها قد خافت قال لها فى هدوء ولطف « لا تخافى يا راجية فانى سأفضى اليك بسر لا أريد أن يسمعه أحد غيرك »

وما كانت هذه الكلمة لتهدىء خوفها ، ولكنها لم تستطع أن تصنع شيئا ، فقد اشتد وجيب قلبها ، وملكتها الحيرة ، وأذهلتها المفاجأة ، وهى لا تدرى ماذا يريد وان شعرت أنه لا يريد بها خيرا ٠ ولم يدع هو لها مجالا للتحير والتردد ، فقد أخذ بيدها المرتعشة فأجلسها على طرف فراشه ، فهمت أن تصيح ، فبدرها قائلا : « لقد عرفت سرك يا راجية ، فلتعرفى أنت سرى » ٠

فما سمعت ذلك منه حتى ظهر عليها الاستسلام والتوسل ،

فابتسم لها ابتسامته العذبة ، وأنشأ يقول وهو يضرب على كتفيها بلطف : « لا يخطرن ببالك أنني سأفشي سرك أو أسيء اليك ، ولا تحسبن أني سأوبخك أو ألومك على مازلقت اليه من بدوات الشباب ، فكل ابن آدم خطاء ، وانما العصمة للامام المعصوم » .

وانبرى يحدثها عن الامام المعصوم الذى سيظهر وشيكا فينشر العدل فى الناس ، ويرفع الظلم ، ويملأ الارض رخاء ورفاهية ، ويغفر ذنوب الناس وخطاياهم ، حتى يغبط التقى الورع منهم أخاه العاصي المذنب ، ويود أن لو كان قد استوفى حظه من لذائذ العيش مثله .

فسرى عن « راجية » قليلا ، وذهب عنها الخوف ، فلما رآها قد اطمأنت اليه أخبرها بأنه قد جاء الى هذه القرية بأمر من الامام المعصوم ليدعو أهل هذه الناحية اليه . . . ثم قال لها : « فهذا سرى قد أطلعتك عليه لعظيم ثقتى بك ولم أطلع عليه أحدا سواك » .

قالت له : « ولا أخي حمدان ؟ » .

قال لها : « ولا أخاك حمدان . . . انك ستكونين حواريتى الاولى ، وسيعرف الامام لك هذا الفضل » .

وسكت قليلا وتركها تهيم فى أودية خيالها هنيهة . . .

ثم قال لها : « حذار أن تشكى فى صدق ما أقول ، فانى أعرف ما يدور فى خلدك » .

فنظرت اليه ، فاذا عيناه تفيضان غزلا وشوقا ، فاضطربت شفتاها وأغضت عنه طرفها ولم تجب . . .

قال لها : « أتذكرين ابن عمك عبدان ؟ »

فخفق قلبها لذكرَ عبدان ، وقالت : « أو تعرفه ؟ » .

ـ انه قد آمن بمذهبنا وأصبح من دعاة الامام .

ـ فأين هو الآن ؟

ـ فى مركز دعوتنا بسلمية !

ـ أو قد تزوج هناك ؟

ـ ما حاجته الى ذلك وقد أبيح له ما شاء من النساء يستمتع بهن كما يريد ؟

فانتفضت مذعورة وقالت : كيف ذاك ؟

قال لها : « انه من المخلصين للمذهب ، وقد رفع عنه

التكليف ، فله أن يفعل ما يشاء » ٠

ونظر اليها فرأى على وجهها ظلا من الكآبة ٠ فقال لها : « لا تكتئبى فما أراك الا قد آمنت بمذهب الامام ، فلك أن تفعلى ما تشائين مثله ! »

اهتزت راجية لهذا القول اهتزازا عنيفا أنساها كل شيء الا أنها بين يدى رجل قد ذلل لها كل عقبة أمامها ، فلم يبق الا أن ترتمي عليه ٠ ولكنها استمسكت متجلدة واجتهدت فى أن تعدل بالحديث عن مجراه ، فسألته : « وهل قد علم حمدان أخى أن عبدان هناك ؟ » ٠

فأجابها : « ما زال هذا سرا مكتوما عن حمدان وعن غيره ، ولا يعلمه سواك ٠ اعلمى يا راجية أن الذى يدور بينى وبينك الساعة سيبقى سرا مكتوما بيننا ، لا يعلمه حمدان ولا غيره أبدا » ٠ ٠

وما قامت راجية من عنده لتتفقد ولدى أخيها النائمين حتى ارتبط سرها بسره فأصبحا سرا واحدا !

وما هى الا بضعة أيام حتى التمس الشيخ من حمدان أن يأذن له بترك داره بعد ما برىء من علته ، ولكن حمدان ألح عليه أن يبقى مقيما عنده ، فاعتذر الشيخ قائلا : « لقد آن لى أن أظهر للناس ، فاذا بقيت عندك فسيتوافد الناس لزيارتى ، ولا آمن أن يكون فى ذلك مشقة عليك ومشغلة لك عن عملك »

فسأله حمدان : « ألم تقل لى انك مأمور بأن تقوم لاصلاح هذا البلد ؟ »

قال الشيخ : « بلى لقد أمرت أن أدعو أهله من الجهل الى العلم ، ومن الضلال الى الهدى ، ومن الشقاوة الى السعادة ، وأستنقذهم من ورطات الذل والفقر ، وأملكهم مالا يستغنون به من التعب والكد »

فقال حمدان : « فانى قد وهبت نفسى لخدمتك ، فقد لقيت بك القائد الذى طالما تمنيت أن أجده لاصلاح هذا البلد » ٠

فنظر اليه الشيخ مليا ، ثم قال له : « ان الامر يا حمدان لأخطر مما تظن ، وانى أخشى أن يلحقك فى هذا السبيل أذى كثير » ٠

قال حمدان : « فانى والله لا أبالى ما يصيبنى فى سبيل الخير ولو لقيت منيتى » ٠

فابتسم الشيخ حينئذ وقال له : « لقد صدق عبدان فيما وصفك به » ٠

ــ عبدان ؟

ــ نعم عبدان ابن عمك ٠

ــ أين لقيته يا سيدى الشيخ ؟ ٠ أهو حى يرزق ؟

ولم يشأ الشيخ أن يجيبه على سؤاله بل أخرج من بين ثيابه رسالة مختومة فدفعها اليه ، فلما فضها عرف فيها خط ابن عمه واذا فيها : ــ

« رسالتى هذه من سلمية يحملها اليك أخونا الشيخ حسين الاهوازى من دعاة الامام المعصوم الذى سيجرى الله على يده كل ما تصبو اليه نفسك ونفوس المخلصين من رفع الظلم وتحقيق العدل الشامل بين بنى البشر ٠ وقد أوصيته بك خيرا فأوصيك أن تأخذ بناصره وتؤيده فى نشر دعوته وانك لفاعل ان شاء الله ٠ وانى قد حدثته بكل ما يهمك أن تعرفه عنى منذ حللت واسط ثم انتقلت فى طلب العلم الى بغداد ثم استقر بى المقام فى سلمية ٠ أواه ما أشوقنى اليك يا حمدان والى سائر الاهل فعسى أن يتاح لى الرجوع اليكم قريبا حين يأذن لى نائب الامام والسلام » ٠

وظل حمدان بعد ذلك أياما وهو يتعجب من تصاريف القدر كيف دفعت بعبدان الى طلب العلم ببغداد ، وكيف وصلت أسبابه بأسباب الكرمانى أحد دعاة الامام المعصوم ٠ وكيف انتهت به الى سلمية حيث صار من فقهاء هذا المذهب الذى سينقذ الناس من الظلم وينشر بينهم العدل الشامل حتى يكونوا سواء ليس فيهم غنى ولا فقير ، وكيف كان عبدان هو الذى اقترح ارسال هذا الداعية الى هذه الناحية ٠

لم يؤمن حمدان بالامام المعصوم الذى يدعو اليه الاهوازى ولم يكلف نفسه عناء التثبت فى أمره ليتحقق وجوده أو عدم وجوده ٠ وانما آمن بالهدف الذى ترمى اليه هذه الدعوة الجديدة اذ كان هو هدفه من قبل ٠ هؤلاء قوم يدعون الى هدم سلطان المال على هدى وبصيرة ، ويسيرون فى ذلك على خطة عامة واسعة لا تقتصر على بلد دون بلد ٠ وقد أدركوا أن ذلك لا يتم لهم الا بهدم هذه الدولة التى يقوم عليها وتقوم عليه ٠ فليكونوا من يكونون وليكن مذهبهم

ما يكون فحسبه أنه سيعمل على تقويض سلطان المال وكفى .
وقد انضم قديما الى العيارين من أجل هذا الأمر فلن يكون العيارون خيرا من هؤلاء ولا أهدى سبيلا .

وكان الشيخ الاهوازى قد تردد طويلا فى اطلاع حمدان على حقيقة أمره أو كتمها عنه ، ورأى ألا يكتفى بما علم عنه من ابن عمه عبدان ، فظل يعجم عوده بنفسه حتى تبين له أن مصارحته بالحقيقة أجلب لمعاونته له وأكفل بتأييده للحركة .
ولم يقل اعجاب حمدان بالاهوازى ولاحبه له لما تحول عن عقيدة الصلاح والتقوى فيه بعدما كشف له حقيقته ، فقد رأى حمدان من بعد نظره وسعة حيلته وحسن تدبيره للامور وصدق فراسته فى الناس وعلمه بظواهر الحياة وبواطنها ما زاده اعجابا به وايمانا بنجاح دعوته وكلفا بتأييده ومناصرته .

وكان الناس فى قرية الدور وما حولها لا يزالون يتناقلون أخبار الشيخ الصالح ويروون خوارقه ، ويتذاكرون سر اختفائه من دكان صاحبه البقال ويترقبون عودته على ما حدثهم ذلك البقال . فلم يكد يتناهى اليهم أنه قد عاد وأنه نزل بدار حمدان قرمط حتى توافدوا عليه زرافات ووحدانا يتبركون به ويلتمسون منه الدعاء ، فكان يهش لهم ثم يعظهم ويزهدهم فى الدنيا ويرغبهم فى الآخرة .. وكان اذا صلى فى مسجد امتلأ المسجد بالناس ليستمعوا الى وعظه وتذكيره .

وكان حمدان يقوم مقام الحاجب له : يأذن للناس عليه اذا شاء ويمنعهم اذا شاء كما كان ابن السماك يسعى فى خدمته ويقوم بقضاء حاجته . ولم يكن فى اتصال الشيخ بحمدان ما يريب . فقد عرف أهل القرية ميل حمدان الى النسك والعبادة منذ رزىء بموت زوجته ، فلا غرو أن يختصه هذا الولى الصالح بمودته والقرب منه . واشتهر ابن السماك أيضا باغراقه فى حب الصالحين .

وانقطع حمدان أياما عن عمله لما شغله من خدمة الشيخ واستقباله الناس الذين يفدون اليه . وقد زادت نفقات بيته منذ أقام الشيخ فيه ، وليس له مورد آخر غير ما يكسبه من حمل الغلات على أثواره . فعزم على أن يكاشفه بأمره ويستأذنه للرجوع الى عمله ليتمكن من الانفاق على بيته . ولكن الشيخ سبقه فوضع بين يديه بدرتين من الذهب وقال له : « أنفق

من هذا المال ما تشاء يا حمدان فانه من مال الدعوة واذا نفد جئتك بغيره » ·

فلما أظهر حمدان تعجبه من وجود هذا المال عنده قال له ضاحكا : « لو كان ابن السماك فى مكانك لتركته يظن أن هذه كرامة منى ! » ·

قال له حمدان : « فمن أين جاءك ؟ » ·

فأخبره بأن هذا من مال الدعوة وأنه يستطيع أن يأخذ منه ما يحتاج اليه للانفاق عليها من كبار تجار اليهود أينما حل من البلاد ثم يرجع وكيلهم بسلمية على مركز الدعوة هنـــاك بالمال الذى أخذه الدعاة ·

فحرك حمدان رأسه من التعجب ثم قال له : « ومن أين لمركز الدعوة بهذا المال الكثير ؟ » · قال الشيخ « يأتيه ذلك من الدعاة فى الآفاق حين ينجحون فى دعوتهم ، ويكثرأتباعهم فيرسلون ما يجمعون من هؤلاء اليه » ·

ـ فكيف يرسلون المال الى المركز ؟

ـ ويلك يا حمدان · · · عن طريق هؤلاء اليهود أنفسهم يأخذه المركز من وكيلهم هناك ·

فدهش حمدان لهذه الطريقة العجيبة فى توريد المـــال واصداره بين الاصقاع المتباعدة ، وازداد ادراكا لخطر هـــذه الحركة وايمانا بنجاحها · ·

ـ ٥ ـ

وأخذ الشيخ يصطفى من الوافدين اليه من يتوسم فيهم الاستعداد للايمان بدعوته ممن يكثرون التردد عليه ، فيختلى بهم ويفضى اليهم بأنه يدعو الى امام من أهل البيت سيظهر وشيكا فيملأ الدنيا رخاء وعدلا وسلاما · ثم يتدرج فى الافضاء اليهم بأسرار الدعوة على قدر استجابتهم لها وثقته باخلاصـــهم فى الايمان بها ·

ثم اتخذ من هؤلاء الاتباع المخلصين له اثنى عشر نقيبا ، وجعل حمدان نقيب النقباء ، وأوصاهم جميعا أن يتجملوا بالصلاح والتقوى ويسيروا فى الناس سيرة حسنة · ثم وزعهم فى أنحاء تلك الجهة ليدعوا الناس الى المذهب بحكمـــة وتؤدة فيخاطبوا كل قوم على قدر عقولهم ودرجاتهم ، ويميلوا اليهم بسبب يوافقهم ، ولا يفضوا بسر الدعوة الا لمن يثقون

باخلاصه على أن يوصوه بكتمان السر تقية من السلطان ·
وقد قسم الناس لهم الى خاصة وعامة : فالخاصة هم الذين يفضى اليهم بسر الدعوة الى الامام المعصوم · وأما العامة : فحسب النقباء أن يدعوهم للدخول فى مذهب الشيخ ، ويخبروهم بأن الله قد فرض عليهم خمسين صلاة فى اليوم والليلة ، اذ لا تكفى الخمس الصلوات لتطهيرهم من ذنوبهم ورفع المظالم عنهم ، بعد ما ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس وقل الصالحون وكثر الطالحون · وأمر النقباء بأن يؤيدوا دعوتهم بالعمل فيقوموا بهذه الخمسين الصلاة ليكونوا قدوة صالحة لغيرهم · وأوصاهم أن يعملوا جهدهم لتحويل العامة ــ حين يثقون بهم ــ الى خاصة ·
ثم أمرهم بأن يأخذوا من كل واحد من الخاصة دينارا للامام فأسس بذلك صندوقا للدعوة ينفق منه عليها ، ويتألف به قلوب الاتباع والانصار ·
وكان حمدان قد راجع الشيخ فى بعض هذه الاوامر حين عزم على اصدارها خشية أن يكون فيها ما يشبط عن الدعوة ، ويحول دون اقبال الناس عليها · فكان الشيخ يقبل مناقشته بصدر رحب ، ثم يشرح له ما يرمى بها اليه من الاغراض التى تقوى الدعوة وتعززها · فقد قال له حمدان يوما : « انى أخشى أن ينفض الناس من حولنا حين نفرض عليهم خمسين صلاة » · فقال الشيخ : « كلا يا حمدان ، ان العامة تميل الى الغلو فى الدين والاغراق فى اتباعه اذ يجدون فيه شفاء لصدورهم وتخفيفا لما تنوء به ضمائرهم من ثقل الخطايا والآثام · ولما آنس من حمدان قلة الاقتناع بهذا القول قال له: سترى بنفسك وشيكا صدق ما أقول ·
ولم يطل بحمدان الانتظار حتى رأى بعينيه مصداق ما تنبأ به صاحبه الداعية فى خلال أشهر معدودة · فقد انتشرت الدعوة فى جميع قرى الناحية ودساكرها حتى غمرت مدينة الكوفة نفسها فكان لها فيها سلطان عظيم · وظهر له أن أشد الاتباع ايمانا بها وتحمسا لها هم أولئك الذين دفعوا دينار الامام · وأدهشه أن معظم الفلاحين والأجراء فى السواد وفى البطائح قد تقبلوا الخمسين الصلاة بقبول حسن وصاروا يواظبون عليها حتى كان فيهم كثير من الذين كانوا يتركون

الصلاة حين كانت خمسا قد أصبحوا يصلونها خمسين .

وكذلك انتشرت هذه الصلاة الجديدة بين العمال والصناع في مدينة الكوفة وقرية الدور وغيرها من القرى ، فكان أحدهم لا يكاد يبدأ في عمله حتى يقطعه ليقوم بصلاته ، ثم يستأنفه بعدها ولا يلبث أن يقطعه ليقوم بصلاة أخرى وهكذا . فاذا روجع في ذلك قال : « أتريدون أن تمنعوني من القيام بفرضي ؟ » فاذا قيل له « انما هي خمس صلوات » قال : « والله ما جعلها كذلك الا أنتم رجاء أن نقوم لكم بعمل أكثر . ان لله علينا حقا ولكم حقا فلنعط كل ذي حق حقه » .

وكان قد ولي الكوفة اذ ذاك وال جديد يدعى أحمد بن محمد الطائي وكان لا يزال قليل الخبرة بشئون تلك الناحية ، ولما تقو أواصره بأهلها ولم يفد منهم شيئا مما يطمع فيه من المال بعد ، فلما رفع اليه عامل قرية الدور خبر هذه الطائفة التي اجتمعت على الشيخ الاهوازي وازدياد خطرها وما قد ينجم عنها من القلاقل والفتن رآها فرصة سانحة ، فبعث رسولا من قبله الى الشيخ يتوعده بالقبض عليه اذا لم يكف عن دعوته .

وأدرك الشيخ ما أراده الوالي ، فأوعز الى حمدان فانطلق سرا الى الكوفة حيث قابل واليها فاتفق معه على مال يدفعه له ثمنا لسكوته . وكان هذا أول مال وقع في يده منذ ولي أمر الناحية ففرح به فرحا عظيما وحفظها يدا لحمدان عليه .

وكان ملاك الارض وأصحاب العمل قد تضايقوا من تقصير فلاحيهم وأجرائهم في العمل لما شغلوا به من الخمسين الصلاة ، ولم يقدروا أن يردعوهم عن ذلك التقصير اذ انعقد اجماعهم على ذلك في كل ناحية . وقد انبعثت فيهم روح جديدة ، فصاروا يشعرون بقوتهم وتظاهرهم ، ولا يخشون أن يغلظوا الرد لمن أنكر عليهم مذهبهم ولو كان مالك الارض نفسه أو سيد العمل . واذا أريد عقاب أحدهم بالضرب ، هب الآخرون فذبوا عنه . واذا عوقب بقطع أجره أو انقاصه جمعوا له من عندهم ما يعوضه . واذا طرد من عمله تكفل الباقون بسد حاجته وامتنعوا عن سد مكانه .

فلما بعل هؤلاء بهذا الحال رفعوا شكاواهم الى الوالي ، فكان يقول لهم : « لا شأن لي بما بينكم وبين فلاحيكم

وأجرائكم . فتراضوا فيما بينكم ، فان عجزتم فاستغنوا عنهم واستعملوا قوما آخرين » . فاذا قالوا له : « فلن نجد من يفلح أرضنا أو نأجره لعملنا » . قال لهم : « سبحان الله فافعلوا ما ترونه أصلح لحالكم » . حتى ركب اليه الهيصم يوما فى جماعة من حاشيته ــ وكان كبير ملاك الارض فى تلك الناحية غير منازع منذ خلا مكان منافسه ابن الحطيم فرحب به الوالى ولاطفه . فلماكلمه الهيصم فى أمر فلاحيه قال له : « قد جاء غيرك من الملاك فشكوا ذلك الى ، فنصحتهم بالتراضى فيما بينهم وبين فلاحيهم وأجرائهم ، وانك بما وهبك الله من وفر فى المال وسعة فى الاملاك لاقدر منهم جميعا على ارضاء من جعلهم الله تحت يدك » .

فعبس الهيصم وقال له : « انى ماجئت لاستعين بك على هؤلاء بل لتقبض على هذا الدجال الذى جاءنا من الاهواز فنشر فينا هذه الفتنة » . فأجابه الوالى : « كيف تدعونى أن أوذى رجلا صالحا يدعو الناس الى الزهد والتقوى والصلاح ؟ » .

ــ فقد بدل فى الدين اذ فرض على اتباعه خمسين صلاة آ

ــ ما أخاله فعل ما تقول . ومبلغ علمى به انه دعاهم الى الاكثار من الصلاة النافلة ، فاذا ما ظن بعضهم انه فرضها عليهم فذلك من غلو العامة ، فلا يؤاخذ هو عليه » .

فقام الهيصم من عنده مغضبا وهو يقول : « والله لئن لم تحبسه وتحم الناس من فتنته لاقومنَّ بهذا الواجب عنك »

فنهض له الوالى واخذ بيده متلطفا وهو يقول : « انك ياسيدى لتعلم ان ليس ذلك من حقك الا أن أتجاوز لك عنه » .

وغمز له جفنه عند ذلك ، ففهم الهيصم قصده فتبلج الرضا فى وجهه وتناجيا قليلا ، ثم ودعه الوالى وهو يقول : « لقد خشيت والله أن يخرج كريم مثلك من عندى وهو عنى غير راض »

بث الهيصم عقب ذلك عيونه ، فأخذوا يستطلعون له حركات الشيخ الاهوازى وحمدان ، فرأوا الشيخ ذات ليلة قد دخل دار حمدان قرمط وانصرف عنه أتباعه ليأوى الى فراشه وعلموا أن حمدان كان غائبا تلك الليلة عن قرية الدور فنقلوا ذلك الى الهيصم ، فأرسل جماعة من رجاله الاشداء مدججين بالسلاح فتقدم أحدهم فقرع باب الدار قرعا لطيفا ، فلما سئل : من ؟ قال أنا رسول من حمدان . ولم يكد يفتح الباب حتى اقتحمه

الرجال • فهمت راجية أن تصيح فأسرع احدهم فضمها وسد فمها ومنعها من الحركة ، وانطلق الاخرون فى الدار فرأوا باب حجرة يغلق فدفعوه ، واذا هم بالشيخ الاهوازى وهو يحاول الفرار من شباك الحجرة ، فوثبوا عليه وجروه من الشباك واذا هو فى لبسة المتفضل وقد رجل شعره وضمخه بالطيب وبدا لعينهم فى هيئة جميلة حتى كادوا يشكون أنه هو ، فعصبوا فمه وشدوه وثاقا ، ثم حملوه وانطلقوا به من الدار ، وبقيت راجية فى قبضة الرجل حتى قدر انهم قد ابتعدوا بالشيخ عن الدار فأطلقها حينئذ ولاذ بالفرار •

ولما جيء بالاهوازى الى قصر الهيصم قال له الهيصم : «من يحميك الآن منى » • فقال الشيخ : « انك لن تقدر على وسيخلصنى الله من يدك » •

ــ والله لأقتلنك فأرضين الله بقتلك •

ــ لئن حاولت ذلك فليعلمن أتباعى وليضرمنها نارا عليك وعلى قصورك وأملاكك •

فأثر هذا القول فى الهيصم ودفعه الى التروية فى أمره ، فأمر به فسيق الى مخدع فى القصر فحبسه وأقفل عليه الباب وحفظ المفتاح معه •

واصابه فى تلك الليلة أرق فلم يقدر أن ينام ، فقام من فراشه ، وأمر بعض جواريه فجلسن له يسقينه ويغنينه وكان بينهن جارية فارسية حبيبة الى قلبه يفضلها على من سواها ، فأخذت تواليه بأقداح الشراب الصرف حتى ثقل فقامت به الى مخدعه وهو لايكاد يعى شيئا ، فما وضع رأسه على وسادته حتى نام • وانتظرت قليلا حتى هدأ من فى القصر فسحبت المفتاح من تحت وسادته وتسللت الى حيث حبس الاهوازى ففتحت الباب له وقالت : « انى من المؤمنات بك وقد جئت لانقذك فهلم فاتبعنى أخرج بك من باب الحريم حيث لايراك أحد»

ــ ألا تخشين أن يعاقبك مولاك ؟

ــ لن يعلم أننى أطلقتك فقد سرقت المفتاح من تحت وسادته وسأرده حيث كان •

ــ الحمد لله لقد علمت أنه سيخلصنى ، وقد أراد لك الخير اذ جعل خلاصى على يديك •

وكان الهيصم قد أمر رجاله أن يكتموا عن الناس نبأقبضه

على الشيخ خشية أن يثور أتباعه له • بيد أنه ماكاد يضحى النهار حتى انتشر الخبر في أتباع الشيخ ، اذ كان حمدان قد عاد آخر الليل فروت له أخته ماحدث فعلم من وصفها لاولئك الرجال أنهم من رجال الهيصم ، فأطار النبأ بذلك الى أصحابه وأمرهم بالاستعداد حتى يأتيهم أمره فيثوروا لشيخهم ثورةرجل واحد • وانهم لكذلك اذ تناهى اليهم أن الهيصم قد فتحالباب على شيخهم عند الصباح ليقتله فوجده قد اختفى ، ففرحوا لهذه الكرامة واشاعوها في الناس وقالوا انه رفـــع ، ففتن بذلك خلائق كثيرون فدخلوا في مذهبه أفواجا •

وبعد أيام ظهر الشيخ عند احد نقبائه في البطائح حيث بعث الى حمدان سرا والى بعض نقبائه الاخرين ليوافوه هناك ، فلما اجتمع بهم قال لهم : « اني راجع الى الامام وقد تركت فيكم حمدان ليتولى تدبير دعوتكم فاسمعوا له وأطيعوا لامره » •

وأدرك حمدان بعد رحيل الشيخ أن الهيصم لن يهدأ له بال حتى يقبض عليه كما قبض على الشيخ من قبل • فأخذ لذلك حذره وحاط نفسه بحراسة قوية من أتباعه واتخذ له عيونا يراقبون له حركات الهيصم كيلا يؤخذ على غرة •

– ٦ –

وأظهر حمدان نشاطا عظيما في تقوية الدعوة وتنظيم شئونها ، والاشراف على أعمال النقباء والفروع التابعة لهم يكثر التنقل بينها ويقضي اوقاته في عمل متواصل ، فكان لذلك كثير التغيب عن بيته ، فأوصى صاحبه ابن السماك البقال بتعهد أخته وولديه والقيام بشئونهم وقضاء حوائجهم ، فكان يؤدي واجبه بأمانة واخلاص •

بيد أن راجية كانت تظهر التذمر والاكتئاب منذ سفر الشيخ الاهوازى ولا تكاد ترضى عن شيء ، فاذا عرج حمدان على البيت ليتفقدها ويتفقد ولديه أطلقت لسانها في الشيخ تلومه وتلقي عليه التبعة فيما نابهم من الشتات والاضطراب • وتقول في ذلك : « كيف يتركنا هكذا بعد أن أحدث لنا هذه المتاعب ؟ كيف يتخلى عنا بعد أن أورطنا في هذه المحنة ؟ ان هذا لجبن منه ونذالة » • فيهدئها حمدان ويقول لها : « لاحق لك ياراجية أن تسبي الشيخ فانه ماسافر الا حين وثق بأنني سأقوم بالدعوة مكانه خير قيام » •

وكان حمدان يعجب لحنقها الشديد على الشيخ ، ذلك الحنق الذى يزيد على مر الايام شدة • ولكنه لم يحمل ذلك الا محمل الشفقة منها على أخيها والتألم لما يكابده من متاعب الاضطلاع بشئون الدعوة وكثرة غيابه عن البيت حتى كانت لاتراه الانادرا

وكان حمدان يعلل نفسه بأن فى مجىء عبدان اذا جاء لعونه كما وعده الشيخ بذلك ما يحمل عنه بعض العبء وما يؤنس من وحشتها ويخفف من ألمها • فكان يترقب قدومه يوما بعد يوم •

وما أن جاء البشير بمقدمه حتى خف لاستقباله ، وفرح به فرحا مضاعفا من أجل الدعوة ومن أجل نفسه ومن أجل راجية فاحتفل بمقدمه احتفالا عظيما دعا اليه نقباءه ووجوه أتباعه ليعرفهم بابن عمه فقيه الدعوة ومبعوث امامها • ثم قضى معه أياما يتباثان الشوق ويتقاصان ماجرى لهما من الحوادث منذ افترقا حتى جمع الله شملهما على هذه الدعوة العظيمة •

ولم يجىء عبدان وحده بل قدم معه بحبيبته شهر الاهوازية فأنزلهما حمدان الحجرة التى كان يسكنها الشيخ فى منزله • أما راجية فقد أظهرت الفرح والانتعاش لمقدم ابن عمها والمرأة التى معه بضعة أيام ما لبثت بعدها أن عادت الى كآبتها وحنقها فظن حمدان ان ذلك انما نشأ من غيرتها على ابن عمها من تلك الاهوازية الجميلة التى معه فود فى نفسه لو أن عبدان جاء وحده ، اذا لكان حرى أن يتزوج راجية فيؤدم بينهما •

وكان عبدان لايألو جهدا فى ملاطفتها حتى أمام صاحبته فكانت راجية تعجب لذلك التبدل الكبير فى موقفه منها بعد ذلك النفور الذى كان يظهره لها من قبل ، ولكن ذلك لايزيدها الا نفورا من حديثه وتوقيا للجلوس معه ، معتلة فى ذلك حينا بالشغل وحينا بالمرض •

وكانت شهر تجتهد فى خطب مودتها واجتذاب قلبها اليها بمختلف الوسائل ، وكان لها من طبعها السمح وحنانها المطبوع مايواتيها فى ذلك • حتى ان الغيث وفاختة سرعان ما أحباها وتعلقا بها لصباحة وجهها ولطف حديثها وحلاوة معشرها ولكنها لاترى من راجية الا مودة تتصنعها تصنعا • فظنت ذلك من أثر الغيرة فى اول الامر ، ثم شكت فى صدق ظنها لما رأت من هذه الفتاة أمورا تدعوها الى الشك والارتياب فوقع فى خاطرها أن لها سرا تكتمه عن الناس • فعليها أن تراقبها

حتى ينكشف لها هذا السر .
ثم اكثرت راجية من اغلاق بابها عليها وملازمة فراشها لاتقوم عنه الا لحاجتها، وكانت تنفر ممن يدنومنها لخدمتها أوللسؤال عنها ، فازدادت حيرة حمدان في أمرها ، ولكن مشاغله الجمة لم تدع له فراغا من الوقت ليضيعه في الاهتمام بها أكثر مما فعل فوكل أمر معالجتها الى شهر ومضى هو في استئناف أعماله التي لا آخر لها ، ولا سيما بعد أن وجد من عبدان مددا عظيما من المشورة والتوجيه يقتضي منه مضاعفة جده ونشاطه .
وظلت شهر تتودد لراجية ، وتبسط لها حنانها وعطفها ، وتبالغ في خدمتها ، وتتلطف في سؤالها عن خطبها وتقول لها: « انني أختك فأفضي الى بما يشغل بالك لعلي أستطيع أن أجد لك منه مخرجا » فكانت راجية تصدها بكلام غليظ وتقول لها « ويلك ما أشد مكرك . أتريدين أن تستدرجيني لاقول لك شيئا تطعنين به في حقي ؟ ان كنت تخشين أن ينصرف ابن عمي عنك الى فاطمئني فاني لا أريده ولا هو يريدني ! » فتضحك شهر من قولها ، فتثور راجية في وجهها وتقول لها : « تضحكين ويلك لانك أجمل مني فيما ترى عينك . فماذا يدعوك الى الغيرة من فتاة قبيحة مثلي ؟ آه لو كانت عالية بيننا لجرعتك الغصص »
فتقول لها شهر دون أن يتغير من لطفها شيء : « والله اني ماأراك الا جميلة رائعة . ولقد حدثني عبدان عن أختك عالية وما أراها تفضلك بشيء ليس عندك مايقابله ، ولو حضرتنا الان ورأت ماانت فيه من هذا الهم الشاغل لما عطفت عليك أكثر من عطفي ، فافتحي لي قلبك ياراجية ، فستجدين من قلبي كل خير ، وستندمين على ماأسأت الظن بأخت لك لم تلدها أمك !»
فلما سمعت راجية هذا القول منها دست وجهها تحت وسادتها وطفقت تبكي بكاء مرا ، فأدركت شهر أن هذا أول الوهن ، وان الفتاة قد أوشك عصيهاأن يلين ، فجعلت تواسيها وتحنو عليها وتمسح من عينيها الدموع وما زالت بها حتى احتضنتها راجية بين ذراعيها فأفضت اليها بسرها .
ولم تدهش شهر لما سمعت . فقد رأت من الدلائل منذ بدأت تجتهد في ملاحظتها ماجعلها تعتقد أن السر الذي تكتمه الفتاة ان هو الا جنين يضطرب في أحشائها تريد أن تخفيه في ظلامها ويأبى الا أن يأخذ سبيله في النمو حتى يشهد نور الحياة

وتذكرت أن الحسين الاهوازى كان قد اوصاها بأخت حمدان خيرا ثم كرر لها ذلك وهو يودعها في سلمية بالشام ، فأدركت الان انه كان يعني هذا السر الذى خلفه مطويا فى صدر هذه الفتاة المؤمنة ، الى جانب سر الدعوة التى بثها فى صدور الالاف من أتباعه المؤمنين !

وطرق حمدان باب داره في ليلة مطيرة للرعد فيها هزيم وللبرق فيها وميض والمزن يهطل كأفواه القرب ، وقد ابتلت ثيابه وثقلت نعلاه بالوحل ، فما فتح الباب حتى ولجه انسلالا ونظر فاذا شهر تستقبله كالبدر وعليها غلالة بيضاء رقيقة لا تكاد تخفي من أسرار قوامها شيئا ، ولولا اختلاف بياض غلالتها عن بياض بشرتها لظنها جسدا بلا غلالة أو غلالة بلا جسد .

فلما رآها كذلك انفتل عنها وأسرع الى حجرته ، فلما دخلها تذكر أنه نسى فلم يحيها بكلمة ، ولم يسألها عن عبدان أو راجية ، فشعر بخطئه وأسف ، ولكنه ما لبث أن رآها تدخل حجرته وبيدها مصباح مضىء فتضعه على ركن منها ثم تقبل عليه فلا يدرى هو أيهما أضوأ أذلك المصباح أم هذا الوجه . وأراد أن يستدرك ما فاته من تحيتها فالتفت اليها فرأى منظرا عقد لسانه : منظرها قائمة أمامه ومن خلفها المصباح يتسرب نوره من خلالها . فطفق يغض بصره متحايدا عنها ولكن الفتنة أخذت تغزو قلبه من خلال سمعه وأنفه اذ دنت منه حتى أفغم رداعها خياشيمه ، وسمعها وهو فى غمرة السكر تقول له بصوت كموسيقى الليل « ألا تخلع ثيابك المبتلة لأكسوك ثيابا أخرى ؟ »

فقال لها متلعثما : « شكرا لك يا شهر ، ان من عادتي أن أفعل ذلك بنفسى » .

فتضاحكت قائلة : « هل بقيت لك من عادة يا قائد الدعوة ؟ » .

فشك حمدان في معنى كلامها وخشى أن يجيبها فيخطىء قصدها فضرب عنه صفحا وقال لها : أين عبدان ؟

ـ هو فى حجرته يؤلف فى كتابه الجديد .

ـ لعله أوشك أن يتمه ؟

ـ لا أدرى ، ما سألته عن ذلك .

ـ وراجية كيف حالها ؟
ـ ويحها ، ما تزال عليلة يا حمدان . هى الآن نائمة فى فراشها وقد دثرتها من القر .
ـ والغيث وفاختة ؟
ـ قد أنمتهما من أول الليل .
ـ بارك الله فيك يا شهر ، انك والله لطيبة .
ـ لا تطرنى فما عرفتنى بعد .
ـ حسبى ما صنعت لأختى ولولدى .
ـ ولكنى ما صنعت لك شيئا !
ـ ما تصنعى من خير لهؤلاء فهو لى .
فابتسمت وقالت وهى تغادر الحجرة « لا تنس يا قائد الدعوة أن تغير ثيابك . هل أخبر عبدان بمقدمك ؟ »
ـ افعلى ان شئت وقولى له انى أريد أن أراه فان شاء جئته وان شاء جاء الى .

ـ ٧ ـ

وما كاد حمدان ينتهى من تغيير ملابسه حتى أقبل عبدان ، فتبادلا التحية ثم جلسا على الحصير واستندا الى الفراش المطوى يتقيان به رطوبة الجدار وخشونته . فأخذا يتحدثان فى شئون الدعوة وأنبائها الجديدة فقص عليه حمدان ما أنجزه من الاعمال فى طوفته تلك ، وما زاره من البقاع وما رأى فيهـا من سير الحركة وأحوال الاتباع .
وتثاءب حمدان وقد نهكه الجهد والتعب فقال : « لعن الله النوم فانه يعطل الحركة » .
فقال عبدان : « لو تذكرت أنه ملاذ الفلاح المكدود والعامل المجهد لما لعنته ياحمدان ؟ » .
فقال حمدان وهو يتثاءب : « اى والله لقد صدقت » .
ـ انى لاراك مجهدا ياحمدان فهل لك فى أختك شهر تدهن لك أطرافك وتدلك جسمك لتنام نومة طيبة فتهب غداموفور النشاط
فطار النعاس من عين حمدان ولم يكد يصدق ما سمع ولكنه استمسك بهدوئه فقال له : « لا وأشكرك يا أخى . مابى من حاجة الى ذلك » .
ـ بل أنت أحوج الناس الى من يرفه عنك ولن تجد أطب بذلك من شهر .

ـ لاياعبدان لاأريد أن أتعبها ، فحسبها ماتقوم به لولدى ولراجية ٠

ـ كلا بل سيسرها أن تقوم بخدمتك ، فقد وهبت نفسها المدعوة ولن تجد أحق بخدمتها منك ٠ وأسرع عبدان فبرح الحجرة قبل أن يهتدى حمدان الى جواب يرد به عليه ٠

وما كاد الفجر يطلع من الغد حتى كان حمدان قد خرج من مغتسله ولبس ثيابه فوجد عبدان وصاحبته لما يقوما من منامهما ٠ ودخل حجرة أخته وولديه فألفاهم نياما بعد ، فسره أن وجد أهل الدار كذلك ، واعتذر لنفسه بأنه لا يشاء ازعاجهم فترك الدار منسلا ومضى ٠

وكانت راجية تزداد قلقا كل يوم وتشعر بأن الجنين الذى فى بطنها ان هو الا عين من عيون حمدان ما زال يتقصى النبأ العظيم من شتى وجوهه ويجمع مختلف أسانيده وأدلته ليفجأ به حمدان يوما كامل البينة واضح البرهان ٠ فاشتد الحاحها على شهر أن تعجل بما وعدت من حل مشكلها ، فكانت شهر تعللها بأنها وعبدان قد مضيا فى هذا السبيل وقد قطعا الاشواط الاولى فيه بنجاح وما بقى الا أن يعود حمدان ليقطعا معه الشوط الاخير ٠

ـ ٨ ـ

ولما عاد حمدان بعد غيبة عشرين يوما أو أكثر جعل يفيض لأهله فى شرح الاسباب التى اضطرته الى طول الغياب ٠ وقد خيل اليه أنهم يرتابون فى صدق ما يقول فطفق يعززه بألفاظ التوكيد ٠ فلولا أن عبدان وصاحبته كانا على علم بما يدفعه الى ذلك لعجبا من أمره ٠ وحينما دخل على أخته راعه ما هى عليه من هزال الجسم وشحوب الوجه وشعر نحوها بفيض من العطف والرثاء فجعل يواسيها ويطيب خاطرها ٠ وهم أن يرفعها ليجلسها ويميط عنها اللحاف ليريحها قليلا من ضغطه ، فاعترضته شهر وحالت دون ذلك وهى تقول : « لا تفعل فان الحركة تضرها والهواء يزيد من علتها ودعها هكذا فهى مرتاحة »

ونظر حمدان الى عينى شهر فأدرك أن أمرهما لا يرد وألا قبل له بمراجعته بله عصيانه ٠ فقال لها : « هذى العليلة وأنت الطبيبة فدبرى أمرها كما تشائين ، وما أنا بينكما الا واغل » ٠

وخلا به عبدان فقال له فيما قال : « كيف وجدت شهرا ليلة كلفتها بخدمتك فانى ما رأيتك فى صباحها لأسألك ؟ »

فقال حمدان : « أجل ، ما أردت ازعاجك اذ وجدتك نائما بعد » .

– لا ريب أنك أصبحت يومها نشيطا اذ غدوت والطير فى وكناتها !

– نعم قد كان ذلك .

– بفضل شهر ؟

– لا أستطيع أن أجحد فضلها فانها بركة على أهل البيت كلهم .

– فاياك أن تتحرج بعد مما يبيحه لك المذهب . كن حر العقل يا حمدان ولا تكن أسير العادة والوهم واذكر دائما أنك قائد الدعوة .

– ان كان هذا يسرك منى فسأكون بحيث تحب .

– أفأخبرك الآن بما كتمه عنك الحسين الاهوازى ؟

– ماذا كتم عنى ؟

– أخشى ان أنا أخبرتك يا حمدان أن يغلبك داؤك القديم فتثور غضبا على من حولك .

– كلا لقد شفيت منه .

– فسأمتحنك لأعرف مبلغ شفائك : ماذا تفعل لو بلغك مثلا أن راجية قد مسها ضيف عندك دون علمك ؟

فثار الغضب فى وجه حمدان وقال : « ويلك يا ابن أم عبدان كيف تجرؤ أن تقول هذا فى ابنة عمك ؟ »

– لا تنس أننى أمتحنك فهأنتذا قد سقطت فى الامتحان من أول مسألة .

– ولكن أختى لا ينبغى أن تكون موضعا لمثل هذا السؤال .

– فيم يا حمدان ؟ أليست هى مؤمنة بالمذهب مثلك لها فى الاستمتاع بما يحله المذهب مثل حقك ؟

– أنظر فيما تقول يا عبدان فانه قول عظيم .

– لا فرق بين حالك وحالها الا أن فعل العادة والوهم فى حالها أشد وأقوى ، واعلم أن عامة الناس لا يحتكمون الى العقل فى شئونهم وانما يخضعون لوساوس المعشر الذى يعيشون فيه ، حتى يشذ أحدهم عن معشره فيدعو من حوله الى استعمال

عقولهم فيما يأتون وما يدعون ، ألا ترى يا حمدان أن ألوفا من الفلاحين فى هذه الناحية قد ظلموا كما ظلمت فما ثار أحد منهم على الظلم لأن سلطان المعشر كان يخلد بهم الى الخنوع والسكوت ، الى أن شـذذت أنت عنهم فثرت على الظلم ثم استصرختهم فثاروا معك • فانما أطلقتهم من أسر العادة ومن سلطان المعشر فأسمعتهم صوت العقل ، فكذلك أمر الغيرة على الحريم لا يختلف فى شىء عن أمر الخنوع للظلم ، كلاهما أساسه حكم العادة وسلطان المعشر • وبعد فهل بلغت منك حـد الاقتناع بهذا القدر من القول ؟

ـ سأنزل على رأيك فى كل ما تشاء يا عبدان الا أن تدعونى ألا أغار على أختى •

ـ اذا فما أقنعتك بعد بشىء !

ـ أما هذا فلا سبيل اليه •

ـ فلا سبيل الى المذهب اذن أن تخالط بشاشته قلبك !

ـ عجبا أفهذا ركن فى المذهب لا يتم المذهب بدونه ؟

ـ نعم : انك لتعلم أن أساس مذهبنا العدل الشـامل ، وليس من العدل ألا تبيح لأختك ما استبحت لنفسك !

فتضعضع حمدان اذ أدرك ماقصد ابن عمه وأصابه خجل شديد

ـ يؤسفنى يا عبدان أنك كنت السبب فيما وقع فقد قلت لك اننى أخشى الفتنة فما أبهت لقولى وأبيت الا أن تمهـد لى سبيلها •

ـ لقد هيأت لك سبيلها اذ لا أرى بها بأسا • فما ظنك برجل هيأ لأخته سبيل الفتنة وهو يزعم أنها اثم كبير ثم يلقى تبعة ذلك على أخته المسكينة ؟

ـ من تعنى ويلك ؟

ـ أعنى رجلا يدعى حمدان قرمط !

فانتفض حمدان انتفاضة شديدة وقال بصوت يرتجف : « ويلك ، وضح ما تقول »

ـ قد وضحت •

ـ ولكنى لم أفهم !

ـ املك نفسك أما تذكر الحسين الاهوازى ؟

ـ ما باله ؟ ماذا صنع ؟ قل • • عجل !

ـ ألست أنت الذى دعوته للنزول عندك ؟

ـ بلى ·
ـ أفما كنت تدعه وحده في الدار مع راجية ؟
ـ ويله هل ··· ؟
ـ نعم ·
ـ فهي الآن ··· ؟
ـ نعم هو ذاك
ـ ويل للفاجر ! والله لئن قذيت عيني بظله لأقتلنه ؟
ـ استجب لصوت العقل يا حمدان وافقه ما أقول ! أرأيتك لو قام الأهوازي الى طعام في الدار فأكله في مغيبك أكنت تثور عليه ؟
ـ ويلك أين هذا من ذاك ؟
ـ فهو لا يفرق بينهما في مذهبه ·
ـ ويلك أفي المذهب أن يغتصب أخت امرىء أنزله في بيته وائتمنه على أهله ؟
ـ حاشا لمثله أن يغتصبها ؟

فاعتدل حمدان في مجلسه كمن انتبه من غفوة ثم استوى قائما وهو يقول : « ويلها أفقد كان ذلك برضاها ؟ ويل للفاجرة ! »

وعرف عبدان الشر في عينيه فنهض الى باب الحجرة مسرعا ثم وقف دونه فتقابل الرجلان : هـذا عالي الهامة ، عريض الأكتاف ، قوي التجاليد ، تقدح عيناه الحمراوان شررا ، وهذا متوسط القامة ، قليل الجسم معروق الوجه ، تفيض عيناه الغائرتان توسلا ورجاء ·

قال عبدان : « ما أنا بمانعك مما تريد ، فلو شئت يا ابن عمي أن تقتلني بيد واحدة فتقذف بي الارض لفعلت · ولكني أدعوك بحق العقيدة التي جمعتنا على كره الظلم وحب العدل وبحق القرابة والرحم الا ما تريثت حتى تسمع لقولي ، ثم افعل بعد ذلك ما بدا لك » ·

ـ ماذا تريد أن تقول بعد ؟
ـ ماذا كنت ناويا أن تفعل ؟
ـ أن أطهرها بدمها ·
ـ فهل قدرت أن هذا قد يفقدك ثقة الامام بك ، فيعوقك عن العمل العظيم الذي ندبك الله اليه لاصلاح هذا البلد وانقاذ

أهله من الظلم ؟
سكت حمدان ولم يجب ، فأخذ عبدان بيده فقاده حتى أعاده الى مجلسه ثم قال له : « كأني بك قد رجعت الى صوابك يا حمدان فحمدا لله » •
فتنهد حمدان وقال : « أحسبت أنك قد أقنعتني بما قلت ؟ كلا والله ما برح في نفسي منه شيء •
ــ فهذا أول العافية لا ريب • لقد وقع لى مثل هذا الحــال أول ماشدوت المذهب ثم زال عنى كما سيزول عنك لا محالة •
ورأى عبدان أن ابن عمه مشغول بأفكاره عن الاصغاء الى حديثه فقال له :
« ألا تحب أن تسمع قصتي مع شهر ؟ »
فظهر على حمدان النشاط والاهتمام وقال : « بلى ، روح عنى بها ان شئت فاني كما ترى مشترك اللب أسيف » •
فاعتدل في مجلسه وقال : « لما توثقت الصــلة بيني وبين الكرماني ببغداد فصرت أتردد على منزله ، أدخل شهرا على ذاته يومفعرفني بهاوقدمها لىزاعما أنها أخته • ثم ما لبثت أنأحببتها وأحبتني فأذن لنا فتعاشرنا وبقينا كذلك حتي كان هربنا من بغداد • فلما صرنا الى سلمية بالشام أنزلنا الكرماني في داره هناك فعشنا جميعا مع أهله وما أعلم الا أنها أخته كما زعم لى لا يخالطني في ذلك أي ريب • حتى بصرت به معها ذات ليلة على حال لا يتفق مع زعمه ، فغشيني من الهم ما غشيني ، وأعماني الغضب فوثبت عليه بخنجري لأقتله ، فما كان منه الا أن جذب الخنجر من يدي • وكان أقوى مني فحسبت أنه قاتلي ، ولكنه أخذني معه الى حجرة أخرى فجعل يهدئنيويشرح لي الحقيقة فاذا هي خليلته • وقال انه ما كذبني ولا خدعني اذ زعم لي أنها أخته ، فهي أخته في المذهب ، واذا لم يرضني ذلك وأبيت الا أن أعاشر أخته حقيقة فلا مانع عنده من ذلك ثم جاء بأختيه وقال لي : « هاتان أختاى لأبي وأمي فاختر منهما من تشاء » فوقع ذلك من نفسي وندمت على ما كان مني في حقه ، فكان ذلك آخر عهدي بما بقي في نفسي من قيود العادة والوهم»
وسكت قليلا ثم قال : « وأرجو أن يكون هذا آخر عهدك أيضا بما بقي عندك من ذلك » •
وقرع باب الحجرة عند ذاك ، فقام عبدان ففتحه فاذا شهر

تبتسم وتقول : « أغلقتما الباب عليكما فليت شعرى ماذا كنتما تصنعان ؟ » .

فقال عبدان : « كنت حبست الاسد فى القفص الحديد حتى رقيته وروضته ، فبشرى راجية بألا خوف عليها الآن منه ولا هى تحزن » .

فاستضحكت قائلة : « تبا لك يا عبدان . ما زدت على أن كففت أذاه عن راجية لتغريه بافتراسى ! »

— ٩ —

جرت الحياة بعد ذلك فى دار حمدان هينة لينة على خير ما يرتضيه مذهب العدل الشامل . ولما جاءت راجية بمولود ذكر قرت به عينا وفرح أهل الدار جميعا بهذا المؤمن الصغير . وتشاوروا فى اختيار اسم له فأبت أمه الا أن تدعوه ثمامة . فلما راجعها حمدان وعبدان فى ذلك وقالا لها : انه اسم بغيض اليهما ، قالت لهما : « ولكنه حبيب الى قلبى » . فكان لها ما أرادت . وكانت تقول اذا قيل لها فى ذلك : « قولوا فى ثمامة ما شئتم فلن أنسى أبدا أنه كان أول خاطب خطبنى من أهلى وأول رجل سمعت من لسانه حلو الغزل ! » .

وكانت تلك أزمة من أعظم الازمات النفسية التى امتحن بها حمدان فى حياته الحافلة بالاحداث . وقد اجتازها بسلام كما اجتاز أخوات لها من قبل . فاعتدل طبعه وراق مزاجه وتبدل حاله من الكآبة الى البهجة ، ومن الزماتة الى شىء من الطلاقة ، وأشرق وجهه وتورد خداه وتفيض بالنشاط والقوة اهابه حتى كأنما رد اليه شطر من شبابه .

وكان مما يضاعف سروره بهذه الحال الجديدة شعوره بأنه اليوم أقدر على الاضطلاع بأعباء الدعوة وأقوى على احتمال تبعاتها وأمضى فى اقتحام أخطارها وتوسيع أقطارها والاستعداد لمنازلة خصومها وحماية أنصارها .

انه لينظر الى الافق البعيد فيرى الصولة العباسية يحمل لواءها أسد بنى العباس ومنصورهم الثانى أبو أحمد الموفق ، فيشفق على دعوته الوليدة أن يعصف بها ذلك الخطر العتيد . وان الخطر ليقترب منه شيئا فشيئا كلما أديل للموفق من الزنج فأوقع بهم هزيمة منكرة أو قطع عليهم طريقا أو أباد لهم جيشا أو اقتحم مدينة أو عصف بحصن لهم منيع . وما ذلك الا

لعلمه أن قوة صاحب الزنج هى السد الذى يحجب عين الموفق عن رؤية الخطر الذى ينبعث من هذه الدعوة الجديدة • أو هى الغمة الراهنة التى تشغل قلبه عن الاهتمام بغيرها • فاذا ما انهار هذا السد أو انقشعت هذه الغمة فسيفرغ للدعوة الجديدة ويجعل القضاء عليها همه • فويل لها يومئذ منه ان لم تكن قد شبت عن إلطوق وبلغت من القوة والمنعة والشموخ بحيث تفوق قدرته وتعجز سطوته وتقصر عنها يده •

ولئن كان هذا الخطر الكبير بعيدا عنه فان أمامه خطراصغيرا حريا أن يكون بمثابة الطليعة لذاك الخطر الكبير ، فان لم ينهض له الآن فيحسم أمره أوشك أن يمتد أثره ويطول امتحانه به حتى يدركه الخطر الاكبر وهو على غير ما ينبغى له من تمام الاهبة وكمال القوة •

فهذا الهيصم كان قد جمع كبار الملاك فعقدوا مجلسا عنده قرروا فيه توحيد كلمتهم للقضاء على فتنة الفلاحين والاجراء ، فاتفقوا على أن من يطرد من العمل فى أرض أحدهم فلا حق لغيره من الملاك أن يستخدمه فى أرضه ، وعلى كل مالك أن يوظف على فلاحيه وأجرائه رجالا أشداء ليراقبوهم ويعاقبوا المقصرين منهم •

ورأى حمدان اشتداد الضغط على أتباعه الفلاحين فى البطائح خاصة ـ وكان فيها جمهرة أتباعه ومعظم أراضيها فى ملك الهيصم ـ حتى خشى أن يفلت زمامهم من يديه اذا بقى يوصيهم بالصبر ولم يعمل شيئا لانصافهم ، وكان مما زاد حالهم سوءا أن سادتهم بزعامة الهيصم قد بدأوا يستجلبون الأكرة والفلاحين من نواحى واسط وبغداد ومن الناجين بأنفسهم من فتنة الزنج بالبصرة ، فيستعملونهم فى أراضيهم بأجور طيبة للنكاية بأتباع المذهب القرمطى ولاغرائهم بالرجوع عنه ، فأيقن حمدان أن قد آن أوان العمل •

ولكن عبدان أشار عليه بأن يرحل قبل ذلك ناحية البصرة فيتصل بصاحب الزنج ويدعوه الى الدخول فى مذهب الامام فان أجابه الى ذلك أعانه على حرب السلطان فكان فى اجتماعهما قوة لهما •

وكان الموفق اذ ذاك قد طرد الزنج من الاهواز ، فلم يبق لصاحب الزنج الا مدينته « المختارة » قد امتنع بجنوده ورجاله فيها • فظن عبدان وحمدان أن ذلك أحرى أن يدفعه لقبول

محالفة غيره ان وجد فى ذلك نجدة له ومخرجا من الحصار الذى ضرب عليه ٠

— ١٠ —

واستطاع حمدان بعد اثنى عشر يوما قضاها فى طريقه صوب البصرة أن يتسلل ليلا الى حدود « المختارة » بعد ما غافل جنود السلطان الذين أقاموا مخافر حولها ليمنعوا الدخول اليها والخروج منها ٠

فلما أصبح الصباح استؤذن له على صاحب الزنج بكتاب ذكر له فيه أنه هو الذى أهدى اليه أخت ابن الحطيم ، فجاء الاذن بالمقابلة فى أصيل ذلك اليوم ٠

وهال حمدان ما رأى من ضخامة أسوار المدينة وتعددها ، وما ركب عليها من المجانيق والعرادات والقسى ، ومن مناعة حصونها والخنادق المحيطة بها ، وهم يقودونه من معبر الى معبر ، ومن سور الى سور ، ومن حصن الى حصن ، فى دروب ملتوية صاعدة أو نازلة حتى انتهوا به الى قلعة منيعة تجرى القنوات من حواليها ، لا يدرى حمدان كيف أمكنهم بثقها هناك

فتسلمه حرس القلعة وقاده الى مجلس الطاغية ، فاذا هو مضاء بالشموع ، وقد فرشت أرضه بالبسط الفاخرة ٠ ولم يكن حمدان قد رأى صاحب الزنج من قبل ، فنظر الى صدر المكان ، فاذا هو برجل طوال شديد السمرة قليل شعر اللحية أشمطها ، براق العينين ، ما ينفك يديرهما فى حركة سريعة كأنهما كرتان من الزئبق ، فلما سلم عليه حمدان رد عليه بصوت خافض ٠ ثم أمره بالجلوس وقال له : « هل جئت يا هذا لتسترد هديتك ؟ انها قد صارت رفاتا » ٠

فاشمأز حمدان من أسلوبه فى الحديث ، ولكنه كتم اشمئزازه وقال : « أو قد توفيت يا سيدى ؟ » ٠

ـ من زمن بعيد ٠٠٠ ما عاشت معنا غير عام واحد ٠٠٠ هلا جئتنا بواحدة أخرى ؟

ـ انى جئتك فى أمر أهم من هذا كله ٠

ـ فما هو ؟

ـ ان شئت أمرت من عندك فتركونا وحدنا ٠

فنظر اليه الخارج العلوى تصويبا وتصعيدا ، ثم أشار لمن عنده فتركوا المجلس ٠

ـ ما عندك أيها العيار الكوفى ؟

ـ لست اليوم عيارا ٠
ـ فما أنت ؟
ـ انى على مذهب ورأى ، ومعى مائة ألف ضارب بسيفه ، فان شئت اتفقنا على المذهب فملت بمن معى اليك ٠
ـ ان دخلتم فى مذهبى قبلتكم ٠
ـ بل نحن ندعوك للدخول فى مذهب الامام ٠
ـ لا يوجد امام غيرى ٠
ـ انما الامام الحق محمد بن اسماعيل ٠
ـ ذلك امام القداحيين يدعون باسمه لأنفسهم ، ولا وجود له بينهم ٠ أفتدعونى ويلك الى مذهب ذلك اليهودى الدجال من بنى الشلعلع عبد الله بن ميمون القداح ؟
ـ انى لا أدعوك الى مذهب أحد ، وانما أدعوك الى المذهب الحق ، مذهب العدل الشامل بين الناس ٠
ـ هذا ويلك مذهبى ٠ أما علمت أننى جاربت الظلم ونشرت العدل ؟ ٠
ـ انك ما عدوت أن جمعت المظلومين من العبيد والرعاع فملكتهم رقاب الاحرار ، يغتصبون أملاكهم ، ويستحيون نساءهم ، ويسومونهم سوء العذاب ٠

فاستشاط الطاغية غضبا ، وقال له : « ثكلتك آمك ! أتسبنى أمامى وتطعن فى مذهبى ؟ والله لآمرن عدد أتباعك من أتباعى ، فليقطعنك بسيوفهم مائة ألف فلذة ! »

فأدرك حمدان أن لن ينجو من يده الا بحسن الحيلة ولطف المخرج فقال له : « ما كنت أحسب أن زعيما فى مثل قدرك وسلطانك يغضب من رجل مثلى سعى اليك من وجه بعيد يعرض عليك النصرة ليظاهرك على عدوك وعدوه ٠ وقد أحب أن يريك ما عنده حتى يجعلك على بصيرة من أمره ٠ والله لو شئت أن أخدعك عن حقيقتى لفعلت ولنلت اذن رضاءك عنى ، ولكن يمنعنى من ذلك حرصى على ألا يدال منك لعدوك ، فانه عدوى وعدو الحق والعدل » ٠

فتطلق وجه الطاغية قليلا وقال : « انما استوجبت غضبى لشتمك اياى » ٠

فقال حمدان : « لو أردت شتيمتك لأعلنتها فى الناس وأنا بنجوة منك لا تطولنى يدك ٠ أما أن أخلو بك لأشتمك حيث

تكفى اشارة منك لقتلى وتقطيعى مائة ألف فلذة ، فهذا مالايفعله أقل الناس عقلا » ٠

ـ فعلام اذن عولت ؟

ـ ان شئت بقى كل منا على مذهبه وتحالفنا على عدونا الواحد ٠

فأطرق الطاغية قليلا وطفق ينكت بأصبعه على البساط ثم رفع رأسه وقال : « لو جئت قبل اليوم لكان عرضك أنفع وأجدى ٠ أما الآن وقد حوصرنا فى هذه المدينة فليس فى وسعنا أن ننجدك بشىء » ٠

ـ لكن في وسعنا ذاك ٠

ـ كيف ؟ ٠

ـ نشغل عدونا عنك ونقطع سبيله اليك ٠

ـ فماذا تطلبون منا أجرا على ذلك ؟

ـ لا نطلب شيئا الا أن تدع لنا الكوفة وأعمالها وكورها نقيم فيها مذهبنا ولك ما سوى ذلك ٠

ـ انك والله لذو رأى ٠ وهذا عدل منك ٠ وقد قبلت شرطك « ومد الى حمدان يده فصافحه فقال حمدان : « انى لارجو أن ينصرنا الله على عدونا » ٠

وتحرك الطاغية للقيام وهو يقول : « انى قائم الساعة لصلاة العشاء فانشئت أقمت أياما فى ضيافتنا قبل أن تعود الىبلدك»

فشكره حمدان وقال له : « بل تأذن لى فأسرى الليلة لأبشر جماعتى بما اتفقنا عليه فسيكون ذلك عيدا لهم » ٠

ولم يصدق حمدان أنه ناج من قبضة الطاغية العلوى الا بعد ما ودع الحرس الذين أمروا بمرافقته حتى يوصلوه الى مأمنه ٠ فتنفس الصعداء عند ذاك وانبرى بجواده ينهب الارض نهبا ٠

وقص علىعبدان ما شاهده فأدركا ألا أمل فى انضمام صاحب الزنج الى دعوة الامام وألا فائدة ترجى من ورائه ، وأن الموفق قاض عليه لامحالة طال الزمن أو قصر ٠

على أن حمدان قدر مما رأى من مناعة المختارة وامتلائها بالمؤن والذخائر واشتمالها على زهاء ثلثمائة ألف من الرجال المقاتلين أن الموفقلن يقهرها قبل انصرام ثلاثة أعوام أو عامين ٠

واعتكف حمدان ثلاثة أيام فى داره يستجم بها من السفر ويستمتع بما يبيحه المذهب له من لذات الحياة ومباهجها ،

وانها لطوع يديه ما بقيت شهر راضية عليه • حتى اذا بلغ من ذلك ما أراد عقد مئزره وشمر عن ساعده ومضى منصلتا الى القاسميات من أرض البطائح لينجز العمل الـكبير الذى ينتظره هناك •

وما هى الا أيام قلائل حتى انتشر فى الكوفة وما حولها نبأ عظيم وجم له قوم وفرح آخرون ، ودهشوا جميعا لوقوعه على ذلك النحو الغريب من السرعة والمباغتة • فقد بلغهم أن جهة البطائح قد وثب عليها حمدان قرمط فاحتلها بجيش عظيم لا يدرى أحد من أين جاء به • وقد قام فلاحوها وأجراؤهـا بمناصرته اذ كانوا على مذهبه فثاروا على من يليهم من وكلاء الهيصم وغيره من ملاك الارض التى يعملون فيها فبطشوا بهم وشردوا بهم من خلفهم من الاعوان والاتباع واحتلوا الديار والجواسق جميعا واقتسموا بينهم الارض • وكانت دعواهم التى يهتفون بها بصوت واحد ساعة الثورة :

الارض لنـــا لا للظلمة !

والويل لهم فى الملتحمة !

وظل الناس أياما يتحدثون عن فتنة القرامطة ــ فقد أطلقوا هذا اللقب على أتباع حمدان قرمط ــ ويهرعون الى من نجـا بنفسه من مذبحة البطائح يستروونه ما شهد من حوادثهـا وما سمع ويستزيدونه بها علما •

وانهم لكذلك اذ راعهم نبأ جديد أن أبا العباس ابن الموفق قد وصل الى الكوفة سرا ، ثم سرى منها ليلا ومعه عدد كبير من الجيش ، فأوقع بالقرامطة فى البطائح وقتل مئات من رجالهم ، وأنه طلب حمدان وأهله ، وأنه أمر بجمع الفلاحين واستابتهم فمن تاب تركوه ، ومن أبى قتلوه •

فما درى الناس أيهما أعجب : أخروج حمدان على السـلطان ووثوبه على البطائح أم يقظة الموفق وسرعته فى القضاء على الثورة ، وهو مشغول بمحاربة صاحب الزنج •

- ١٢ -

أما حمدان وأهله فقد تركوا البطائح ليلة الحادث ، لمـــا أيقنوا بالهزيمة وخافوا أن يقعوا فى يد أبى العباس ، فصاروا ينتقلون من قرية الى قرية ينزلون على خواص أتباع المذهب ويستترون عندهم حتى استقروا فى (كلواذا) على مقربة من

بغداد حيث نزلوا على بعض المخلصين من أشياع المذهب ممن كانوا يشايعون الكرماني ويؤيدون حركته في بغداد من قبل فاستتروا عندهم واختلطوا بهم ٠

وقد أدرك حمدان وعبدان أنهما تعجلا بالثورة قبل حينها ، وكان عليهما أن ينتظرا بضع سنوات أخر حتى يتضاعف أشياع المذهب في كل ناحية من نواحي الدولة ويكثر السلاح في أيديهم ويصيروا جميعا سواء في الشعور بشدة الضغط ووطأة الظلم فيقوموا قومة رجل واحد ٠ كما أدركا أنهما كانا مخطئين اذ حسبا أن انهماك الموفق بمنازلة صاحب الزنج سيشغله عن الاهتمام بحركة خطيرة كهذه الحركة ٠

على أن هذا الاخفاق الاول ، لم يفل من عزمهما ، ولم ينل من أملهما في النجاح شيئا ، فقد بصرهما بأن التريث حتى تتم الأهبة وتكمل العدة هو السبيل المضمون للنجاح ٠ وعللا نفسيهما بأن ضربة الموفق هذه حرية أن تجعله يطمئن من قبل هذه الحركة ويظن أن خطرها قد زال فلا يأبه لأمرها كثيرا في المستقبل ٠ فعليهما وعلى دعاتهما أن يواصلوا الدعوة سرا ويلزموا التقية كدأبهم من قبل ٠

وانما اختار عبدان (كلواذا) القريبة من بغداد مركزا لقيادته لزعمه أنها لقربها من العاصمة ستكون أبعد عن أن تلحظها العيون أو تحوم حولها الظنون ٠ كما أن ذلك سيتيح لهما مراقبة ما يجرى في العاصمة من الاحداث وما يتردد فيها من الانباء على كثب ٠ وربما أمكنهما أن يساعدا أبا هاشم ابن صدقة فيما يقوم به من بث الدعوة في العاصمة ذاتها وفيما حولها من القرى ، فلا غنى للدعوة عن أن تغزو تلك الناحية الهامة ، حيث يوجد عشرات الالوف من الصناع والعمال والفعلة الذين يعملون في العاصمة ، فلا ريب أن البذرة ستجد بين هؤلاء أرضا خصبة لما يعانونه جميعا من شظف العيش ومرارة الظلم وقسوة العمل وقلة الاجور مع غلاء أسباب المعيشة ٠ وهذا الصنف لا يتوافر في مكان آخر كما يتوافر في العاصمة وسيكون عونا كبيرا للحركة اذا جد الجد وحانت ساعة الثورة العامة ٠

ولم يشأ حمدان حتى بعد أن شعر بقوته وقوة أتباعه أن يعجل بالخروج على السلطان لئلا يمنى بمثل اخفاقه الاول ، ولاسيما

بعد أن أنزل الموفق ضربته القاضية على صاحب الزنج وقطع دابره فانتعش سلطان الخلافة وتوطدت أركانها ، واستردت كثيرا من هيبتها • فما وسع حمدان الا أن يوطن نفسه على الصبر الطويل حتى تتغير الاحوال وتواتيه أوقات يراها أصلح للقيام بثورته وأكفل لها بالنجاح •

— ١٢ —

مرت السنون سراعا ، وتوالت الاحداث ، وكان أهمها وفاة الموفق أسد بنى العباس الهصور •

وقد تنفس حمدان الصعداء لما مات الموفق ، ورأى أنه قد آن له أن يخرج من سردابه بكلواذا ، ويعود الى سواد الكوفة ليعلن من هناك الثورة العامة • على أن يترك عبدان يقوم فى أثناء ذلك بحركة فى العاصمة ، ليكثر فيها عدد أنصار المذهب فيكونوا ردءا له يوم يعلن الثورة فى السواد •

وكان أبو البقاء البغدادى مقصى عن العاصمة اذ ذاك بأمر الخليفة المعتمد لميله الى المعتضد ولى عهد المسلمين حينذاك كما كان المعتضد مشغولا بدسائس عمه المعتمد عن الالتفات لغيرها ، فكان الجو مواتيا لعبدان كل المواتاة ، كما كان مواتيا لحمدان أيضا فيما يقوم به من النشاط الهائل بالسواد •

ولم تتغير الحال عليهما الا حينما توفى المعتمد وبويع بالخلافة للمعتضد ، ذلك أنه ما كاد المعتضد يتربع على كرسى بنى العباس حتى انتعشت الخلافة ودبت فى أوصالها روح جديدة ، شعر بها أولياؤها وخصومها على السواء • فما نسى الناس أنه ذلك البطل المغوار الذى خاض ميادين القتال منذ طر شاربه واشترك مع أبيه الموفق العظيم فى صراع ذلك الطاغية الخطير ، طاغية الزنج ، حتى قضيا على فتنته العظمى فأنقذا الخلافة من خطر ماحق • •

وكان أبو البقاء يحبه ، ويتمنى على الله أن يجلسه على كرسى الخلافة يوما ما ، ليحقق فى عهده كل مارسمه من مناهج العدل، وطرائق الاصلاح • ولم يذكر ابو البقاء انه فرح يوما ما فرح يوم أعيد من منفاه بدير العاقول ، فهرع الى مجلس المعتضد ليقول له : السلام عليك يا أمير المؤمنين !

فتلقاه المعتضد بمزيد الحفاوة والتكريم وأقبل عليه وأدنى مجلسه وأخلى له وجهه ومن دونه الوزراء والكبراء وأصحاب

الرياسات ينظرون ويتعجبون .

قال لأبي البقاء فيما قاله : « ان بابي لا يغلق دونك بليل أو نهار ، واني أعاهد الله ربي لا تدعوني الى خطة فيها رضى الله ورسوله وخير الناس الا نفذتها لك ما استطعت » .

فشكره أبو البقاء وقال له : « حسبي وحسب الناس منك هذا . واني لأرجو الله أن تكون من السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله يوم القيامة » ثم روى الحديث بتمامه عن النبي صلى الله عليه وسلم بسنده .

ولم يلبث أن تسامع أهل العاصمة بما دار في مجلس أمير المؤمنين بينه وبين أبي البقاء ، فاستبشر عامة الناس من الفقراء والمساكين خيرا ، وقوى رجاء المظلومين من الاجراء والفعلة والصناع والأكرة أن يرفع عنهم الجور الواقع بهم وبذراريهم ، وتوجس الاغنياء وأرباب الضياع الواسعة وكبار التجار شرا فأمسوا خائفين يترقبون .

ولم يكد أبو البقاء يخرج الى أتباعه المستضعفين من مختلف الاصناف ليزورهم ويتفقد نقاباتهم ، وليبشرهم بالعهد الجديد الذي يوشك أن يدفع عنهم الحيف ، ويبسط لهم الرخاءوالعدل ، حتى هاله ما رأى وسمع من آثار انبعاث فتنة الكرماني من جديد .

وان أبا البقاء لجالس يوما بين أصحابه في حي من الاحياء الفقيرة في بغداد ، وهو يعظهم في هذه الفتنة اذ تصدى له نفر من أهل الحي فشكوا اليه سوء حالهم وسألوه ما حكم الله في ذلك . وكان أحدهم فقيرا ذا عيال والثاني فلاحا والثالث عاملا من العمال . فأخذ يجيبهم واحدا بعد واحد . فكان مما قاله للاول ان الله قد فرض له حق الفقير وهو أن يكون له ولمن يعولهم بيت صالح يأوون اليه بمتاعه وماعونه ، وطعام طيب من أوسط ما يطعم الناس في غير أشر ولا بطر ، وكسوة للصيف وأخرى للشتاء من أوسط ما يلبس الناس بلا زهو ولا خيلاء ، وفضل نفقة للعيد يوسع بها على زوجه وعياله . يصرف له ذلك من الزكاة ماوفت به ، والا أخذ لهذلك من فضول أموال الاغنياء ، فما الزكاة المفروضة الا الحد الادنى لما يؤخذ من مال الغني ليرد على الفقير وهذه تؤخذ في وقتها المعلوم من نصابها المعلوم ولو لم يوجد من يستحقها فتودع حينئذ في بيت المال . أماالفضول

فتفرض عند الحاجة على قدر الحاجة ...
وقال للثاني : ان لك من ريع الارض التي تعمل فيها مايكافىء عملك لو استأجرتها من المالك فعملت فيها لحسابك ، ولمالكها القابع في داره من ريعها ما لا يزيد على أجرة مثلها لو أجرها لك أو لغيرك . فان لم يف ذلك بنفقتك ونفقة عيالك كنت حينئذ مسكينا فتعطيك الدولة قدر ما ينقصك حتى يكون عندك البيت الصالح والطعام الطيب وكسوة الصيف والشتاء ونفقة العيد .
وقال للثالث - وكان يعمل فى احدى معاصر الزيت : ان لك من ثمرة العمل ما يكافىء جهدك لو أن المعصرة كانت ملكا لك ، ولصاحبها ما يساوى أجر معصرته لو أجرها لغيره وله فوق ذلك ما يكافىء جهده فى حسن التدبير لها والاشراف عليها على أن يحط من ذلك كله ما يستهلك من آلة العمل ويتلف . فان لم يقم هذا بكفايتك وكفاية من تعولهم فلك على الدولة حق المسكين
فاقتنعوا جميعا بأن فيما أفتاهم به غاية العدل ولكنهم قالوا له : أين هذا يا أبا البقاء مما نحن فيه ؟ فقال لهم : ذاك ما شرح الله صدر خليفتكم الجديد لاصلاحه من الفساد فانتظروا ولن يطول انتظاركم ان شا الله .
وقام أبو البقاء من مجلسه وقد وقر فى نفسه أن الامر جد وأن القرامطة قد نفثوا سمومهم فى الناس ، وأن النـــاس معذورون فى الاستجابة لهم ، وانه اذا كان هذا حالهـــم فى قلب الدولة فكيف حالهم فى أجزائها وأطرافها ! .
واتصـــل بالخليفة المعتضد فقص عليه ما رأى وما سمع ، وقال له : « ان الدين فى خطر وان الدولة فى خطر ، فان كان لايعنيك أن تحمي دين الله فاحم ملكك وملك آبائك » .
فابتسم المعتضد وقال له : « قد وعدتك ياأبا البقـــاء بأن أعمل بنصيحتك ، وانى لعلى وعدى فأى شىء أغضبك منى ؟ »
- اعذرنى ياأمير المؤمنين فطالما عالجت الموفق رحمــــه الله وعالجنى ، وطالما وعدنى فلم يصنع شيئا .
- لاحق لك أن تؤاخذنى بجريرة غيرى فانى انمـــا توليت الخلافة منذ شهر ، وان ماتدعو اليه لامر عظيم ، ولا بد من استعداد طويل ، والا فسد الامر علينا وانقلب الخير شرا .
- صدق أمير المؤمنين ، ولكنى أقترح البدء فى الاستعداد من اليوم .



ـ فأشر على بما يجب أن نبدأ به ·
ـ ليأمر أمير المؤمنين بانشاء ديوان الزكاة ، وديوان الفضول وديوان الفقراء والمساكين ، وديوان الفلاحين ، وديوان الصناعة والعمل ، وأمير المؤمنين يعلم أني قد وضعت لكل من هـؤلاء كتابا ليسترشد به القائمون عليه · ·
ـ أجل لقد قرأت منها كتاب الفضول ، فشهدت فيه فضلك وعلمك ، وأشهد أن أبى رحمه الله كان يعجب به ·
ـ غفر الله لابى أحمد ، كنت انتظر منه التنفيذ لا الاعجاب
ـ قد كان يرى صعوبة تنفيذه ·
ـ بل كان يخشى ثورة الاغنياء ، وكان الله احق أن يخشاه ·
ـ لاتنس ياأبا البقاء أن هؤلاء كانوا يجدون من العلمـــاء من يفتيهم بأن ذلك ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ·
ـ أولئك قوم اتخذوا العلم حرفة وتجارة ، وقد بينت فى كتابى بطلان رأيهم ·
ـ وكان مشغولا بفتن الخارجين على الدولة ·
ـ ماكان دعاة الفتنة لينجحوا لو انه بسط العدل فى رعيته وقد خالفني حتى فى ديوان الزكاة حيث لامجال لاختلاف الرأى
ـ ماقرأت كتابك فى الزكاة، ولكنى أذكر أنكما انما اختلفتما بصدد انشاء الديوان ·
ـ نعم ، كان يريد أن يضم ديوان الزكاة الى بيت المال العام فأبيت الا أن يكون مستقلا يصرف منه على مستحقيها وحدهم، لا على المصالح العامة كلها ، إن الله لا يرضى أن يصرف حق الفقير والمسكين فى كنس الدروب وكرى الترع ، واعاشة الشرطة حيث يفيد الاغنياء من ذلك أكثر مما يفيد الفقراء ·
ـ لقد تذكرت الساعة حجته فى ذلك رحمه الله : ان ذلك كان المعمول به فى عهد الرسول وخلفائه ·
ـ فأين عهدنا من ذلك العهد ؟ لقد تغيرت الحال ، وتشعبت أمور الدولة ، واختلفت أنماط الحياة ووجوه المعيشة ، وانما أمرنا الله باتباع هدى النبى صلى الله عليه وسلم فى جملتـــه وروحه ، وترك لنا الاجتهاد فى تطبيقه وتدبير شئون الناس عليه بحسب مايقتضيه الزمان والمكان ·
ـ ماأرى الا انك على الحق ، وما بى الا أنى ذكرت ابى رحمه الله ورجاحة عقله وحسن تدبيره ، فعز على أن لايكون

وفقه الله الى العمل الاصلح .

رجع أبو البقاء منشرح الصدر لما وعد به المعتضد من تنفيذ مقترحاته وشيكا . وكأنه بالعدل وقد بسط ظله على جميع بلاد الدولة قاصيها ودانيها ، فعاش رعاياها من المسلمين وغيرهم من مختلف الطوائف والملل في رخاء ويسر ، لا يجوع فيها فقير ولا يعرى ، ولا يظلم فيها عامل ولا فلاح ، ولا تثور فيها فتنة ، ولا يختل فيها أمن .

وانقطع عن الناس أياما وهو يفكر فى انشاء تلك الدواوين وتأسيس قواعدها وطرائق ضبطها وادارتها ، واختيارالقائمين عليها ، وما عسى أن يلقي الخليفة عند اعلان تنفيذها من انكار الاغنياء ومعارضتهم ، وما يخشى فى ذلك من فتنـة ، على أنه واثق بتأييد الله له ، وهو يحمد الله على أن كان على الخلافة فى ذلك الوقت رجل شجاع صلب العود ، نهاض بجلائل الامور متمرس بسياسة الدولة ، لا ينقصه عزم ولا حزم .

حتى جاء رسول الخليفة يوما يستعجله للمثول بين يديه، فانطلق الى قصر الخلافة ، وهو يتوقع أن يسمع نبأ خطيرا لايدرى أخير هو أم شر . فلما انتهى الى مجلس الخليفة عـلم منه أن حرس القصر قد قبضوا على رجل فى زى النساء ، يحمل تحت ثيابه سلاحا ، قد تسلل الى القصر من باب الحريم يريد اغتيال المعتضد ، فلما سيق الى دار العذاب حاول أن يتحسى سما كان معه ، فحالوا بينه وبين ذاك .. وعذبوه ليقر ، فأقر بأنه من القرامطة ، وأنه كان يتصل بداعيتهم عبـدان فى دار أبى هاشم ابن صدقة الكاتب ، وأن عبدان قد رحل بأهله من بغداد منذ نصف شهر بعد ما أوعز اليه باغتيال المعتضـد فى التاريخ المذكور .

وقبض على أبى هاشم ابن صدقة ، وفتشت داره ، فلم يوجد فيها شيء ، وانكر التهمة ، وأقسم أنه لايعرف عبدان ولا أحدا من القرامطة ، وأن المجرم المقبوض عليه انما ألصق به التهمة نكاية به ، لما عرف عنه من بغض القرامطة وعداوتهم ، فأمر المعتضد بحبسه حتى يتبين أمره .

وكان المعتضد قد عزل الطائى عن ولاية الكوفة لكثرة ماورد اليه من رسائل الهيصم وغيره من وجوه الكوفة ، يضجـون بالشكوى منه ، ويتهمونه بممالاة القرامطة والتغاضى عن أعمالهم

فعزله وولى مكانه كرامة بن مر .
واتفق هذا الوالى الجديد مع الهيصم ، فأخذ يعنف بالقرامطة ، ويطارد دعاتهم . ثم قبض على جماعة من زعمائهم فوجههم فى السلاسل الى المعتضد ليرى رأيه فيهم ، فوردوا الى بغداد بعد يومين من حبس ابى هاشم ، فأمر المعتضد بهم فعذبوا حتى أقروا بأسرار كثيرة منها أن أبا هاشم كان من دعاتهم القدماء ، وانه كان يكاتب حمدان قرمط ، وكان أحدهم يحمل الرسائل بينهما ، فأسقط فى يد أبى هاشم ، ولكنه أصر على الانكار ، ورمى هؤلاء الشهود بمثل مارمى الشاهد الاول ، فعذبوه فاحتمل العذاب دون أن يعترف ، فجيء بزوجته ، فلما رأت مايلقاه من العذاب ، أقرت عنه واعترفت بأن عبدان القرمطى كان نازلا مع أهله فى دارهم ، فكذب قول زوجته وقال : انما قالت ذلك شفقة عليه ، فصرفوها الى منزلها واستأنفوا تعذيبه حتى خشوا أن يموت دون أن يبوح بسره ، فقيل لهم : اسقوه مخدرا ، فلما سقوه المخدر طفق يهذى بكلام كثير مختلط بعضه ببعض ، ويذكر أسماء جماعة من كتاب بغداد ورؤسائها .

وقد أمر المعتضد بتدوين ذلك كله ، فدونوه ثم أمر بأولئك الذين هذى أبو هاشم بأسمائهم ، فقبض عليهم وفتشت دورهم فكان مما وجد فيها ، كتاب الرحى والدولاب ، وكتاب الحدود والاسناد ، وكتاب النيران ، وكتاب الملاحم ، وكتاب المقصد وكلها من تأليف عبدان القرمطى . .

فلما حملت الى المعتضد أشار بعض من حضر من الفقهاء باحراقها ، فخالفهم المعتضد وأمر بتسليمها الى أبى البقاء .

وكان من الاسماء التى ذكرها أبو هاشم اسم عزرا بن صمويل كبير تجار اليهود فى العاصمة ، فحار المعتضد فى أمره وعجب كيف يتواطأ مثل هذا الجماع للمال مع هؤلاء الذين يرون المال مشاعا بين الناس لاحق لاحد أن يجمع منه شيئا ، فاهتم به خاصة وأمر بأن يحضروه ويترفقوا به رعاية لما بينه وبين أبيه الموفق من قديم الصلة وطويل المعاملة .

فأقبلوا به شيخا فى نحو الثمانين من عمره ، أصلع ، مجعد الوجه ، متقوس الظهر ، تنبيء عروق يديه الغليظة الناتئة عن فضل قوة ومتانة ، وقد ارتدى جبة من الحبرة سوداء ، عليها

خطوط حمر عراض أضفت عليه رواء وهيبة ·
فأحسن المعتضد استقباله ، وأجلسه قريبا منه ، ثم قال له:
« ماذا خلطك ياعزرا بهؤلاء القوم ؟ » ·
فقال عزرا : « لولا مقام أمير المؤمنين ، لكنت أحق بسؤاله: فيم قبضوا على فروعوا أهلى وساقونى اليه كأننى مجرم ، وانا صنيعة أبيك ولى عهد المسلمين ، وصنيعتك من بعده ؟ »
ـ انك متهم بموالاة القرامطة ، فان استطعت أن تبين لنا حقيقة اتصالك بأبى هاشم ابن صدقة بما يبرىء ساحتك أطلقنا سراحك ·
ـ ليس بينى وبينه الا مايكون بينى وبين الناس من المعاملة
ـ أماكنت تعلم انه من دعاة القرامطة ؟
ـ انى لى علم ذلك ياأمير المؤمنين ؟ ·
ـ فقد أقر لنا أنه كان يجيئك مع الكرمانى ويبعثه الكرمانى اليك ·
ـ ما عرفت حقيقة الكرمانى وخيانته للدولة فى عهد أبيك الا بعد ماانكشف أمره للناس جميعا فهرب · وما أنا الا تاجر أعامل الناس جميعا ، ولا أسألهم عن مذاهبهم ·
ـ ففيم عاملت أبا هاشم بعد ذلك وتسترت عليه ؟
ـ كنت أحسب أن مابينه وبين الكرمانى لايعدو حد التجارة والمعاملة ··
ـ فقد كنت تعطيه المال لينفقه على دعوته الخبيثة ، وكان يحيلك على القداحيين بسلمية ، كما كان يفعل الكرمانى معك من قبل ، وقد علمت أن هؤلاء أعداؤنا ·
ـ ليس على أن أسأل من يأخذ المال منى فيم ينفقه ، ولا أن أسأل عن القداحيين المحال عليهم مامذهبهم، ماأدوا المال لوكلائى هناك ، وما أنا ياأمير المؤمنين الا يهودى من أهل الذمة قد شمله عدل الاسلام ، فعاش واغتنى فى ظله ، فما ينبغى لمثلى أن يدخل نفسه فيما بين طوائف المسلمين من خلافات وعصبيات ·
ـ ليس هذا من ذاك ويلك ، فهؤلاء جماعة يأتمرون بالدولة التى شملك عدلها ، فاغتنيت فى ظلها ، فمن والاهم أو تستر عليهم فقد خان الدولة ·
ـ ماكنت أعلم انهم يأتمرون بالدولة ·
فنظر اليه المعتضد مليا ثم قال له : « اعلم ياعزرا أن عندنا

جميع أوراقك ودفاترك ، وسنكلف رجالا ينظرون فيها ويدرسونها ، فان شئت أن يشملك عفونا ، فأسبقهم وأفض الينا بسرك • »

فاضطرب الشيخ اليهودى اضطرابا شديدا ، وارتج عليه هنيهة ثم قال وهو يبكى: « لاتدعهم يفعلون ذلك ياأمير المؤمنين فان فيها أسرار الناس ، وسأعترف بذنبى لامير المؤمنين • »

ـ هات فقل •

ـ هل يعدنى أمير المؤمنين بعفوه ؟

ـ نعم ان قلت الصدق •

ـ فانى كنت أعرف الكرمانى وخيانته للدولة واعرف عمل أبى هاشم معه ومع القرامطة من بعده ، وصلة القرامطة بالقداحيين ، وأنهم جميعا أعداء للدولة ، وأعلم أن لا حق لى فى معاملتهم والتستر عليهم ، ولكن دفعنى الى ذلك ما ورثته عن آبائى من حب المال والحرص عليه ، فذلك ذنبى قد اعترفت به وهذا سرى قد كشفته بين يديك ، وانى بعد لعبد امير المؤمنين وصنيعة أبيه ، فهب لى ذنبى وارحم شيخوختى •

ـ أليس عندك غير هذا ؟

ـ كفى بهذا ذنبا يا أمير المؤمنين ليس أعظم منه الا عفوك •

فأمر به المعتضد فأعادوه الى حبسه وأوصاهم باحسان معاملته ، وقد رابه من الشيخ اليهودى فزعته من الاطلاع على دفاتره وأوراقه ، فقدحت فى ذهنه فكرة عزم على تنفيذها ، وكتم أمرها عن الناس جميعا ، وهى أن يبرد الى عماله بالآفاق بأن يفجأوا وكلاء عزرا فى نواحيهم ، فيفتشوا دورهم وحوانيتهم ويجمعوا كل ما لديهم من الدفاتر والاوراق فيرسلوه اليه • ولكنه لم يلبث أن أضاف الى ذلك أمره للعمال بأخذ أموال أولئك الوكلاء وحبسها عندهم • وذلك أنه لما رفع الرجال اليه ما وجدوه في دفاتر عزرا وأوراقه من الوثائق الهامة انكشفت له أسرار خطيرة تتصل بسلامة الدولة بعضها حديث وبعضها قديم من عهد المعتصم ، فأمر بترتيبها وحفظها ، وتوقع أن يجد فى أوراق وكلاء عزرا ودفاترهم ما يزيد الأمر وضوحا ، ولكنه لم يصبر على انتظارها حتى تجىء فأمر باحضار الشيخ اليهودى بين يديه ثانية •

قال له الخليفة : « ماذا ترى فى صاحب الزنج ؟ »

قال عزرا وهو يرتعد خوفا : « ماذا أقول يا أمير المؤمنين فى خارج شقى قد أهلكه الله بسيف أبيك وبسيفك ؟ »
ـ كنت تقدم للموفق ما احتاج اليه من المال لمحاربته •
ـ أجل يا أمير المؤمنين ، وقد عرف لى أبوك هذا الصنيع ، ويخجلنى أن أذكره تباهيا به أو منا على الدولة التى أدين لها بالولاء •
ـ أفلم تجزك الدولة على ما قدمت ؟ •
ـ بلى ، قد أقطعنى الخليفة أرض القاسميات من بطائح الكوفة ، وما كانت تثمر لنا شيئا ، ولكنا أغرينا بها وجوه الأغنياء بتلك الناحية ، فعمروها ، فأصبحت تدر للدولة خراجا كبيرا •
ـ فهذا فضل جديد لك !
ـ يخجلنى يا أمير المؤمنين أن أتمدح به ، فانما أنا ربيب نعمتكم يا آل العباس ، كما كان أبى كذلك فى عهد جدك المعتصم
ـ أفلا يخجلك أن كان وكيلك بالبصرة يمد طاغية الزنج بالمال ليحارب به الدولة ؟
كاد عزرا يصعق لسماع هذه الكلمة ، فطفق يتلون ويتلجلج ، محاولا أن يجد عذرا يتنصل به ، فما أمهله المعتضد أن قال له : « لا تحاول الانكار فهذا مثبت فى دفاترك » •
ـ كلا لا أكذبك يا أمير المؤمنين ، ولكن الطاغية لعنه الله قد أكره وكيلى على تقديم المال له •
ـ ففى دفاترك أنه قدم للطاغية أول دفعة من المال فى أول شعبان سنة ٢٥٤ قبل أن يخرج الطاغية ويكون له أى سلطان •
ـ قد وقع خطأ فى تاريخ ذلك يا أمير المؤمنين لا ريب ، فانا معشر اليهود لا نرمى أموالنا فى الهواء ، ولقد كان صاحب الزنج فقيرا صعلوكا قبل خروجه على السلطان فكيف يعقل أننا نضع مالنا اذ ذاك فى يديه ؟ •
ـ بل قدرتم له النجاح فى حركته ، فأمددتموه بالمال ، وكتب لكم صكا بأن يقطعكم سباخ البصرة عندما يتغلب على أعمال البصرة وكورها ، فهل كان يكتب مثل هذا الصك لو أكرهكم على تقديم المال اليه ؟ •
ـ انه كان خوانا غدارا يا أمير المؤمنين • وقد خدعنا بذلك الصك فلم يوف لنا بما كتب ، وقد كنا نتوقع منه ذلك حينما

أكرهنا على دفع المال ·
ـ لا تراوغني يا عدو الله ولا تمارني فى الحق · ألم يرضكم بأضعاف ما أخذه منكم لما استباح رجاله البصرة ونهبوا أموال أهلها ؟ ·
ـ بل ألزمنا بأن نحفظ له تلك الاموال وديعة عندنا ، ثم استردها بعد ذلك ·
ـ كلا ما استردها منكم وانما أمددتموه بأموال أخرى حين احتاج اليها لمحاربتنا فى واسط وأعطاكم بها عروضا وجواهر ·
ـ أما يعلم أمير المؤمنين أن وكيلنا قد هرب من البصرة لما تمكن من ذلك حين اشتد به ضغط الطاغية والحاحه عليه بدفع المال ؟ فكفى بهذا برهانا على أن الزنج كانوا يكرهونه على ما لا يحب ·
ـ كذبت يا عدو الله · انه ما هرب الا حينما انقطع رجاؤكم فى الزنج بعد ما أطبقنا عليهم من كل مكان ·
ـ حسبنا يا أمير المؤمنين أننا نجمع الاموال لننجد بها الدولة ساعة الحاجة ، فليكن فى ذلك ما يشفع لنا عند أمير المؤمنين ويخفف عنا سيئاتنا ·
ـ ولتمدوا بها كل ذى فتنة يريد الخروج علينا فى البلاد !
ـ كيف لى باقناع أمير المؤمنين أن ما أمددنا به صاحب الزنج كان على كره منا ؟
ـ بل صنعتم مثلها مع يعقوب الصفار لما أعلن علينا العصيان
ـ لو كان الموفق حيا لشهد لأمير المؤمنين بأننى ما قصرت فى امداده بما شاء ليقضى على فتنته ·
ـ ما كان أبى يعلم أنك أوعزت لوكيلك بخراسان فكان يمد يعقوب بالمال ليوقد به نار الفتنة ، والا لنكبكم وصادر أموالكم · ومن يدرى لعله ما من فتنة اشتعلت فى الدولة الا كنتم أنتم الموقدين ·
ـ كلا يا أمير المؤمنين لا يذهبن بك الغضب علينا الى أبعد مما ارتكبنا من الذنب ، وقد وعدتنى بالعفو ، ومن فى الناس أصدق من أمير المؤمنين وعدا ؟
ـ وعدتك بالعفو ان صدقتنى فلم تفعل ·
ـ لأصدقنك الساعة يا أمير المؤمنين ! لأعترفن لك بما تشاء
ـ الآن وقد شهدت عليك دفاترك وأوراقك ؟ ·

ـ فاني لأطمع بعد في العفو •
ـ فقل لنا واصدقنا القول : ماذا دفعكم الى هـذا الذى صنعتم كله ؟ •
ـ والله لأقولن الصدق وليفعل بى أمير المؤمنين ما يشاء • ما دفعنا الى ذلك الا الطمع فى الربح وما توارثناه عن آبائنا من حب المال والتهالك على جمعه •
ـ كلا ليس هذا وحده بالذى دفعكم بل هو ما أشربتموه من العداوة للمسلمين والكيد لدينهم وخلافتهم •
ـ معاذ الله أن نبغض أهل ملة أنقذونا من اضطهاد النصارى وظلم الروم • انما نبغض النصارى الذين يبغضوننا كما يبغضونكم •
ولكن الله عز وجل يقول لنبيه فى محكم كتابه : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » •
ـ ولكنهم مشركون ونحن على التوحيد مثلكم •
ـ فلقد أشرك آباؤكم بالله فعبدوا عجل السامرى •
ـ هذا مصداق ما قلته آنفا يا أمير المؤمنين ا. كان ذلك العجل من ذهب، فانما عبدوا الذهب لا العجل لقد بلينا بحب الذهب فهو يعمي بصائرنا ويوردنا المهالك ، وهو الذى عرضنا اليوم لسخط أمير المؤمنين •
وقهقه عزرا قهقهة متصنعة ثم قال : « جبلة فينا يا أمير المؤمنين أراد الله تغييرها فلم يستطع ! » •
ـ لا تسمعنى كفرك ، أخزاك الله ! ان الله لقادر على كل شيء
ـ وان أمير المؤمنين لقادر على العفو •
فأطرق المعتضد قليلا ثم قال له : « قل لى ويلك فاصدقنى : هل ساعدتم الروم قط ؟ »
ـ الروم ! معاذ الله يا أمير المؤمنين •
ـ ستأتيتنى دفاتر وكلائك وأوراقهم من الآفاق فاياك أن تكذبنى •
فاضطرب عزرا قليلا ثم تجلد وقال : « أما على دولة أمير المؤمنين فلا ، ولكن على ابن طولون المتغلب على مصر »
ـ فقد شهدتم على أنفسكم بخيانة المسلمين •

ـ انه عدو أبيك وعدو الدولة ·

ما أنت وذاك عليك اللعنة ! ان ابن طولون أمير صالح منا ، والروم أعداؤنا وأعداؤه ، وان من أعانهم عليه لخليق أن يعينهم علينا ·

ـ كلا يا أمير المؤمنين ما كان ذلك منا قط ·

ـ غدا سنرى ·

* * *

وما لبثت الانباء أن وردت تترى الى دار الخلافة باشتداد حركة القرامطة فى السواد ، وأن حمدان قد ظهر لهم بعد احتجابه ، وأن الفلاحين قد عادوا الى الخمسين الصلاة والتشاغل بها عن تأدية أعمالهم · وجاءت رسائل والى الكوفة يعلن فيها تفاقم الحالة ، ويستنجد بالخليفة ويستأمره فيما يفعل ·

وكان أبو البقاء مشغولا بكتب عبدان يقرؤها ويرد عليها بما يفند مزاعمها ويكشف شبهاتها · فاستدعاه الخليفة واستشاره فى الامر ، فكان من رأى أبى البقاء أن يسعى كرامة بن مر وأعوانه للقبض على زعيمهم حمدان وغيره من الدعاة والرؤساء ان استطاعوا ، وأن يتركوا الفلاحين وشأنهم حتى يتم الاصلاح المنتظر فيثوبوا الى رشدهم ، فاستصوب المعتضد رأيه وأنفذه ·

ثم أخذت دفاتر الوكلاء اليهود وأوراقهم التى طلبها المعتضد تصل اليه من الآفاق ، حتى تمت عنده فى خلال شهرين ، وفحصوها فوجدت كلها مؤيدة لما فى دفاتر عزرا وأوراقه · وعثر بينها على رسالة صغيرة فى حجم الوصية مكتوبة بالعبرية فجيء بمن يفك رموزها فتبين أنها سجل شركة خطيرة أسسها جماعة من كبار تجار اليهود بمدينة الموصل فى أواخر عهد الخليفة المأمون ، على أن تبقى قائمة طوال العصور يديرها أبناؤهم ، واذا لها دستور عجيب ينص على وجوب تشجيع الفتن فى بلاد الدولة ، وامداد القائمين بها ، والسعى لاثارة الحروب بين أمراء المسلمين ، وبينهم وبين الروم ، وتأريث نار الخلاف بين الطوائف والمذاهب والنحل ، والافادة من كل ذلك فى تجميع الاموال وتكثير الارباح لشركتهم · وظهر من الاوراق الملحقة بالسجل الأصلى أن والد عزرا كان رئيس الشركة فى عهده ، وأن رئيسها الآن يوشع بن موسى فى (الطالقان)

وهو الذي وجد السجل عنده ، وأن هذه الجماعة كان لها يد في حركة بابك الخرمي وأثر في حركة الساميين والطاهريين وغيرهم ، وأنهم اتصلوا بعبد الله بن ميمون القداح وشجعوه .

فهال المعتضد ما رأى . وما قضى العجب منه بعد ولا قطع فيه بأمر اذ جاء نبأ عظيم فشغله عن ذلك كله : أن حمدان قد أعلن العصيان ، وأن القرامطة بالسواد قد قاموا معه قومة رجل واحد ، وأن معهم من القوة والاسلحة ما لا يحصى كثرة ، وأنهم هزموا جنود السلطان وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وانهم اتخذوا قاعدتهم في (مهيماباذ) حيث قامت دار هجرتهم الاولى من البطائح ، وأن الفلاحين منهم حتى الذين يقيمون في ضواحي الكوفة وأرباضها أصبحوا لا يهابون السلطان ، ويجاهرون بولائهم لحمدان ، ويترنمون بنشيد الثورة في أكواخهم وفي الطرقات :

نحن الداعون لذي العظمة
من مشرقها حتى العتمه
الارض لنا لا للظلمه !
والويل لهم في الملتحمه !

السفر الرابع

والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون •

ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لايقدر على شيء ، ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون ، الحمد لله ، بل اكثرهم لايعلمون • وضرب الله مثلا رجلين احدهما أبكم لايقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لايأت بخير: هل يستوى هوومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم •

« قرآن كريم »

- ١ -

رجع عيسى بن ميمون الخواص الى مسكنه بحى العمال فى الكوفة ، فوجد زوجته وابنتها تنتظرانه على الباب . فما كاد يقع بصرهما على القفف والزنابيل والمراوح التي يحملها على رأسه وفوق كتفيه وتحت ابطيه حتى انبرتا تعدانها وهو يقول لهما : « دعانى أضع هذا الحمل عنى أولا » وهما لاتباليان بما يقول حتى قالت الفتاة : « الله ياأماه لم يبع الا قفة واحدة » .

- قفة واحدة ولا شيء من المراوح ؟

- لاشيء . هاهي ذي كما سرح بها كاملة العدد

ولم يقل الرجل شيئا بل قصد الى ركن فى الحجرة الصغيرة التي يسكنونها وهي منزلهم فى دار مشتركة يقطنها معهم أسرتان أخريان من العمال فوضع عنه حمله ثم دلف الى فراش بال موضوع فى الركن المقابل على حصير جديد من صنع أيديهم فأماط عنه حزم الخوص الملقاة عليه ثم قعد وهو يقول : « الحمد لله على كل حال » ودنت منه زوجته فقالت : « بكم بعت القفة ياعيسى ؟ » .

فأجابها متأففا : « أما تعرفين ثمنها ياوردة؟ بكم الابدرهمين»

- لكنك بعت واحدة منها أول من أمس بثلاثة دراهم .

- ذاك امرؤ مغفل وليس يشترى منى كل يوم .

- والله انه لرجل طيب .

- أجل هو طيب عندك ومغفل عند الناس .

- ويلك ياعيسى ، تدعو الطيبين مغفلين !

فقال الرجل وهو بين التضاحك والتضجر : « لم تعجبين من هذا وانت منهم؟ تأبين الا أن نعيش هنا فى الشقاء والمسغبة وعند أخيك النعمة والملك الكبير » .

وكانت الفتاة قد خرجت من الغرفة قبل ذلك لتعد غداءهم فى المطبخ ، فلما عادت بالخوان معها سمعت زوج أمها يقول ماقال فذهبت تقول : « نعم ياأماه، دعينا نرحل الى خالى حمدان فانى مشتاقة الى رؤيته . ماذا يحملنا على البقاء هنا وغيرنا من الناس يرحلون اليه ؟ » .

فنظرت الام اليها وقالت : « اخفضى صوتك يامهجورة لايسمعك جيراننا تذكرين حمدان » فقالت الفتاة وهي تفرش الخوان أمامهما على الحصير« مالنا ومالهم؟ انهم جميعا ليذكرون

حمدان ويتعزمون على الرحيل الى بلاده » ·
فقالت الام : « أجل ولكن لاينبغي أن يعلم أحد انه خالك فيقبض السلطان علينا » · فبدرها الرجل قائلا : « والله ان بقينا هنا طويلا بعد ليعلمن السلطان بأمرنا · ان لكرامة بن مر لعيونا في كل مكان » ثم التفت الى الفتاة وقال لها : «هاتي ماعندك يامهجورة فاني والله لهالك جوعا · » فانطلقت الفتاة ثم عادت تحمل طبقا من العدس وضغثا من الكراث فوضعت ذلك على الخوان ، وعمدت الام الى زنبيل في الحجرة فأخرجت منه ثلاثة ارغفة من الذرة ثم جلس الثلاثة يأكلون ·
قال عيسى : « حرام عليك ياوردة أن تطعمينا هذا ، وهناك في (مهيماباذ) رقاق البر وألوان الفاكهة واللحم الوفير » ·
فقالت مهجورة : « والحلل والحلي والقصر الكبير » ·
وانتظر الخواص أن تقول زوجته شيئا ولكنها ظلت ساهمة وهي تمضغ عودا من الكراث في يدها بقلة اهتمام كأنما تفعل ذلك بدون وعي منها ، فلما رآها لاترجع قولا قال لها : « ان كان حمدان هذا أخاك حقا فلا والله لاأدري ماذا يمنعك أن نلحق به ونحن أهله وقد لحق به الاباعد عنه ؟ » ·
فظهر الغضب عند ذاك في وجهها ، وكانت قد غمست لقمة من الخبز في طبق العدس لتأكلها ، فألقتها بين يديها ، واضطم مبسمها الارجواني وجعل يتمور كأنه طعنة فائرة ! وعقد العبوس حاجبيها فاقترنا فوق عينين حوراوين قد قفت أهدابهما الطويلة السود فاتسعت حدقتاهما تلتمعان ، فكان منظرها جميلا رائعا · ثم اختلجت شفتاها فسمعها جليساها تقول: « أتماري في صدق قولي ياابن ميمون ؟ أتحسبني ادعيت كذبا أنني أخت حمدان ؟ ياليتني مابحت بهذا السر لك » ·
فجعل الرجل يعتذر اليها ويقول لها : « انني والله ماقصدت تكذيبك يا وردة ، فلو كان عندي أدنى شك في صدق قولك لما رأيت مني هذا الالحاح بالسفر الى أخيك »
— ارحل اليه وحدك ان شئت ، أما أنا ومهجورة فسنبقى هنا
فقالت مهجورة : « لكني أريد أن أراه يا أماه » ·
— فاتبعيه ان شئت فسأبقى هنا وحدي ·
— كلا يا أماه انني لا أقدر على فراقك ·
فقال عيسى : « علام هذا التشبث بالبقاء هنا يا وردة ؟ »

ــ قد قلت لك مرارا اننى لا أصير الى حمدان بعد ما كفر وبدل
ــ قلت لك ان هذا كذب كله وبهتان • انما أعداؤه هم الذين أشاعوا عنه هذه الاوقاويل ليصدوا الناس عن اللحاق به
ــ أليس هو على مذهب الشيخ الاهوازى ذلك الدجال المارق ؟
ــ ماذا فى مذهب الشيخ الاهوازى من بأس ؟ ما دعا الناس الا الى الزهد والصلاة ، وانما خاف الهيصم وأمثاله منه على أموالهم وأملاكهم ، لأنه أعلن حقوق الفقراء والفلاحين فيها ، فحرضوا السلطان عليه •

فقالت مهجورة : « نعم يا أماه ، لا يعقل أن يكفر خالى حمدان وانما يحسدونه على ما آتاه الله من الجاه والملك »

سكتت الأم قليلا ثم قالت : « حسبه أنه خارج على الخليفة وسيأتى يوم مصرعه كما صرع قبله صاحب الزنج وغيره من الخارجين على الدولة ! لا أريد أن أشهد معه هذا المصير » •

ــ كلا يا وردة فان أخاك قد بلغ من القوة والمنعة ما يجعله يخشى على الخليفة منه ولا يخشى من الخليفة عليه • ولولا ذلك لما تأخر المعتضد عن محاربته الى اليوم •
ــ انما يمهله المعتضد ولا يهمله •
ــ بل هو يزداد كل يوم قوة ، وجموع الناس يهاجرون اليه من كل مكان لينعموا بالعدل فى مملكته حيث الرزق مشاع بين أهلها فلا غنى ولا فقير • وان ملكه ليتسع يوما فيوما حتى يشمل بلاد الدولة أجمع •
ــ من أين علمت هذا ؟
ــ هكذا الناس جميعا يتحدثون عنه •
ــ فدعنا باقين هنا حتى يمتد الينا ملكه !

فتنهد الرجل وقال : « الى متى نصبر على هـذا البؤس والشقاء ؟ أيرضيك يا وردة أن تظل مهجورة ابنتنا فى هـذه الاسمال ولها خال ملك يقدر أن يكسوها حلل الدمقس والحرير ؟ آه ! من ذا يصدق أن صهرى رجل له ملك وسلطان ثم تأبى أخته التى عندى الا أن تبقينى خواصا أقنع بالدرهمين والثلاثة ؟ »
ــ انك تزوجتنى أرملة فقيرة تعمل خادما فى منزل أم الحارث القابلة ، وما تزوجتنى أخت ملك أو ذى جاه ، وقد عشنا على هذه الحال ثلاث عشرة سنة فى عافية وستر ، فعلام نجحد نعمة الله ونطمع فى شئ قد يمسنا من ورائه الضر والهلكة ؟ •

ـ يا ليت أم الحارث تعيش اليوم • اذا لما أقرتك على البقاء هنا فى هذه المتربة وعند أخيك الخير والنعمة •

ـ رحم الله أم الحارث فقد كانت صالحة ورعة • وقد وجدتنى شريدة بائسة فآوتنى عندها وسترتنى لوجه الله لا طمعا فى شيء منى • وقد علمتنى الفرائض والقرآن فما اخالها لو عاشت اليوم تنصحنى أن أصير الى أخ لى خارج على امام المسلمين لأجد عنده حظا من النعيم الزائل •

ورأى عيسى بن ميمون ألا سبيل الى اقناع زوجته برأيه فى ذلك اليوم ، ولكنه لم ييأس من بلوغ غرضه فى المستقبل ، اذا ما استمر يعالجها الفينة بعد الفينة بحيلة ولطف ، وله من تأييد ربيبته المتحمسة لرأيه عون كبير •

ـ ٢ ـ

فى عشية ذلك اليوم ركب الهيصم فى موكب من حاشيته وأتباعه الى دار الحكم بالكوفة ليقابل واليها كرامة بن مر فى أمر هام على موعد ضربه لزيارته • وكانت دار الحكم فى تلك الايام لا تهدأ ليلا ولا نهارا ، فهى تعج بالداخلين والخارجين من الرسل وقواد الجيش ورجال الشرطة وعمال النواحى ووفود الناس من أهل الكوفة وسائر أنحاء المنطقة وغيرها •

وكان الناس لا حديث لهم الا عن حمدان قرمط ودار هجرته « مهيما باذ » وما انضم اليها من القرى والدساكر ، وعن ازدياد قوته يوما فيوما ، وانتشار مذهبه فى البلاد ، وتسلل أفواج المهاجرين اليه من الفلاحين والعمال والصناع وغيرهم ، وعن النظام العجيب الذى أجراه حمدان فى مملكته ، حيث لا يستأثر أحد دون أحد بأرض أو مال ، فلا غنى بينهم ولا فقير •

وكانوا يتساءلون عما عسى أن يقوم به المعتضد لاخضاع هذا الخارج الخطير الشأن وللقضاء على فتنته ، بين واثق بقدرته على ذلك فليس حمدان بأقوى من صاحب الزنج قبله ، ومشفق يخشى أن يعجزه ذلك لتراخيه عن النهوض لحربه من أول ما ظهر حمدان على البطائح حتى استفحل أمره واستشرى خطره • بيد أنهم كانوا جميعا يتعجبون من سكوت المعتضد الى ذلك العهد وعدم قيامه بحركة حاسمة • وعهدهم به أنه سريع النهضة حسام للامور • وقليل منهم من يعلم أن لهذا التراخى من الخليفة صلة بحركة أبى البقاء التى تدور فى

العاصمة ويؤيدها المعتضد تأييدا تاما ، وأقل من هؤلاء من يعلم أن هذه الحركة الاصلاحية التي اعتزم المعتضد تنفيذها في البلاد ان هي الا طلائع تدبيره للقضاء على حمدان •

وكانوا يعلمون أن الهيصم وطبقة الاغنياء عامة من أشد الناس تخوفا من خطر حمدان ، وأكثرهم اهتماما بأمر القضاء عليه • فلما رأوا موكبه تلك العشية لمقابلة الوالي في دار الحكم توقعوا حدثا هاما أن يكون •

ولكن الهيصم انصرف من عند الوالي مغموما لما جبهه به الوالي من تصميم المعتضد على تنفيذ منهاج أبي البقاء ، وانصرافه بذلك عن مناجزة القرامطة ، فأدرك ألا مناص من حلول الكارثة بأمواله ، أما من هذا السبيل أو ذاك •

وكان قد اتصل به سرا قبل ذلك بأيام اسرائيل بن اسحق ، وتكلم معه في مشروع أبي البقاء ، ووجوب مقاومته واحباطه ، وهو الذي أشار عليه بمقابلة الوالي للالحاح عليه بحرب حمدان ، وأفهمه أن القضاء على حمدان هو السبيل الوحيد لحبوط مشروع أبي البقاء •

فما خرج من عند الوالي حتى دعا اسرائيل فقابله سرا في قصره.

ـ ألم أقل لك ان المعتضد وأبا البقاء يأتمران بأرباب الاموال والاملاك في البلاد للاستيلاء على ما يملكون باسم الدين ، فهل تسكتون على هذا ؟

ـ فماذا في وسعنا أن نصنع ؟

ـ على أغنياء الدولة أن يتحدوا جميعا ويعملوا على احباط هذا المشروع بكل سبيل •

ـ كيف السبيل الى جمع كلمتهم وهم متفرقون في البلاد ؟

فأراه اسرائيل رسائل وردت اليه من بعض أغنياء بغداد وواسط والموصل والبصرة والاهواز وعسكر مكرم مؤيدة كلها وجوب وقوفهم صفا واحدا دون المشروع ثم قال له : « فعليك أنت أن تسعى لجمع كلمة الاغنياء في هذه الجهة » •

ـ هذا يسير علي ولكن ماذا نصنع بعد ذلك •

ـ كل صعب يهون اذا اتحدت كلمتكم ، في وسعكم حينئذ أن تستأجروا العربان لحمايتكم وحماية أملاككم ، وترشوا العمال والولاة في الآفاق ليتقاعسوا عن تنفيذ النظام ويتوانوا في تطبيقه ، حتى يشعر الخليفة باستحالة ذلك ، فيعدل عنه

ويتخلى عن سياسة أبى البقاء • وعليكم أن ترسلوا مئات الرسائل الى الخليفة تلحون عليه فيها بالبدار لمحاربة حمدان ، وتعرضون عليه مايشاء من الاموال لتموين الجيش وتجهيزالحملة

— ٣ —

وما علم الهيصم ولا غيره حين استقبل هذا التاجر اليهودى فى قصره أن رسولا من اسرائيل كان يغذ السير الى مهيماباذ ليقابل حمدان قرمط • وقد ارتدى زى فلاح ليصرف عنه العيون ، فلا يحسبه من يراه الا أحد الفلاحين المهاجرين • فلما وصل الى منطقة الحدود وبصر به الخفراء هناك قبضوا عليه وأخذوا يسألونه فقال لهم : انه فلاح مهاجر ، فأنفذوا معه من ساقه الى عامل الحدود •

ومثل بين يدى شاب فى نحو الثلاثين ، أبيض الوجه ، تزينه جمة فاحمة تكاد تضرب فى كتفيه ، وعيناه سوداوان واسعتان لا تطرفان الا قليلا •

ـ من أين جئت يا مهاجر ؟ •

ـ من الكوفة •

ـ ماذا جاء بك عندنا ؟ •

ـ الفرار من الظلم •

فنظر العامل الى وجهه مليا ثم قال له : « حذار يا هذا أن تقول الا صدقا والا فلا تلومن الا نفسك » •

فشعر الرسول برعدة تسرى فى أعضائه وقال : « أما اذ قلت لى هذا فسأصدقك »

ـ أفلاح أنت ؟ •

ـ لا ياسيدى • أنا يهودى تاجر •

ـ فما حملك على ارتداء هذى الزى ؟ •

ـ خشية أن يحال بينى وبين الوصول اليكم •

ـ ألا تعلم أن مثلك من المحبين لجمع المال لا يمكن أن يجد عندنا ما يحب ؟ •

ـ بلى يا سيدى ، فما للاستيطان جئت ، وانما أنا رسول الى حمدان قرمط •

ـ أين الرسالة التى تحملها ؟ •

ـ أمرت أن أشافهه بها وحده •

فحرك العامل رأسه وهو ينظر اليه تصويبا وتصعيدا ، ثم أنفذه مع أحد رجاله الى مهيماباذ •

- ٤ -

لاحت معالم مهيماباذ عاصمة حمدان من بعيد ، اذ كانت مبنية على نشز كبير من الارض ، وظهرت أبنيتها البيضاء تحيط بها السفوح الخضراء من كل جانب ، فكان منظرها تحت أشعة الشمس رائعا أخاذا •

وكان الرسول اليهودى وخفيره القرمطى تخب بهما بغلتان فارهتان فى طريق معبد يتخلل الحقول والمزارع عن يمينه وشماله ، ويتعرج بينها ، فلا يريان الا ما دونهما منه ، ثم يبصران طرفه الاقصى صاعدا فى السفح حتى ينتهى الى سور المدينة •

وحين دخلها الرسول أدهشه اشتداد حركة البناء فى أحيائها ، فلا يكاد يمر بموضع الا رأى فيه أساسا يبنى ، وجدارا يقام ، وحميرا تجيء وتذهب موقرة بالمدر والجص ، وجمالا تحمل التبن أو الخشب •

وسار به القرمطى فى دروب واسعة وضيقة ، فكلما مرا بعسكرى أو جلواز أومأ صاحبه له بالتحية ، حتى أفضى به الى ميدان فسيح يقوم بجانبه قصر منيف كان للهيصم من قبل ، فاتخذه حمدان سكنه ودار حكمه ، ومن حوله قصور أخرى دونه أنشأها حمدان لخواص رجاله وحاشيته •

فاستقبله حمدان فى ديوانه بعد أن قرىء عليه كتاب عطيف النيلى عامل الحدود الذى أنفذه اليه ، وقد قام من كان عنده حينما رأوا الرسول داخلا ، كأنه كان قد أمرهم بذلك ليخلو به ما خلا كهلا ضئيل الجسم معروق الوجه بقى جالسا عن يمينه وهو يقلب أوراقا بين يديه •

ـ من الذى أرسلك الينا ؟ •

ـ اسرائيل بن اسحق •

ـ مرحبا بك • • • اقعد ثم • •

فجلس الرسول على البساط أمامه ، وظل هنيهة صامتا كأنه متردد أن يقول رسالته الا لحمدان وحده •

ـ هات فقل رسالتك فانما هذا عبدان ابن عمى وليس من دونه سر •

فأخذ الرسول يشرح له ما أصاب تجار اليهود فى الآفاق من اضطهاد المعتضد واستيلائه على دفاترهم وأموالهم وحبسها عنده لغير جريرة ارتكبوها الا أنهم كانوا يشجعون حركة العدل

الشامل ضد الظلم ٠
فتبسم حمدان قليلا ، فظن الرسول أنه سيقول شيئا ، فسكت ، ولكن حمدان ما لبث أن قال له : « أتمم ما عندك » ٠
ـ قد بعثني اسرائيل لأنهي اليك ولاءنا واخلاصنا لحركتك ، واستعدادنا لاقراضك ما تشاء من المال لتستعين به في حرب السلطان ٠
ـ لا حاجة بنا الى القرض فعندنا مال كثير ٠
ـ لا غنى لكم عن المزيد اذا حاربتم السلطان ٠
ـ ولكنا لا نريد محاربة السلطان الا اذا بدأنا بالعدوان ٠ وحسبنا أن نؤمن حدود بلادنا ، ونطبق فيها العدل الشامل فهو وحده سلاحنا ، وسنضم البلاد الينا بلدة فبلدة ، وقرية فقرية ، حتى تصبح الدولة كلها تحت حكمنا ٠
ـ فأين أنتم من حركة أبي البقاء فان المعتضد يؤيدها ليهدم بها نظامكم ! ٠
ـ تلك خطة يصعب تنفيذها ، فلن يخضع لها أغنياء بغداد ومن بينهم الرؤساء والوزراء والامراء ٠
ـ بل سيخضعهم الخليفة ، فقد عزل وزراءه السابقين وأحل محلهم رجالا من أوساط الناس ممن لا يملكون ضياعا ولا مالا ٠
ـ فسيملك هؤلاء الضياع والمال بعد قليل ٠
ـ كلا ! فأبو البقاء صارم في أمره ، وله ألوف من الاتباع من كل صنف يتبعون اشارته ولا يقدر حتى الخليفة على مخالفته ، فاذا لم تعجلوا أنتم بحرب السلطان نفذ أمر أبي البقاء وساد نظامه ٠
ـ انا أصحاب مذهب العدل الشامل ليسرنا ان يطبق نظام أبي البقاء في البلاد ما كان فيه انصاف للمظلومين وحد من طغيان المال ٠ فمرحبا بمعاونة الخليفة لنا في ذلك ٠
ـ لكن هذا سيؤدي الى هدم نظامكم ٠
ـ كلا بل سيكون ذلك تمهيدا لشيوع نظامنا ٠ ان هؤلاء المظلومين حين يذوقون قليلا من لذة العدل لن يقنعوا بالقليل ولن يهدأ لهم بال حتى يفوزوا بالعدل كله ٠
ـ اني لا أجادلك في رأيك هذا ، ولكن بغداد اليوم في اضطراب من جراء الصراع بين أغنيائها وبين أبي البقاء ، فلا تضيعوا هذه الفرصة ٠

ـ لكنا نرى أن حركة أبي البقاء هذه هي التي مكنتنا من التفرغ لشئوننا وتنظيم مملكتنا على أساس المذهب ، ولولاها لانقض المعتضد علينا من البداية فما كنا اذ ذاك بأقوى من الزنج

وانتهت المقابلة دون أن يتزعزع حمدان عن رأيه في الكف عن محاربة السلطان ، ولكنه رضي أن يحالف اسرائيل ابن اسحاق ووكلاءه في الآفاق ، وأن يستعين دعاة القرامطة بهم ، وتعهد في مقابل ذلك بأن يرد لتجار اليهود اذا سقطت البلاد في يده أموالهم التي حبسها المعتضد .

وكان عبدان ساكتا مطرقا طوال الحوار الذي دار بين حمدان والرسول اليهودي ، فلما خرج الرسول من عندهما قال لابن عمه : « ان فيما قال اليهودي لكثيرا من الحق ، فلو راجعت رأيك فيه يا حمدان » .

فأجابه حمدان : « ويحك يا عبدان ! أتظن هؤلاء اليهود يريدون لنا خيرا ؟ انهم انما يبتغون الفتنة ليغنموا من ورائها ، وهل يقوم سلطان المال الا على أكتافهم ؟ »

ـ هذا حق ولكنهم اليوم موتورون من السلطان ، ومن مصلحتهم أن نقضي عليه .

ـ فانهم قد خانوا السلطان قبل أن يفعل بهم ما فعل ، وانه ليس من مصلحتهم أن يبطل سلطان المال وهو معبودهم ، فانما أرادوا أن يضرب بعضنا بعضا وهم ينظرون ويغنمون . انهم لا يعيشون الا حيث يعيش الهيصم وابن الحطيم وأمثالهما .

ـ ولكن أبا البقاء سيقضي علينا يا حمدان .

ـ أبحد السيف يا عبدان ؟

ـ لا بل بذاك النظام الذي يدعو اليه .

ـ فما أنصفنا الرجل اذن ان دعانا الى قراع النظام بالنظام فشهرنا عليه السيف . والله لا أفعل هذا ما حييت .

ـ ٥ ـ

أدرك اسرائيل بن اسحاق لما رجع رسوله اليه ألا مطمع في حمل حمدان على اعلان الحرب ، فاغتم لذلك ، وضاعف اغتمامه ما بلغه عن مقاومة الاغنياء في بغداد لمشروع أبي البقاء أنها توشك أن تنهار . فولى وجهه ، لتحقيق ما يصبو اليه من دفع حمدان الى حرب السلطان ، شطر سلمية .

وكانت مهيماباذ تدين لسلمية بالخضوع والولاء وتنظر اليها

نظر التابع للمتبوع لأنها مركز الدعوة ، وكعبة المذهب ، ومثابة الامام المعصوم وكان الحسين بن أحمد القداحى نائب الامام المعصوم بها قد منى نفسه ، لما رأى نجاح حمدان ، بالمجىء الى مهيماباذ ليحل محله ، وما أخره عن عزمه هذا الا خوفه أن يظهر المعتضد عليها ، فآثر أن يتريث حتى يرى ما تسفر الاحداث عنه ، فلما جاءته رسائل اسرائيل بن اسحق ورسله لم تزد قلبه على حمدان وغرا ، ولكنها قطعت تردده فى وجوب البدء فى العمل .

– ٦ –

جىء الى عطيف النيلى عامل الحدود فى غد ذلك اليوم الذى أنفذ فيه الرسول اليهودى الى حمدان برجل مهاجر ، ومعه زوجته وابنته ، فلما مثلوا بين يديه راعه جمال المرأة وهى فى أسمالها البالية ، فافتتن بها حتى شغله الرنو اليها عن الأخذ فى سؤالهم كعادته الا بعد لأى .

ثم سأل الرجل سؤالا تلو سؤال ، دون أن يهتم بالاصغاء الى جوابه حتى يتمه ، وهو فى كل ذلك موكل النظرة بالزوجة الحسناء يعجمها علوا وسفلا ، وهى تتقى نظرته بضم ثيابها ورفع جيب قميصها الى أعلى لستر ما ظهر من بياض نحرها اللامع ، وبالدنو من زوجها للاستتار به . وكلما رفعت بصرها عن الارض وجدت العينين السوداوين ترنوان اليها تحت الجمة الفاحمة ، فتعود الى الاغضاء .

وقد بدأت الريبة تدب فى قلب الرجل وابنته الجارية من سلوك العامل نحو الأم الحسناء . وهمت الأم أن تثور ، لولا أن العامل ما لبث أن بش للرجل وقال : « أهلا بك وبمن معك . أنتم اليوم ضيفى ، وغدا سأنزلكم الجهة التى تختارونها من بلادنا » وقام من مجلسه فخرج بهم من ديوانه وأنزلهم داخل داره .

وما راعهم عشية ذلك اليوم الا أن جاء العامل الى حجرتهم فى الدار ، وقد اغتسل وتطيب ، فجلس قريبا من المرأة وأخذ يغازلها أمام زوجها ويقول لها : « والله وسر الامام المعصوم مافى مهيماباذ غادة أجمل منك » .

فثارت المرأة وقالت له : « اليك عنى ! ماذا تريد يا وقح ؟ »
فقال لها متلطفا : « ألا تعرفين ما أزيد ؟ أن أضع صدرى

على صدرك ؟ »
وقد بهت الرجل فلم يدر ما يصنع ، وما كاد يصدق ما ترى عيناه لفرط دهشه ٠
أما الفتاة فقد هبت تحامي عن أمها وتذود يد العامل عنها كلما مدها الى ناحية من جسمها فيقول لها : « ما شأنك أنت يا فتاتي ؟ اذهبي الى الحجرة الثانية ان شئت » فتزجره وتنهره وتقول له : « لو يعلم خالي ما تفعل لقطع رأسك ؟ »
فيتضاحك عطيف ويقول « أين خالك يا جارية ، لم تركتموه في دار الظلم ؟ »
ـ انه في مهيماباذ ٠
ـ في مهيما باذ : اذن لا خوف علي منه ٠ اننا هنا لا نقطع رؤوس الناس لمثل هذا ، فمن هو خالك يا جارية لعلي أعرفه ؟
فحاولت الام أن تمنعها من الكلام ، ولكن الفتاة مالت عنها وصاحت بأعلى صوتها « انه حمدان ! »
ـ حمدان من ؟
وهب الرجل عند ذاك ، كأنما أفاق من غشية لحقته ، ودنا من العامل فقال له وهو يرتعد من الغضب : « حمدان قرمط سبدك أما تعرفه ؟ »
فانفجر عطيف ضاحكا ثم قال « ماذا تقول يا هذا أجننت ؟ »
ـ بل أنت المجنون ، وغدا والله ليطيرن حمدان جنونك !
ـ قد أحتمل من هذه الحسناء ، ولكني لا أحتمل منك ، فاملك غضبك ٠
ـ كيف وأنت تغازل زوجتي أمامي ؟ !
ـ أيسرك أن أغازلها من ورائك ؟ فسأفعل اذن ما تحب ٠
ـ كلا لا تغازلها ألبتة ٠
ـ فهل أغازلك أنت ؟ أم أغازل هذه الفتاة ؟ ٠ انها والله لتسر العين والقلب ولكنها بعد بحاجة الى ربيع واحد ينضجها . هلمي يا فتاتي أريني ما هذا ٠
قال هذا وهو يمد يده نحو صدر الفتاة ، فردتها بشدة وصاحت « أين أنت يا خالي حمدان لترى ما يفعل بأهلك ؟ » وانفجرت باكية فجذبتها أمها وجمعتها الى صدرها تواسيها وتتقي بها شر هذا الفاسق المغير ، وهي تقول : « هوني عليك يا مهجورة ٠ غدا يرى هذا الفاسق كيف يؤدبه خالك حمدان ٠

كل هذا منك يا عيسى ! قد قلت لك ان هؤلاء القوم لا خلاق لهم ولا دين » .

فأجابها زوجها : « محال أن يرضى بهذا حمدان أخوك ! »

فقال عطيف وقد كفكف قليلا من عبثه ومجونه : « عجبا لكم أتريدون أن توهموني بأن الرئيس حمدان قريبكم حقا ؟ »

فقالت وردة : « بل هو قريبنا حقا وصــدقا ، هو أخي وأنا أخته » .

ــ ان كنت تعنين أنك أخته في المذهب فلك ذاك ، فنحن هنا جميعا اخوة وأخوات .

ــ بل أنا أخته لأبيه وأمه .

ــ فانا لا نعرف له أختا كذلك الا راجية رئيسة المشهد الاعظم

فما سمعت وردة اسم أختها حتى هزتها الذكرى ، وغلبها الشوق الى اخبارها ، فأنساها أنها بين يدي رجل يريد أن يعبث بشرفها ، فانبرت تسأله كما لو لم يكن أغضبها منــذ قليل : « وما المشهد الاعظم يا سيدي ؟ »

ــ بل أنت سيدتي يا حسناء وأنا عبدك وخادمك !

فعاد العبوس الى وجهها ، ولكنها تجاهلت مجونه وقالت له : « بالله عليك قل لي ما هو ؟ » فقال لها : « لو شهدته ليلة فلن تنسيه أبدا . هو ليلة الامام ، وسر المذهب ، ونموذج الجنة التي وعد الامام بها المستجيبين يتذوقون بعض نعيمها في هذه الحياة الدنيا . آه لو شهدته فكنت من نصيبي ! »

لم تفهم وردة حقيقة معنى المشهد الأعظم مما قال . وكانت تود أن تسأله شيئا عن أختها بعد ، ولكنها لما رأت المرض في عينيه عادها غضبها فعاذت بالصمت ، وكانت ابنتها لا تزال لائذة بصدرها وان كف عنها الدمع ، وظل زوجها واقفا دونهما كأنه يحرسهما . وساد الصمت لحظة كأنها هدينة في معركة لا يدري أحد من الثلاثة ماذا يكون مصيرها . وما تنفســوا الصعداء الا حين رأوا هذا الفاسق المغير قد قام لينصرف وهو يعتذر اليهم مما أزعجهم ، ويطيب خاطرهم ، ويؤكد لهم أنهم عنده بأمان لن يروا منه الا ما يحبون .

فلما سمع الزوج منه ذلك استوقفه قائلا : « هل لك يا سيدي أن تخبرنا متى توصلنا الى حمدان » ؟

فتغير وجه عطيف بغتة وغشيته كآبة ثم تجلد وقال :

« انه رئيسنا الاعلى ، وأنا عامل الحدود ، ليس لى أن أدع أحدا يصير اليه حتى يأتينى اذن منه بذلك .
ـ انه سيعرف أخته حين يراها .
ـ ولكنى لا أستطيع أن أخالف أمره . فأبقوا هنا عندى حتى أكتب اليه بأمركم .
ـ قل له اذن ان أخته وردة . .
ـ كلا . لا تقل له وردة . قل له عالية . .
ـ ما تقولين يا وردة ؟ أتريدين أن لا يعرفك أخوك ؟ قل له يا سيدى : وردة .
ـ كلا يا عيسى . انى عالية . هذا اسمى الاول ولا يعرف حمدان سواه .
فوقف عيسى حائرا متعجبا ، وفغرت مهجورة فاها من الدهش ، وتطلق وجه عطيف قليلا قليلا حتى استنار ، ورنقت فى عينيه تلك النظرة المريضة ، ووقف لحظة يديرهما فى وجوه الثلاثة الى أن استقرتا فى وجه تلك الفاتنة التى اسمها وردة أو عالية ثم قال بلهجة المنتصر النشوان : « فهل أكتب اليه وردة أم عالية ؟ »
فقالت عالية وهى تغض بصرها اتقاء من عينيه وقد كست الحيرة وجهها سترا رقيقا من الشجن « اكتب اليه عالية » .

ـ ٧ ـ

ما كان عامل الحدود حين وعد عالية وزوجها بالكتابة الى حمدان فى شأنها ينوى الوفاء بما وعد فقد أيقن ساعتئذ من اختلافها مع زوجها فى اختيار الاسم أنها غير صادقة فيما تدعيه ، وكان قد استبعد صحة هذه الدعوى العظيمة من أول ما طرقت سمعه ، وحسب أنهم اخترعوها حيلة للتخلص من قبضته ، وظل يعتبرها كذلك حتى ساعة هم بالانصراف قاصدا أن يطمئنهم ويزيل ما فى قلوبهم من الغم والكدر ليعود فى وقت آخر فيعالج المرأة حتى تلين ، بيد أنه لما رأى اصرارهم العجيب على اعتبار هذه الدعوى حقيقة واقعة عند غضبهم وعند رضاهم خامره شك رهيب ظل يعانى شدة وطأته ، وهو يتماسك ويتجلد خشية أن يبدو لهم منه الجزع ، وما فرج عليه كربته الا اختلاف الزوج والزوجة فى اختيار الاسم .
فحبسهم فى داره أياما قدم لهم فيها كل ما يشتهون من

طعام وشراب وكسوة فقضوها فرحين مستبشرين ، يترقبون في كل لحظة أن يرد كتاب حمدان بانفاذهم الى مهيماباذ ، وقد أنساهم ذلك حقدهم على عامل الحدود لسوء معاملته لهم في يومهم الاول ، فعقدوا عزمهم على ألا يخبروا حمدان بما كان منه في حقهم ، وأعلنوا له عزمهم هذا ليطمئن فأظهر لهم الشكر والعرفان . ولكن بقي في نفس عالية شيء منه ، اذ ترى في عينيه كلما جاء ليحييهم ويطمئن عليهم ذلك المرض الذى يملأ قلبها ريبة وشكا ، وكانوا يسألونه كل يوم عن الرد المنتظر من حمدان فكان يقول لهم « اصبروا قليلا فانه سيجيء »

الى أن جاءهم يوما فتلا عليهم رسالة زعم أنها جواب حمدان على كتابه ينكر فيها أن له أختا أخرى غير راجية ، ويتوعد عامل الحدود فيها لئن عاد الى ذكر هذه القرية أو مثلها فلا يلومن الا نفسه .

فغشى على عالية من هول الصدمة ، وذهل عيسى ومهجورة وأصابهما هم ثقيل . فلما أفاقت عالية جعلت تسب حمدان وتلعنه ، وتقول وهي تبكي : « والله انى لأخته لأبيه وأمه ، أبي وأبوه الاشعث قرمط ، وأمي وأمه أمينة الناصرية . ولكنه قد تبرأ من الله الذى خلقه ، فلاغرو أن يتبرأ من أخته المنكوبة ! يشهد الله أنى ما ارتكبت سوءا في حياتى ، ولكنه قدر مقدور على . حسبى الله منك يا حمدان ! حسبى الله منك يا حمدان ! »

ثم تنظر الى الثلاثة وتقول : « أتشكون أنتم أيضا في صدق قولى ؟ »

فيسكت زوجها وتنتحب ابنتها انتحابا ويدنو منها عطيف فيقول لها مواسيا : « أما أنا فاني أصدقك ، ولكن حمدان رئيسنا الأعلى ولا نستطيع أن نراجع له قولا » ثم يقول لها : « لا تبتئسى فسأنزلكم دارا حسنة ، وأختار لك ولزوجك ولفتاتك عملا هينا لا مشقة فيه ، وأجرى لكم رزقا موفورا » .

— بل دعنا نرجع الى بلادنا نحفظ لك هذا الصنيع .

— لا سبيل الى ذلك ياعالية ، فمن يدخل بلادنا لايخرج منها .

— لماذا ؟

— لأنها في مذهبنا كالجنة ، من دخلها لا يخرج منها أبدا الا باذن الامام المعصوم .

— لعنة الله على مذهبكم وامامكم !

فظهر على عظيف الرعب وقال لها : « بالله لا يسمعن هـذا منك أحد فان جزاءه عندنا القتل »
ــ دعهم يقتلونى فانى لا أخشى الا الله .
ــ انهم لن يقتلوك وحدك ، بل سيقتلوننا جميعا معك اذ لم نبلغ عنك . فبالله يا عالية لا تفعلى .

وما زال بها حتى هدأت ، ثم جعل يوصيهم ألا يقولوا لأحد انهم قرابة حمدان بعد أن تبرأ منهم ، والا عوقبوا وعوقب هو معهم بالقتل ، وما تركهم حتى عاهدوه على ذلك .

ــ ٨ ــ

اطمأنت عالية وزوجها وابنتها لما تركوا دار عامل الحدود ، وسكنوا بيتا صغيراأعده لهم فى الحلةالشرقية من ظاهر البلدة ، وأجرى لهم رزقا كثيرا وكسوة حسنة وكلفهم أعمالا هينة . فعالية ومهجورة تحلبان اللبن فى حظيرة للحلائب على مقربة من بيتهم ، ثم توزعانه على أهل تلك الحلة بقسط معلوم ، فهـذا كل عملهما . أما عيسى ففى مصنع للخوص فى البلدة يعمل فيه عدد من الخواصين ، وقد خصه مدير المصنع برعاية يغبطه عليها زملاؤه ، ويتعجبون من سرعة تقدمه فى الحظوة عنده ، فقـد يجىء متأخرا عن موعد العمل فلا يلومه المدير ، وقد يتباطأ فى عمله أو يتكاسل فلا يحاسبه كما يفعل مع الآخرين الذين يتقون غضبه ويخافون صارم عقابه . وانهم ليحسدون عيسى على تلك الحظوة الا أن حسدهم له لم يبلغ مبلغ الحقد عليه أو الضغينة لما كان يتصف به عيسى من لين العريكة ، وحسـن العشرة ، وحب الخير ، فكان يحسن الى زملائه بما يفضـل عن حاجته من النفقة كلما رأى أحدهم يشكو من قلة ما يأخذ من الاجر والنفقة وعدم كفايتهما لنفسه وعياله . فـكانوا يحبونه على حسدهم له .

وذات يوم وجدوه مغموما على غير عادته لا أرب له فى عمل أو حديث ، فأخذوا يسألونه عن حاله لعلهم يقدرون علىمواساته بما يكشف همه . فكان يقول لهم ما به الا قليل من الفتور يشعر به فى جسمه . وما أفضى بذات صدره الا لاثنين منهم اصطفاهما صديقين يثق بهما ويثقان به ، فكشف لهما ــ وقد اختلى بهما فى بيت أحدهما ــ ما يلقـاه من تعرض عامل الحدود لزوجته .

قال له أحدهما : « هل أكرهها على شيء لا تحبه ؟ »

فقال عيسى : « لا ولكنه يغازلها ويأخذ عليها المسالك ، فطورا يستدعيها الى داره ، وطورا يزورها ببيتنا فى غيابى ، وهى تشكو الى من مضايقته فلا أدرى ما نصنع »

ـ ما دام لا يكرهها على ما لا تحب فلا سبيل لك عليه ٠ انك حديث العهد فى مملكة العدل الشامل يا ابن ميمون ، وغدا تألف نظامنا فيزول عنك الحرج ٠

ـ كلا لا أصبر على هذا ٠

ـ ان عطيفا يؤثرك وأهلك بالرعاية وكثرة الاجر والنفقة ، فأعرض عنه ولا تفسده على نفسك ٠

ـ ويلك يا حارث كيف يسعنى أن أرى المنكر فى بيتى فأسكت ؟ ٠

ـ هبك لا ترى شيئا ولا تسمع ، وحسبك أن زوجتك لا ترضى ففي ذلك عصمة لها من شهوة العامل ٠

ـ لكنى أخشى عليها منه اذا ظل يراودها يوما بعد يوم ٠

فسكتوا قليلا ثم قال الصديق الآخر ٠ « هذا ما منعنى من الزواج هنا يا ابن ميمون ! »

ـ كيف تستقيم الاحوال على هذا المنكر ؟

ـ ما هذا عندهم بمنكر ٠ لا حرج على أحد هنا أن يستمتع بأى امرأة شاءها ما رضيت له ، وانما يعاقب اذا أكرهها على ما لا تريد ٠ هذا مذهبهم ٠

فقال الحارث مبتسما « أليس هو مذهبك أيضا ؟ آه يا عقبة لو سمعك أحد غيرنا »

فاربد وجه عقبة قليلا ثم سرى عنه وقال : « أنتما ثقتى فلا خوف على »

قال عيسى « أفان راودت امرأة العامل فأغويتها لا يكون له على سبيل ؟ »

فأجاب الحارث « لا سبيل له عليك فى المذهب »

فاستدرك عقبة قائلا : « ولكن من يحميه من سطوة العامل ؟ انه يقدر أن يغتالك يا عيسى دون أن يسأل عنك أحد »

ـ كيف ؟ ألا يعاقب على فعلته ؟ ٠

ـ أنى لك أن تثبت عليه جريمته ؟ ثم فى يده أن يعزو اليك تهمة قاصمة ٠

ـ ما التهمة القاصمة ؟

ـ خيانة المذهب ، أو التجسس للعدو ، أو السعي لاغتيال أحد الزعماء أو ٠ ٠

ـ أو ماذا ؟ ٠

ـ سب حمدان أو عبدان ٠

ـ ٩ ـ

قدم ذكرويه على حمدان بمهيماباذ فسلمه كتابا خاصا بعثه الحسين ابن القداح من سلمية ينكر فيه على حمدان تباطؤه عن محاربة المعتضد حتى تخلص المعتضد من الشغب الذى أثاره أغنياء بغداد عليه ، ويأمره بأن ينهض فى الحال لمحاربته ليقضى على حركة أبى البقاء والا أوشكت أن تقضى على المذهب ٠

بان الغضب في وجه حمدان لما قرأ عبدان الكتاب عليه ، فظل هنيهة صامتا يقلب عينيه الحمراوين تارة فى عبدان وتارة في ذكرويه حتى قال ذكرويه : « بنفسى أنت يا سيدى الرئيس ٠ لوددت لو لم أكن حملت الكتاب اليك ! »

فنظر حمدان مليا اليه ثم قال : « واجب قمت به فلاعليك »

ثم التفت الى عبدان قائلا : « أردت أن تحملنى على الخضوع لرأيك فكاتبت الحسين بن احمد فى هذا المعنى ! » ٠

ـ لا والله يا ابن عمى ما كاتبته فى هذا الامر ولا فى غيره الا بعلمك ٠

ـ أاياى تخادع ياعبدان ؟

ـ أحلف لك برب العزة يا ابن عمى ما فعلت ٠

ـ ما أشقانى بأهلى !

ـ ألا تصدقنى وقد حلفت لك ؟

ـ هل بقيت للايمان عندنا حرمة بعد ما اتبعنا مذهبكم هذا ؟

ـ ويحك يا حمدان ، كيف تقول هذا ؟ أليس هو مذهبنا جميعا ؟ ٠

ـ كلا ان مذهبى هو اجراء العدل ، ولا أرب لى فيما وراء ذلك من الحاد فى الدين ٠

فطفق عبدان يعاتبه عتابا لطيفا ويقول له : « لا ينبغى لمثلك وأنت قائد الدعوة ومختارها أن تشك فى مذهب الامام المعصوم » .

ـ انك يا عبدان لتعرف شكى فى وجود هذا الامام المعصوم ٠ ولكن دعنا من ذلك الآن وقل لى هل ترضى أن يتداخل هؤلاء

القداحيون فى شئوننا ؟ ·
ـ انهم جماعتنا وأولياؤنا وحفظة سر الامام ، فلا غضاضة علينا أن نقبل مشورتهم ونصائحهم ·
ـ لكننا لا نرضى أن نقبل أوامرهم ، ونحن أعلم بما ينبغى أن نتخذه من التدبير والسياسة فى بلادنا · حسبهم منا رسوم الامام نأخذها لهم من كد العامل والفلاح فى هذه البلاد ليكنزوها عندهم !
ـ انهم ينفقونها فى سبيل الدعوة يا حمدان ، وما كنا لننجح فى أمرنا لولا معونتهم لنا وتوجيههم من قبل ، ثم انهم ما أشاروا عليك اليوم الا بما هو الرأى
ـ هو الرأى عندك لا عندى !
ـ فلنطع اذن أمر الامام ·
ـ كلا لا أطيع أمر الامام ولا غيره · انى رئيس هذه الدولة ، وعلى أن أعمل لمصلحتها ، وليس لى أن أخضع لزيد أو عمرو ·
ـ فبم نجيب كتاب نائب الامام ؟
ـ اكتب اليه بأننا أعرف بمصلحة بلادنا منهم ·
ـ فسيظنون أننا خارجون عليهم وعلى طاعة الامام ·
ـ فاكتب اليهم ما شئت ، على أن تفهمهم أننا لن نحارب المعتضد حتى يحاربنا وأننا تاركوه ما تركنا ·
ونهض حمدان من مجلسه مغضبا ، ثم خرج وترك عبدان وذكرويه واجمين ·
ـ ماذا ترى يا ذكرويه ؟
ـ لا بأس يا فقيه الدعوة ، ما أرى الرئيس اليوم الا لقس النفس ، فلنكتم ما سمعنا منه ولنهبه ما قال شيئا ·
ـ صدقت ·
ـ ولن تعدم معه حيلة ترده الى السبيل !
فاختلجت شفتا عبدان بابتسامة فاترة وقال : « أجل ، ليس لهذا الأمر الا شهر ! »

ـ ١٠ ـ

خرج حمدان الى الصيد ـ وكان هذا دأبه كلما اكتأب أو غضب ـ فتسلل عبدان الى حيث تقيم شهر مع حمدان فى الجناح الأيمن من القصر الكبير ·
ـ ماذا جاء بك يا عبدان فى هذه الساعة ؟

ـ هل لى غنى عنك يا شهر ؟
ـ بل لديك هم تخفيه .
ـ ما أذكاك !
وقص عليها عبدان ما كان من كتاب نائب الامام وغضب حمدان من جرائه على عبدان ، لاتهامه اياه بأنه هو الذى كاتب الحسين بن أحمد في هذا المعنى ، ثم قال لها : « ليس لهـذا الأمر الا أنت يا برد الفؤاد ! » .
فقالت شهر وقد كسا محياها عبوس محبب : « لا سـبيل الى تحويله عن رأيه فى حرب السلطان ، فأرح نفسك يا عبدان من محاولة هذا الأمر » .
ـ حاولى ذلك معه مرة أخرى .
ـ لقد حاولت كثيرا حتى خشيت أن أفقد سلطانى عليه . أفيرضيك ذلك يا عبدان ؟
ـ معاذ الله ، أنت نبراس الدعوة لا غنى لهيماباذ عنك .
وسكت عبدان قليلا ثم قال : « وغضبه على ؟ »
فتبسمت وقالت : « أما هذا فلك على ألا ينام الليلة حتى أمسحه عنه »
ـ شكرا لك يا شهر ، والله لا أدرى كيف كنت أصنع لولا وجودك .
ـ فهل لك من حاجة أخرى ؟
فتنهد عبدان وقال : « حاجة القلب يا شهر ! »
فكسرت عينيها تقول مترنمة :
وذى حاجة قلنا له لا تبح بها فليس اليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه وأنت لأخرى صاحب وخليل
ـ ما نحن وذاك ؟ تلك ليلى الاخيلية قد عاشت فى الجاهلية قبل أن يشرق نور الامام المعصوم ، ولو عاشت بيننا اليوم ما قالته
ـ هذا حق ، ولكن ابن عمك يغار على منك .
ـ ولا يغار عليك من غيرى ؟
ـ ما حيلتى في ابن عمك ؟ هكذا هو !
ـ مذبذب فى المذهب !
ـ فما تقول فى راجية تلك المخلصة للمذهب ، رئيسـة المشهد الأعظم ؟
ـ ما بالها ؟

ـ تغار عليك مني ! لها الحق • انها تحبك !
ـ قبحها الله ! اني لأكرهها وتكره عيني رؤيتها ولولا • •
ـ لكنها زوجتك •
ـ نعم ، يا للدهر الهازل ! من ذا يصدق أن عبدان يتزوج في مهميماپاذ !
ـ فقد تزوجتها وكفى •
ـ ما تزوجتها الا نزولا على رغبة حمدان • هل كان لي أن أرفض الزواج وقد عرضه علي ؟
ـ فاكتف اذن بزوجتك فانها تحبك وتغار عليك •
ـ قولي لها تكتف هي بي !
ـ لا عتب عليها • رأتك كبير العقل ، واسع الصدر ، قد اقتلع المذهب من قلبك كل عادة ووهم ، فأطلقت لنفسها العنان !
ـ فعلام اذن تغار علي ؟
ـ اعذرها يا عبدان • ان رئيسة المشهد الاعظم قد تغلغل سر المذهب في جسدها ، ولكنه لما يتغلغل في روحها مثلي ومثلك •
ـ ليت شعري متى تذهب هذه الوساوس والاوهـام من صدور الناس ؟ متى يصبح حب الرجال للنساء وحب النساء للرجال كحبهم للطعام والشراب ؟
ـ هذا يحتاج الى زمن طويل •
ـ لله وللامام المعصوم ما لقيت من نصب في هذا السبيل ، ما أعمق جذور الوهم في النفوس !
ـ هي في قلوب النساء أعمق يا عبدان • فنصبي أعظم من نصبك • انك لا تدري أي جهد أبذله لاقناع امرأة ذات زوج أو صاحب تحبه بألا بأس عليها في معاشرة غيره • فان هي فعلت أرقها الشعور بالاثم وصعب اقناعها بالتخفف من هذا الوهم • أما الرجال فاقناعهم أيسر فيما أعلم •
ـ أجل يا شهر ، يسهل اقناع رجل بألا بأس عليـه في معاشرة غير زوجته أو أثيرته ، فهو ميال الى ذلك بطبعه ، ولكن العقبة أن يقتنع بأن لزوجته أو أثيرته مثـل هـذا الحق ، فلا تستهيني بنصبي •
ـ انت تلميذ الكرماني ، لاعظيم عليك ، لقد كان ـ أحسن الامام اليه ـ يعرف كيف يدعو وكيف يختار •
ـ أتذكرين أيامنا ببغداد ؟ •



ـ ما كان أحلاها ؟
ـ فهلا نعيدها !
ـ هيهات يا عبدان ، الماضى لا يعود •
ـ فى وسعك أن تجودى على بنفحة منها ولو ليلة واحدة فى العام •
ـ أليلة الامام تعنى ؟
ـ آه لا تذكريني بليلة الامام • لقد كان لى منك حظ فيها حتى جاءت فاختة المشؤومة فأفسدته علينا •

يشير عبدان بهذا الى ليلة من ليالى المشهد الاعظم عندهم ، حيث يجتمع الرجال والنساء فى ليلة مخصوصة من العام ، فيشربون ويطربون ، ثم تطفأ عليهم المصابيح فيقع كل على من يليه فى ذلك الظلام الدامس ، فاتفق أن حمدان وقع على ابنته فاختة فلما وقعت يدها على لحيته لم تملك أن قالت : « يا سوء حظى • وقع من نصيبى الليلة شيخ كبير » فعرف حمدان صوتها ، فجرها وخرج بها من المشهد ، وغضب غضبا شديدا وعزم على ابطال المشهد الاعظم ومنعه ألبتة لولا أن شهرا اعترضته ، وما زالت به حتى عدل عن عزمه • ولكنه حرم على ابنته أن تشهده ، فشق ذلك عليها فتشفعت شهر لهذه عنده ، فما قبل شفاعتها حتى أخذ على شهر عهدا أن تلزمه حتى فى المشهد الاعظم •

ـ ١١ ـ

كان حمدان قد أوى الى فراشه ليلة ، اذ قرع باب غرفته قرعا شديدا ، فصحا من نومه وقال : « من هناك ؟ »

فأجابه صوت كصوت المرأة : « أنا جلندى ! »

فنهض حمدان عن فراشه وارتدى جلبابه وخرج من الغرفة بلطف لئلا يوقظ شهرا النائمة •

وجلندى الرازى من كبار أصحاب حمدان ، لا يثق حمدان بأحد ما يثق به • وهو يتصل به رأسا ، ولا يغلق بابه دونه بليل أو نهار • وفى يده مفاتيح القصر كلها ، ويدخل عليه كلما شاء ، وحيثما كان حمدان ، بدون انتظار أو استئذان •

وهو كهل مديد القامة ، عريض الاكتاف ، أزرق العينين ، رقيق ملامح الوجه ، يتردد شعر رأسه الناعم بين الصفرة والحمرة ، وليس فى وجهه أثر للشعر ، وهو طويل الصمت

لا يتكلم الا قليلا ٠
وقداختاره حمدان رئيسا للشرطة السرية ، فله رجال منبثون في كل مكان ، لا يعرف بعضهم بعضا ، ويقومون بأعمال مختلفة ، فمنهم كتبة في الدواوين ، وأكرة في المزارع ، وعمـــال في المصانع ، وسجانون وبناءون وكناسون ، وغيرهم ٠ وله عيون من النساء أيضا من طبقات شتى ، وله على كل هؤلاء سيطرة عظيمة ، ونظام دقيق ، وقد اختار كلا منهم بعد اختبار وثقة ٠
قال له حمدان ، وقد دخلا غرفة أخرى خالية ، فأغلقـــا عليهما بابها : « ما وراءك يا جلندى ؟ »
فقال جلندى : « نبأ عظيم » ثم حكى لحمدان في جمل مختصرة بينة كيف نمى اليه أن عطيفا النيلي عامل الحدود قد ترك امرأة مهاجرة سبت حمدان ولعنت المذهب دون أن يعاقبها ، لأنه استلطفها ، بل أجرى لها ولزوجها وابنتها نفقة كبيرة وخصهم باللطف والرعاية ، ثم أغرى زوجها بالخمر والنســاء ، حتى ضعفت عزيمته فأمره فطلقها ليخلو له وجه الزوجة ، ثم اختفى الزوج فلم يعثر له على أثر ٠
فأمره حمدان بالقبض على عطيف وانفاذه اليه بأسرع مايمكنه وبانفاذ المرأة وابنتها وزوجها ان وجدوه ٠ وسرعان ما انطلق جلندى من عنده ، فعاد حمدان الى غرفته وهو يقول لنفسه : « كأنى بكبار أصحابى وقد تخلصت منهم واحدا فواحدا » ثم استلقى على فراشه فنام ٠
وما كادت الشمس تزول من الغد حتى أدخل عطيف عـلى حمدان في مجلسه بالديوان ، وعنده عبدان وعكرمة البــابلي واسحق السوزاني وغيرهم من وجوه القرامطة ، فأمر حمـدان باطلاق يديه من القيد ، فوقف أمامه يرتعد من الخوف ٠
فقال له حمدان « يعز على أن أفقدك ، فدافع عن نفسك » ٠
وكان عطيف قد علم ما سيق من أجله لما رأى عالية وابنتها قد سيقتا معه ، ولكنه ظل برهة يتجاهل التهمة حتى صرح له حمدان بها ، فجعل يدافع عن نفسه ، ويقول انه ما منعه من التبليغ عن تهمتها القاصمة الا أن بعقلها مسا ٠
فاعترضه حمدان قائلا : « بل بعينها سحر يالكع ! »
فقال عطيف : « والله وسر الامام ما نلتها بشيء »
ـ أفاختصصتها بالرعاية والنفقة الطيبة جزاء لها عـلى

ما قالت فى وفى المذهب ؟
ـ بل أردت أن أتألفها بذلك لتؤمن بالمذهب ٠
ـ أفلذلك أفسدت عليها زوجها حتى طلقها ؟
ـ انى ما أكرهته على شيء ، ولكنه وجد فضلا من النفقة عند أهله فأولع بالسكر والنساء حتى كرهت زوجته صحبته ، فأشرت عليه بتطليقها رحمة بها ففعل ٠
ـ فأين هو الآن ؟ ٠
ـ ما علمت عنه شيئا الا أن بعض رجالى حدثونى عن رجل وجدوه ميتا فى بعض طريق الحلة الشرقية ليلا فدفنوه ٠
فسكت حمدان هنيهة ثم التفت الى عبدان كأنه يسأله عن رأيه ٠ فتنحنح عبدان وقال : « ان استطاع عطيف آن يأتى ببرهان على اختلال عقلها حين لعنت المذهب وسبت قائدالدعوة برئت ساحته ! »
فنظر حمدان الى عطيف قائلا : « فما برهانك على ذلك ؟ »
ـ كلمة كبيرة قالتها لا يمكن أن يقولها من عنده مسكة من العقل ٠
ـ ماذا قالت ؟
ـ لا ينبغى أن تقال فى مقامك
ـ ويلك قلها ٠
ـ قالت انها أختك ٠
ـ أختى أنا ؟
ـ نعم ٠ ما كانت لتقول هذا لولا أنها ممسوسة العقل ٠
فاربد وجه حمدان وظل هنيهة صامتا ، وعجب الحضور فطفقوا ينظر بعضهم الى بعض ٠ قال عطيف : « قد قلت انها كلمة كبيرة ولولا أمر الرئيس لما حكيتها » ٠
فلم يجبه حمدان على كلمته هذه ، وانما قال له فى تردد واحتراس كأنما لا يريد أن يلقى هذا السؤال : « ما اسم هذه المرأة ؟ » ٠
ـ كانت تدعى وردة ٠ ٠ ٠ ثم ٠ ٠ ٠
ـ لماذا لم تخبرنى بذلك من قبل ؟ ٠
ـ ما سألتنى عن اسمها الا الساعة ٠
ـ فاسمها اذن وردة ؟ ٠
ـ نعم ولكنها ادعت بعد ذلك ٠ ٠ ٠

ــ ادعت ماذا ويلك ؟

ــ أن اسمها عالية !

ــ عالية ! هذى التي سبتني اسمها عالية ؟ ٠

ــ نعم يا سيدى الرئيس ، قد قلت لك انها مجنونة ٠

فاضطرب حمدان اضطرابا شديدا ، واستولت على عبدان حيرة ، ووجم القوم يسترقون النظر اليهما والى عطيف ، وظل عطيف واقفا لا يدرى ما يقول ، وقد ازداد اضطرابه وتفصد جبينه عرقا ٠

واذا حمدان ينهض ويأمر بحبس عطيف حتى ينظر فيأمره ، ويبرح الديوان دون أن يقول للحضور شيئا ٠ ويخرج فى أثره جلندى الرازى ٠ وتلبث عبدان قليلا ثم قام وسار وئيدا جهة الباب حتى خرج ٠

ــ ١٢ ــ

ما رؤى حمدان منذ أسس دار هجرته أشد فرحا منه يوم لقى أخته عالية ، فقد أحس حين رآها ، كأن قطعة عزيزة من نفسه ، كان قد فقدها فعادت اليه بما تحمل من ذكريات حلوة ومرة ٠ ونسى ساعة اللقيا كل شىء الا أنه حمدان القديم أخو عالية ٠ وكانت عالية قد شعرت وهى تساق الى مهيماباذ مع ابنتها بأنها تود لو ابتلعتها الارض فلا ترى عيناها وجه حمدان الذى كفر وبدل ، والذى يرتكب باسمه وتحت حكمه كل ما شهدته من الجرائر والآثام ٠ ولكنها ما كادت ترى وجهه وهو ينظر اليها بين الدهش والفرح حتى نسيت نفسها فخفت اليه باسطة ذراعيها وهى تهتف : « حمدان أخى ! » فاعتنقها وضمها الى صدره وهو يقول : « عالية ! أختى العزيزة ! » ورأى الشرطيان الواقفان ذلك ، فانسلا خارجين ٠ ولبثت مهجورة واقفة مكانها هنيهة ثم خفت اليهما فاحتوياها بينهما وعالية تقول : « هذه مهجورة بنتى يا حمدان ! » فضمها حمدان الى صدره وهو يقول : « أهلا بابنتى ، أهلا بمهجورة ٠ لن تكونى بعد اليوم مهجورة ! » ونظر اليها فرأى فيها مشابه من أمها حين كانت عذراء فى قرية الدور ، ولكن شيئا حول فمها راعه وأثار فى نفسه شعورا شبيها بالريبة لم يدرما سببه وكانت الفتاة اذ ذاك قابضة بيدها على معصمه ، فما درى حمدان كيف لمع فجأة فى ذهنه خيال ذلك المارد القبيح الخلقة الذى

طرده من قصر ابن الحطيم . بيد أنه سرعان ماطرد عن نفسه هذا الشعور الغريب وقال : « سبحان الله ... هى نسخة منك ياعالية » .

وما قطع ماهم فيه من العناق الا مجىء شهر ثم عبدان ثم راجية وفاختة وثمامة الصغير ثم الليث ، فاتصلت حلقات العناق والتقبيل تتخللها كلمات الترحيب والتأهيل وعبارات المودة والشوق ، وغلب الجميع فيض من حنان الاسرة الواحدة والرحم الواشجة لم يشعروا بمثله من زمن بعيد ، ماخلا شهرا فقد استشعرت فى تلك الساعة أنها غريبة فى أهل هذا البيت ولكن ذلك لم يمنعها من مشاركتهم فيما هم فيه كأنهاواحدة منهم ، وما خلا عبدان فلم يستطع أن يرسل نفسه على سجيتها فى التعبير عن عواطفه كأن شيئا يعوقه دون الانسجام معهم على شدة رغبته فى ذلك .

واقترحت راجية أن تنزل عالية وابنتها معها فى جناحها ، وألحت فى ذلك ، ولكن حمدان أبى وأصر على نزولهما معه فى جناحه ، فكان ماأراد .

كانت فرحة اللقيا قد غطت برهة على أبصار الجميع ، فلا ترى عالية الا أنها قد عادت بعد التشتت والضياع الى أهلها فنزلت بينهم ، وهم كذلك لايرون الا أن عدد أسرتهم قد زاد بمجىء عالية ومهجورة ، الا انهم مالبثوا بعد ذلك ان انقشعت عن عيونهم تلك الغشاوة ، ونظروا فاذا عالية ليست منهم وليسوا منها ، فهى وابنتها تصليان الفرائض وهم لا يصلون غير أنهم ما نفروا منها ، لانهم يأملون حين يطول بها المقام قليلا بينهم أن تأخذ اخذهم وتدين بمذهبهم .

وشعرت عالية أيضا بمثل ماشعروا ، وجعلت ترى منهم أشياء ينفر منها طبعها وتشمئز نفسها وهمت أن تنكرها عليهم جهارا من أول الامر لولا ماترى من عطف حمدان عليها وحدبه الشديد على ابنتها ، فحملها ذلك على السكوت عنهم الى حين . الى أن رابها ذات يوم شىء من فاختة ، وكانت عندها تزورها فاذا بشاب لاتعرفه عالية قد جاء فناداها ، فقامت فاختة تستقبله وأخذت تعانقه وتقبله فى خلاعة وتبذل على مشهد من عالية ومهجورة ثم قالت له: « هلم فسلم على عمتى الجديدة وابنتها » واقبل الشاب فصافحهما وهو يخالسهما نظرات مريبة ، فلما

رأته فاختة قد دنا من مهجورة جذبت يده وقالت : « هلم بنا الان » فخرجا منطلقين فى نشوة وعرامة ٠

فلم تستطع عالية صبرا وقامت من ساعتها فدخلت على أخيها فقصت عليه مارأت وجعلت تستنكره وتستهجنه وتقول : « كيف يكون هذا وأنت موجود فى البيت ياحمدان ؟ » وما راعها الا أن أخذ حمدان يهدئها مبتسما ويقول لها : « انك هنا حديثة العهد ياأختى ٠ هذا صاحب فاختة ونحن هنا لانرى بأسا بذلك »

فانفجرت عالية غضبا وذهبت تسب المذهب وتلعنه وتقول لحمدان : « قد كفرت وبدلت فارجع الى دينك وتب الى ربك قبل أن يدركك الموت وأنت على هذا الضلال والكفر » ٠

وحمدان يلاطفها ويهدئها ويقول لها : « لايسمعك الناس تقولين هذا يا عالية » فتثور وتقول : « دعهم جميعا يسمعوا ٠ هذا منكر كبير ٠ والله لا أعيش هنا بينكم ! ردونى الى بلدى » فيقول لها وفى صوته رقة الاستعطاف : « ويحك ياأختى ، والله لاأقدر أن أدعك تفارقيننى ٠ ليس لى هنا أحد سواك » ٠

فنالت كلمته هذه منها منالا ، وغلبتها الرقة فسكتت قليلا ثم قالت : « اذا فدعنا نعش أنا ومهجورة فى بيت وحدنا » ٠

ـ فيم ياعالية ؟ انى أحب أن تبقيا معى ، ولن ترى هنا مالا ترضين بعد اليوم ٠

ـ فلست وحدك هنا ٠

ـ اتعنين شهرا ؟ هذه تحبكما وتخدمكما ٠

ـ أفهى زوجتك ؟

فتردد حمدان قليلا ثم قال : « هى صاحبتى ياعالية » ٠

ـ بعد أن كانت صاحبة عبدان ! لا والله لايظلنى معها سقف واحد !

واتفقا فى آخر الامر على أن تعيش وابنتها فى قصر صغير يجاور القصر الكبير كان حمدان قد أعده لينزل فيه ضيوفه

ـ ١٣ ـ

بلغ راجية كما بلغ غيرها ماكان من ثورة عالية ، فاكتأبوا جميعا لهذا الحادث وأيقنوا أنه ليس من الاصطدام بعالية بد ٠ وأنكروا على حمدان أن يصانعها الى هذا الحد فى أمر من أمور العقيدة له خطره على الدعوة والمذهب، وان لم يجرؤا على مجاهرته بذلك ٠ وكانت راجية أشدهم استياء من عمل عالية ، اذ كانت

أسبقهم نفورا منها لاسباب كثيرة ، منها أنهـا رأت من تعلق حمدان بها ومبالغته في اعزازها ماأثار في نفسها كوامن الغيرة والحسد ، ومنها أنها لحظت على زوجها عبدان ظلا من الوجوم قد لازمه منذ حلت عالية بساحتهم ، فقدح في نفسها شك من جهة عالية ، فجعلت ترقبها وترقب عبدان اذا ضمهما مجلس الاهل ، فكانت ترى من عالية ازورار عنه ، فقام في نفسها أن ذلك حيلة مقصودة لاجتذابه وتأريث حبه القـديم ، وهي تنظر الى عالية فتراها أنضر منها شبابا ، وأرشق قدا ، وأبهى طلعـة ، كأنما تزيد الايام من جمالها ماتنقص منها هي .

فلما بلغها أن عالية قد منعت فاختة من لقاء مهجورة لئـلا تعديها بسلوكها ، ثار ثائرها ، وعدت ذلك فرصـة للتحرش بعالية ، فجاءتها في قصرها فما حيتها ولا سلمت عليها ، وانما اندفعت ترميها بالجهل والغباوة ، وانها لاتصلح أن تعيش في مملكة العدل الشامل وانهم كانوا في خير وسلام قبلهـا حتى حلت بساحتهم .

فتعجبت عالية من اندفاع أختها وانفجارها على هذا النحو من دون أن تسيء اليها بشيء ، فجعلت تهدئها وتقول لهـا : « ماذا أغضبك مني ؟ » .

ــ كيف تمنعين فاختة من مقابلة ابنتك ؟ ماذا بها ؟ أليست ابنة أخيك ؟ .

ــ قد استأذنت حمدان في ذلك فما قال شيئا .

ــ اني أعدها ابنتي وهي تقيم عندي .

ــ فان سلوكها لايعجبني واخشى منه على ابنتي .

ــ أتعرضين بسلوكي ؟

ــ أما اذ أثرت هذا الامر ، فاعلمي أن سلوكك ياراجيـة يندي جبيني خجلا .

ــ انت ياسبية الداعر ابن الحطيم تقولين لي هذا . !

ــ ماذنبي انا فيما اجترمه ذلك اللعين ؟

ــ ألم تلدي منه ابنة السفاح هذه التي تربأين بها عن معاشرة فاختة ؟ .

ــ كفي لسانك عن مهجورة فهي أشرف منك .

ــ أشرف مني وهي ابنة حرام ؟

ــ جناية لايد لها فيها ولا يد لي ، واني لاقول مثل هذا عن

ابنك ثمامة لولا انك اشتركت فى الجناية عليه ٠

ــ أمسكى عن ثمامة فليس ابن سفاح كابنتك ٠

ــ أما جئت بهمن ذلك الدجال الاهوازى الذى خدعكفأسلمت له شرفك ؟

ــ كان ذلك برضى منى فما هو بسفاح !

ــ أهذا هو مذهبكم ؟ عجبالكم ٠ تعـــيرون من أكره على الفاحشة وترضون عمن أتاها عن طواعية ولا أقول شيئا عن الرجال الذين تستقبلينهم فى بيتك فى غياب زوجك ٠

ــ ماشأنك أنت ؟ انى استقبلهم فى غيابه وفى محضره ٠

ــ نعم قد بلغنى أنه راض بذاك فياضيعة الرجولة ٠

ــ قد عرفت قصدك ٠ تعالنين بهذا لتجذبيه اليك ! خـذيه لك خذيه لك ! ٠

ــ لاياراجية ، لاأرضى لى بعلا من لايغار على زوجته !

ــ فعيسى بن ميمون ماذا أعجبك فيه ؟

ــ كان والله صالحا فأفسدتموه ٠

وان الاختين لفى هذه المشادة الحادة اذ جاءت شهر ، فحالت بينهما ، وجعلت تهدئهما وتقول : « هذا لايصلح ٠ انكما وان فرق المذهب بينكما لاختان ! ثم جذبت يد راجية فجرتها معها وخرجت بها من قصر عالية ٠

وكانت شهر حريصة على اجتذاب قلب عالية ، واكتســاب مودتها من أول ماقدمت عالية ، وظلت تتودد اليها بجميل القول والفعل ، حتى بعد ماعلمت باستنكافها من معايشتها فى بيت واحد ، فلم يسع عالية الا أن تقابل ودها بود وان كانت تنفر منها فى الباطن ٠ فاذا صفا الجو بينهما أخذت شهر تترفــق بها ، وتبث فيها مبادىء المذهب بلباقة ، فكانت تشد اذا لانت عالية ، وترخى اذا شدت ، وكان لها من البراعة ولطف المدخل وحسن المخرج ماتتقى به دائما غضب عالية أو بغضها ، فكانت عالية لاترى بأسا من سماع حديثها عن الدعوة وهى تضـحك وتسخر ٠ وما كانت عالية تستطيع أن تجادلها بالحجـــة ولا سيما فى الاراء المذهبية التى لاتتصل بالحياة العامة ، ولكنها كانت تحس ببصيرتها أن ماتقوله شهر باطل كله ، ويشـــتد وضوح بطلانه لها فى تلك المسائل الشديد اتصالها بحيــاة الناس ، فهى لاتستطيع مثلا ان تعد ما بين راجية وعبدان زواجا

حقا . وتستقبح المشهد الاعظم ، وتعده خزيا وعارا ، ولايعقل عندها البتة أن ذلك مظهر للتحاب والتواد كما يزعم أهـــل المذهب ، فكانت شهر اذا سمعت ذلك منها تنقطع عن النقاش دون أن تغضب أو تغضب صاحبتها ، بل انها لتخدمها وتخيط لها ملابسها وملابس ابنتها مهجورة ، وكانت تقول لها : « قد علمت ياعالية انك استنكفت أن تعايشيني فى بيت واحد .. ولكنى أعذرك ولا أحقد عليك ، لانك أتيت ذلك بوحى عقيدتك ورأيك ، ولو أنك فقهت سر المذهب لتغير رأيك فى ولأحببتنى لانك طيبة القلب ، كريمة النفس ، وانى لارجو ان يأتى يوم قريب تقتنعين فيه بصواب مذهبنا » فتبتسم لها عاليـــة ولا تقول شيئا .

الا أن عالية مالبثت بعد أن نزلت فى قصرها الخـــاص أن استقبلت النساء فيه فأخذن يترددن عليها ، فتنصحهن بالتوبة والرجوع الى دينهن ، وجعلن يشكون اليها ماتنوء به ضمائرهن من التأثم والحرج ، وينكرن مايقال لهن من ان معرفة الامـام المعصوم كافية ليسقط عنهن كل تكليف ويغفر لهن كل ذنب فتقول لهن عالية : « واين رأيتن هذا الامام ؟ » .

فلما رأت شهر هذا أدركت خطرها عليهن ، فصارت تحرض حمدان أن يكفها عن ذلك ، فيأتى حمدان اليها مرغما لايود أن يغضبها ، فيكلمها فى هذا المعنى ويتوســـل اليها ان تكف ، فتقول له : « ماذا يضيركم أن يؤمن الناس بما يشـــاؤون ؟ ألستم قد أطلقتم لهم الحرية ، ورفعتم عنهم التكليف ؟ انكم تدعون العدل الشامل فليس من العدل أن تمنعوا أحدا من أن يعتقد ما يشاء » فيمسك حمدان ويهم باخراجها من مهيماباذ ولكنه لا يستطيع الصبر على فراقها ، وقد أحس أنها قطعة من نفسه عزيزة عليه ، وأنها السبب الوحيد الذى يربطه بعـــد بماضيه : بزوجته أم الغيث وبوالدته أمينة وأبيه الأشعث . ولكن شهرا وراجية تنكران عليه سكوته على عمل عاليـــة ، وتحذرانه بأن فتنتها ستشيع فى نساء المدينة ثم تستطير الى رجالها من طريقهن . ويشاركهما عبدان فى الانكار ويشـــتد حينا فيه ثم يلين ، فتوبخه راجية وتتهمه بأنه يتحبب الى عالية فهو يغضى عن عملها لذلك . فلما كثر الانكار منهم على حمدان ، بدا له فمنع النساء من الاتصال بعالية وعزلها فى قصرها فكانت

تقول له : « أتسجنني يا حمدان لقول الحق ؟ أرجعني الى الكوفة أو أطلقني » فيجيبها متلطفا أنه لا يقدر على فراقها وأنه مضطر لما فعل والا انتقض الناس عليه ٠

- ١٤ -

كان الغيث وفاختة قد نشآ تحت رعاية عمتهما راجية منذ توفيت أمهما في قرية الدور ، فظلا متعلقين بها وبشهر بعد مجيء هذه مع عبدان ٠ وكانا يحبان هاتين المرأتين على السواء ، وبقيا على هذه الحال الى أن استقر حمدان في دار هجرته ، وظهر شغفه بشهر ، فوجد الولدان في نفسيهما شيئا من السكنى معها ، فسكنا مع عمتهما راجية وزوجها عبدان ٠ أما فاختة فكانت مولعة بتقليد عمتها في هيئتها وزيها ، وميلها الى الخلاعة والتبذل ، وكأنما كانت تتخذها مثلها الأعلى ٠ وأما الغيث فقد كان يحب عمته هوناما ، ويعتبرها كأمه ، غير أنه كان يشعر بشيء من النفور منها لتبذلها ، حتى انه كان يتضايق من تدليلها له ٠ ولكنه ظل على احترامها الى أن كانت ليلة من ليالي الامام حضرها هو كالعادة ، فانقلب منها أسيفا كسيف النفس ٠ وكان قبلها مرحا كشأن من في سنه من الفتيان ، فصار بعد تلك الليلة كئيبا محزونا ، حتى تعجب والده ومن حوله من حاله فكان اذا سئل عما به أنكر ان به شيئا ٠ وما من أحد يعلم سر حزنه وكدره الطارئين سوى راجية عمته ٠

فقد اتفق أنه لما شهد ليلة الامام ، وأطفئت المصابيح وقع هو على راجية ، وما علم ذلك الا حينما أفاق من خمار الشراب ، فأمسى تلك الليلة مهموما لايطيق النظر في وجهها وشاءت هي أن تزيل ما به فقالت له ملاطفة : « انك يا غيث لحلو المعشر ، ولكن اياك أن تعود لمثلها ! » فما زاده كلامها الا نفورا منها واشمئزازا ٠ وقالت له : « لا تبتئس فلن يعلم أحد بما وقع غير مولانا الامام ، وهو لا يؤاخذنا بأمر صنعناه في ليلته » ٠

وتعاظم نفوره منها ، حتى صعب عليه البقاء معها في منزل واحد ، ولا سيما وهو يرى في عينيها حين تنظر اليه أو تخلو به أشياء مريبة ٠ واذ كان يخشى أن ينكشف أمره لأبيه أو لعبدان صار يؤثر الاقامة في معسكرات الجيش حيث كان يتولى هو قيادة فرقة فيه ، بعد أن تدرب على أعمال الفروسية بتوجيه من أبيه ٠ فكان اذا سئل عن سبب ابتعاده عن المنزل اعتذر

بأنه يؤثر الاقامة مع رجال فرقته في معسكرهم ، ليكون أقدر على الاشراف على شئونهم ، فيمتدح حمدان صنيعه هذا ويعجب به .

وكان يحاول التخلص من تلك الكآبة الملازمة له بمختلف الوسائل فيعييه ذلك ، إلى أن قدمت عمته عالية فما ان وقع بصره عليها حتى انجذب قلبه اليها . ثم ما لبث أن رأى من جمال طلعتها ووقار مسلكها وحنانها عليه ما جعله يشعر لأول مرة في حياته بأنه قد وجد ما كانت الايام قد حرمته من حنان الأم ، فغمرها بحبه وأحلها محل التوقير من نفسه ، ثم لم يزده ما سمع من قصتها المحزنة الا حبا لها وعطفا وحنانا . وكما أحبها وأعجب بها أحب ابنتهامهجورة ، فقد وجدها نسخة جديدة من أمها في جمال الطلعة ووضاءة القسمات ، وهالةالطهر التى تكسو محياها السمح ، ومعاني الانكسار والبراءة التى تفيض من عينيها . وكانت الفتاة تبادله حبا بحب وان لم تبح به . وظل هو يكتم حبه لها زمنا اذ كان يهابها ، ثم تشجع ذات يوم فغازلها كما كان يغازل غيرها من الفتيات اللاتيعرفهن من قبل ، ولم يدر بخلده الا أن تلك هى الطريقة الوحيدة لخطب ودها . فلما نهرته وثارت عليه شعر بصدمة قاسية وأضناه هم ثقيل اذ ظن أنها لا تريده وألا سبيل له اليها فطالع أباه بأمره ، وكانت عالية قد علمت بذلك من ابنتها ، فلما كلمها حمدان فيما وقع من مهجورة للغيث استضحكت وقالت له : « ان مهجورة لتحب الغيث كما يحبها ، فان شئت يا حمدان زوجناها له على سنة الله ورسوله »

— بل على مذهب الامام .

— كلا ، الا على سنة الله ورسوله .

فلما رأى حمدان اصرارها على ما تريد ، ورأى ما يلقى ابنه من الوجد والكلف ، وكان يحبه حبا جما ، عز عليه ذلك ، فاستأذن فيه عبدان ، فعارض في أول الأمر معارضة شديدة ، ثم أذعن لرغبة حمدان على شرط أن يبقى ذلك سرا لا يعلم به أحد من أهل مملكة العدل الشامل .

وتم زواج ابن حمدان على ابنة عدوه ابن الحطيم في عاصمة القرامطة على سنة الله ورسوله ، وأنف عبدان راغم . وعاش الزوجان الحبيبان مع عالية في قصرها ، وما لبث الغيث أن تأثر

بأفكارها وعقيدتها شيئا فشيئا حتى صار يصلي الفرائض معها ، ويصوم الشهر على خوف من أبيه وملئه أن ينكروا فعله •

وكانت عالية كثيرا ما تحدثه كيف كان أبوه حمدان فلاحا صالحا حتى فتنه هؤلاء القوم ، وقد كان مظلوما فسهل عليهم استدراجه لمذهبهم الذى يسمونه العدل الشامل ، وكيف كان جده الأشعث رجلا دينا ، وجدته أمينة ووالدته سعدى من النساء الصالحات ، وأنهم لو عاشوا حتى شهدوا هذه الامور لتقطعت أكبادهم حزنا وكمدا • وقالت له يوما وهى تضحك وقد طاب المجلس بين الثلاثة ورق الحديث : « ان مهجورة زوجتك ، وأنت يا بني زوجها ، فلا أرينك يوما ترضى أن يشركك فيها أحد • انها لك وحدك يا بني ، وعليها أن تحفظ عهدك ، وترعى شرفك ، في محضرك ومغيبك ، فان علمت أنها ـ لاسمح الله ـ خانتك مع أحد سواك فلا ترين وجهى حتى تذبحها ! » فضحك الغيث وضحكت مهجورة وقالت : « وهو يا أماه أليس عليه أن يكون لى وحدى ؟ » • فأجابتها أمها بين الابتسام والعبوس : « ان كنت حريصة على رضاه فلن يجد خيرا منك فما حاجته الى غيرك ؟ » •

فضحك الغيث وقال : « انها أجمل امرأة في مملكة العدل الشامل ، وأنى لى أن أجد فيها زوجا أخرى تكون لى وحدى ؟ »

– ١٥ –

لما وثب حمدان وثبته الكبرى على ناحية القاسميات من أرض البطائح ، وتم له تأسيس دار هجرته مهيماباذ ، قسم الاراضى التى استولى عليها بين الفلاحين ليزرعوها ويستثمروها لأنفسهم ، غير أنه أوجب عليهم نظام (الالفة) الذى كان قد دعاهم اليه من قبل ، وهو أن يؤدى كل واحد منهم ما يفضل عن حاجته من الثمار والحبوب حتى يكونوا فى ذلك أسرة واحدة لا يفضل واحد منهم صاحبه وأخاه في ملك يملكه • وقد عرفهم أنه لا حاجة بهم الى أموال تكون معهم لأن الارض بأسرها ستكون وشيكا لهم دون غيرهم •

ثم أعلن فى العام الثانى أنه قد جعل الارض ملكا للدولة أى للجميع ، ثم وزعها قرى ومناطق ، وخصص لكل منها جماعة من الفلاحين لا يتعدونها الى منطقة أخرى الا بأمر منه ، وهؤلاء يعملون فيها تحت اشراف مديرين يراقبون عملهم • ولكل

منطقة أمين يعينه حمدان بنفسه ليجمع المحصول ويحفظه فى مخزنها العام . ولا يجوز للفلاح أن يأخذ من المحصول شيئا ، وانما يعطيه الأمين ما يراه كافيا له ولأهله وعياله الذين يعملون فى الارض معه .

وكذلك حال الحـــدادين والنجارين والبنائين والغزالات والنساجين وغيرهم من الصناع والعمال ، لكل منطقة كفايتها من هؤلاء ، ويجمع نتاج عملهم ويحفظ فى المخزن العام .

وقد أظهر الفلاحون والصناع وغيرهم ارتياحا لهذا النظام ، فأخلصوا واجتهدوا فى أعمالهم فى بداية الأمر ، اذ كان بين هؤلاء كثير من الفلاحين الذين ذاقوا البؤس من ظلم ملاك الارض وجشعهم ، وكثير من العمال والصناع الذين عانوا الأمرين من ظلم أصحاب العمل . وكان كثير منهم ممن اعتنق مذهب الامام المعصوم على يد الشيخ الاهوازى وحمدان من بعده ، وتحمسوا لمبادىء العدل الشامل ، وعللوا نفوسهم بزوال عهد الظلم والتفاوت بين الناس فى الرزق والثروة ، ومجىء عهـد جديد يتساوى الناس فيه ، فلا غنى ولا فقير ، ولا قوى ولا ضعيف ، اذ لا يؤذن لاحد مهما يكن قدره أن يملك شيئا من الارض أو المال .

غير أن كثيرا منهم ما لبثوا بعد أن ذهبت عن نفوسهم جدة هذا النظام وروعته الاولى أن نظروا فاذا الناس ليسوا سواسية فى ظل هذا النظام الجديد ، واذا التفاوت فى العيش بينهم باق كما كان ، فقد رأوا أنه ان أعطى لهم ما يسد جوعهم وجوع عيالهم من الطعام ، فمن طعام يختلف عن طعام غيرهم ممن هم أرقى طبقة وأعظم جاها أو أحب الى أصحاب الجاه . وأدركوا أن أحدهم ان أعطى كفاية بطنه فانه لا يعطى كفاء عمله وجهده ، فهذه الغلال والثمار والمصنوعات التى ينتجونها بعرق جبينهم وكد أيديهم لا يعطون منها الا القليل من أدنى أنواعها ، ويحمل الجزء الاكبر منها الى مخازن الدولة لمصلحة الجميع ــ كما يزعم ذلك أولو الامر فيهم ــ حيث تتمتع به الطبقات التى فوقهم ، يأخذ منه كل على حسب جاهه ونفوذه . فقد انقلب الامر من امتلاك الارض والمال ، فامتلاك السلطان والنفوذ بهما ، فى ذلك النظام الذى شهدوه من قبل ، وذاقوا منه المرارة والهوان ، الى أسلوب جديد يقوم على امتلاك السلطان والنفوذ بادىء بدء

ثم يأتي من طريق هذين امتلاك ما يخولانه لصاحبهما من بركات الارض والمال ·

ولعل قليلين منهم هم الذين استطاعوا أن يدركوا هـذه الموازنة بين النظامين ، وعدم الفرق بينهما فى النتيجة ، على حال من الوضوح يعطيهم القدرة على الافصاح عنه فى عبارات محكمة بينة ، ولكنهم الا قليلا منهم كان يحسون أن أملهم القديم في السعادة التي ينشدونها من وراء هذا النظام الجديد قد خاب وأدرك الجميع أو أحسوا ــ فقد كانوا يحسـون آكثر مما يدركون ــ أن السبيل الى التقدم فى مملكة العدل الشامل هذه ليس الاجتهاد فيما كلفوه من العمل أو التجويد فيه ، الا فيما ندر ، وانما هو السعى الى الجاه والحظوة عند أحد الرؤساء ، بضروب التزلف اليه ، والتقرب منه ، ثم التدرج بعد ذلك فى نيل الحظوة من عند رئيس الى عند رئيس أعلى منه ، حتى يصل الساعي ان واتاه الحظ الى ذلك الرئيس الاعلى حمدان قرمط · وكما أن الطموح لجمع المال ومضاعفته بالتجارة وغيرها من سبل الكسب والاستثمار فى غير هذا النظام لا ينجو دائمـا من الآفات ، ولا يخلو من الغرر ، اذ قد يجر أحيانا الى الضـياع والافلاس ، فكذلك الطموح الى الجاه والنفوذ في ظل هذا النظام القرمطى ، له آفاته وأخطاره من غضب الرئيس الاعلى أو من دونه من الرؤساء ، فويل لصاحبه حينئذ اذ قد يدفع حياته ثمنا لمغامرته من حيث لا يعلم بمصيره أحد ، ولا يسأل عنه أحد ·

فلما قوى شعور الناس بخيبة الامل فى هذا النظام ، ورأوا أنهم لا يجنون من اجتهادهم فى العمل الا ملء بطونهم من الطعام الدون من الذرة والتمر ، وقليل من اللبن والجبن ، وما يسترهم من الكساء الخشن ، بينما تحمل غلال القمح وخيار الفاكهة والتمر الى مهيماباذ ، ليتمتع بها الزعماء وأرباب الجاه والنفوذ ، وتمون بها الجنود والعساكر الذين يعلفون بأجود الطعام اسـ تعدادا للحرب ، ولا حرب ــ أخذ الفلاحون والعمال والصناع يتهاونون فى أعمالهم كلما غفلت عين الرقيب عنهم . فأثر ذلك فى نتاج الدولة من الحبوب والثمار والمصنوعات ، فتوجهت التبعة الى المشرفين والمديرين ، واتهموا بالتقصير فى المراقبة أو ضبط النتاج ، حتى عوقب بعضهم بالعزل ، وأمروا جميعا بتشديد المراقبة واحكام الضبط ، فصاروا يضـغطون

على من فى عهدتهم من الفلاحين والعمال والصناع ويطالبونهم بالاجتهاد فى العمل ويشتدون فى عقابهم لأهون تقصير يرونه منهم .

وكان حمدان حين يبلغه هذا يأخذه العجب مما يبديه هؤلاء من التراخى والتوانى وقلة الاهتزاز لهذا العدل الشامل الذى أجراه فى بلاده ، حتى يخيل اليه أنهم يتعمدون تحدى هذا النظام تعمدا ، فكان يأمر باحضارهم اليه ليعرف ما يدفع هؤلاء الناس الى التقصير فى عملهم ، مع أنهم يجدون ما يكفيهم من طعام وكسوة .

جيء يوما بفلاح ظهر منه التكاسل مرة بعد مرة ، وكان معروفا قبل ذلك بصلاح الحال ورجاحة الرأى بين جماعته ، فلما مثل بين يديه قال له حمدان « ألم أطعمكم من جوع ؟ » فأجابه « بلى »

ــ ألم أكسكم من عرى وأجعل لكم كنا صالحا تأوون اليه ؟

ــ بلى .

ــ ففيم تتكاسلون فى أعمالكم ؟ ألا تعلمون أن ذلك ضار بمصلحتكم ؟

ــ بل نحن مجتهدون فى عملنا ولا نقدر على أكثر مما نعمل .

ــ اصدقنى الحديث ويلك ! .

ــ أتعطى لى الأمان من غضبك ؟

ــ نعم .

ــ اننا يا سيدى لا نجد فى أنفسنا ميلا الى العمل لأننا لا نعمل لأنفسنا .

ــ ألا تعلمون أن عملكم هذا هو الذى منه تنالون رزقكم ؟ .

ــ بلى ، ولكن أحدنا لا يشعر بأنه يعمل لنفسه ويأخذ كفاء عمله .

ــ فهل كنتم تأخذون كفاء عملكم اذ كنتم تعملون أجراء لملاك الأرض ؟ .

ــ لا يا سيدى .

ــ فما كنتم تتكاسلون اذ ذاك هذا التكاسل !

ــ ان أردت الحق يا سيدى فان أحدنا كان يعمل أجيرا لمالك الارض يأخذ منه أجره كل يوم ، فاذا تكاسل كان لمالك الارض أن يطرده من العمل جزاء تقصيره ، فيذهب هو ليبحث عن عمل

آخر يحرص على ألا يتكاسل فيه • فكان يشعر بأن فى وسعه أن ينتقل من العمل عند سيد الى العمل عند سيد آخر • أما هنا فان الارض التى نعمل فيها كلها لمالك كبير واحد لا نقدر أن نجد عند غيره عملا ، ولا هو يقدر أن يجد قوما غيرنا عنده يعملون • وقد كنا نشعر أن السلطان هو الحكم بيننا وبين سادتنا ان ظلمونا • أما هنا فان السلطان هو الخصم والحكم •

ـ فهل كان السلطان ينصفكم من ظالميكم ؟

ـ قلما كان السلطان ينصفنا منهم ، ولكنا كنا نشعر دائما بأن لنا مطمعا فى ذلك •

ـ فأنتم اليوم فى غنى عن ذلك الانصاف لأن أحدا لا يظلمكم أو يغمطكم حقكم •

ـ بل نشعر بالظلم والغبن حين نرى كثيرا من الناس غيرنا يشاركوننا فى ثمرة عملنا ، بل يأخذون معظمها منا ، دون أن يشتركوا فى العمل •

ـ أما كان سادتكم الملاك يصنعون مثل هذا معكم ؟

ـ بلى ، ولكنا ما كنا نحسد مالك الارض على ما تخوله أرضه من الريع وان لم يشترك فى العمل ، أما هنا فقد قيل لنا ان الارض أرضنا والعمل عملنا ، فيعز علينا أن يتمتع بثمرةجهدنا سوانا ممن لا يملكون الارض ولا يعملون •

ـ أليس عندك غير هذا من شيء تقوله ؟

ـ والله لقد قلت لك الصدق كله نزولا على أمرك واعتمادا على أمانك ، ولوددنا أن لو كان فى ملكنا أن نعمل خيرا مما نعمل ونبدى مزيدا من النشاط فيه • وطالما حاولنا أن نقنع أنفسنا بوجوب ذلك علينا فيعيينا ، ولا نجد الانبعاث له من تلقاء أنفسنا ، ولا ندرى ما خطبنا الا أن هذا واقع الأمر •

وقد استدعى حمدان كثيرين غيره من الفلاحين والصناع ، فكان جوابهم لا يختلف عن جواب الفلاح الاول الا فى صيغته ، فكان حمدان يقوم من مجلسه مغتما •

قال لعبدان ذات يوم : « ما تقول فى هذا الذى تراه ؟ »

ـ هؤلاء يحنون الى الظلم من طول ما عاشوا فيه ، وهم يجتوون العدل لانهم ما ألفوه •

ـ ولكنهم كانوا مبتهجين به فى بداية الأمر •

ـ انما كانت تلك لذة الانتقال من حال الى حال ، ولا يطول

أمدها ، وقد أخبر النبى عن قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل ٠

ـ أو تذكر النبى بعد يا فقيه الدعوة وأنتم لا تؤمنون به ؟

ـ لا ضير أن نذكره حين نحتاج اليه ، واننا لا نستغنى عنه ٠

ـ فقل اذن صلى الله عليه وسلم !

ـ فسكت عبدان قليلا واصفر وجهه وظهر عليه التخاذل ثم ابتلع ريقه وقال : صلى الله عليه وسلم وعلى الامام المعصوم ٠ ٠ هذا حديث ينطبق على حال هؤلاء ، وما أخال النبى الا يعنيهم ٠

ـ ألا تدع حديث النبى يشرحه من يؤمنون به ، وتأخذ أنت فى شرح أقوال امامكم ؟ ٠

ـ ويحك يا حمدان انك قائد الدعوة ، وما ينبغى لمثلك أن يرتاب فى امامها الحق ٠

ـ انكم قوم لا تعدلون ٠

ـ فيم يا ابن عمى ؟

ـ لقد كنا نؤمن بنبينا والانبياء من قبله فشككتمونا فيهم فما قلنا شيئا ، وجئتم بامامكم الجديد فيغضبكم أن نشك ولو بعض الشك فيه ٠ أفهذا من العدل ؟

ـ ولكنك تعلم يا حمدان أن الناس اذا بلغهم أنك تشك فى امامك فسينفضون عنه وعنك ٠

فهز حمدان رأسه وهو يقول : « دعنا من حديث الامام فليس يشغلنى أن يكون حقا أو باطلا » ٠

ـ فماذا يشغلك ؟

ـ انى أريد جنة لايقاد الناس اليها بالسلاسل ٠

ـ ذلك مطلب بعيد المنال ، فهذه طبيعة البشر لا تغلب ٠

ـ فما يمنعنا أن نجارى هذه الطبيعة فى نظامنا ؟ ٠

ـ كلا ، لا بد من كبح جماحها لصلاح الناس وسعادتهم ٠

ـ ففيم اذن أبطلتم الحدود فى الشهوات وأطلقتم للناس فيها العنان ؟

ـ ما يكون لنا أن نمنعهم من لذة تهفو اليها طبيعتهم ٠

ـ فهؤلاء كما رأيت وسمعت قد فقدوا لذة العيش فى هذا النظام ٠

ـ دع عنك هذه الوساوس يا ابن عمى فلا ريب أنك قضيت على الظلم ، وحققت العدل ، اذ أقمت نظاما جديدا لا سلطان للمال فيه ٠ وان هذا لهو الذى كنت تصبو اليه من زمن بعيد ٠

فما عدا مما بدا ؟

فتنهد حمدان ولم يجب ٠

وكان حمدان قد رفع عن الناس ـ من أول ما أجرى نظامه في دار الهجرة ـ الخمسين الصلاة التى كانوا يقيمونها ، وقال لهم ان الامام قد رضيعنهم فأسقطها مكتفيا بالصلوات الخمس ٠ فما اعترض منهم على ذلك معترض ، اذ كانوا فى ذلك العهد الاول مبتهجين بالنظام الجديد ، مأخوذين بروعته ، يعتقدون فى كل كلمة يقولها فقيه الدعوة أو قائد الدعوة ، لا يرون الا أنهما يبلغان عن الامام المعصوم فيسمعون ويطيعون ٠

وظل كثير منهم يقيمون الصلوات الخمس كعادتهم من قبل دون أن يعترض عليهم أحد ، وان كانوا قد لحظوا أن أبناءهم الصغار دون البلوغ ، الذين تأخذهم الدولة لتنشئتهم على مذهب الامام وتعليمهم بعض الحرف والصناعات ، لا يعلمون الصلاة ولا شيئا من الدين الا العقيدة فى الامام ، والايمان بمذهب العدل الشامل ، والخضوع لأوامر الرئيس الأعلى ، والكراهية لمن سوى القرامطة من الناس ، وأنهم جميعا على ضلالة وكفر ، وأن أموالهم وأملاكهم حلال لهم ، فقد أباح الامام الارض كلها للقرامطة ، وأن الظلم فاش في الارض ولا يوجد العدل الا فى مملكة مهيماباذ ، وأن مذهب العدل الشامل سينتشر فى طباق الارض فتخضع الدنيا لملكتهم وتسير على نظامهم ٠

فلما اشتد المديرون والمشرفون فى محاسبة الفلاحين والعمال على تقصيرهم ، ورأوا أن الصلوات الخمس تأخذ جانبا من وقت عملهم ، أعلن الدعاة لهم أن الامام قد رفع عنهم الصلاة جملة ٠ ولكن ظل كثير منهم يصلون كعادتهم ، فأمر عبدان بهدم المساجد ونودى فى الناس بعقاب من يخالف أمر ترك الصلاة بحجة أن ذلك يدل على نقص الايمان بأوامر الامام ، فامتنعوا عن الصلاة خشية العقاب الا أن بعضهم استمروا يصلونها فى بيوتهم على خوف وحذر ٠ وما كان الأمر بترك الصلاة ليحدث ذلك السخط فى نفوسهم لو بقى ابتهاجهم بالنظام الجديد كما كان ٠ ولكنهم ـ وقد بدأوا يتململون من ضغطه عليهم وأخذه بمسالك حياتهم ، وتفتحت عيونهم على مساوئه وعيوبه ـ شعروا بالألم الشديد لهذا الامر ، وغلب على ظنهم أن ذلك

ليس من أوامر الامام وانما اشترعه عبدان ضنا بساعات عملهم أن تتحيف منها الصلاة ٠

وكان لهذا الامر أثر بالغ فى تذكيرهم بما سلبوا من حرية العقيدة وحرية العبادة ، فزاد حنقهم على العهد الجديد ، واشتد حنينهم الى ذلك العهد القديم ، حيث كانوا يجدون من طمأنينة الايمان بالله ما يهون عليهم كل ما يلقون من جور ، ويعانون من جهد ومتربة ٠

وأخذ التذمر يشيع فى النفوس رويدا رويدا ، فكان النفر من هؤلاء اذا وثق بعضهم ببعض ربما يتناجون به فيما بينهم على حذر من الرقباء قد يبلغ أحيانا الى أن يندم أحدهم على نجواه خيفة أن يكون بين النفر الذين ناجاهم عين من عيون جلندى الرازى رئيس الجلاوزة العتيد ٠ على أنهم ليحمدون الله على قلة ما يتاح لهم من فرص التناجى ، اذ كان لكل امرىء منهم من عمله الدائب تحت الرقابة الصارمة ما يشغله فيعصمهم ذلك من خطر الانزلاق فى هذه المهاوى التى لا يؤمن شرها ، وان حرمهم لذة فى التشاكى تحن اليها نفوسهم !

وأصبحوا ذات يوم فاذا شاعة عجيبة ما ملكوا أنفسهم أن تهامسوا بها اذ سمعوا أن عطيفا النيلى عامل الحدود قد قبض عليه ثم اختفى أثره ٠ وكثيرا ما سمعوا قبل ذلك بمقتل أمثاله من الزعماء واختفائهم من الوجود ، فما كانوا يهتمون به ، ولكنهم اهتموا بأمر عطيف لاتصاله فيما سمعوا بحادث غريب أثار فيهم الفضول والتطلع ، اذ يتعلق ببيت رئيسهم الاعلى ٠

ثم سمعوا أخبارا عجيبة عن أخت حمدان الجديدة : أنهـا لا تدين بمذهب الامام ، وأنها تندد بفساده أمام أخيها حمدان ، وأن بعض النسوة فى العاصمة قد افتتن بها ، ورجعن عن مذهب الامام بسببها ، وأن حمدان اعتقلها فى قصرها وعزلها عن الناس ٠

- ١٥ -

كان هذا كله يجرى فى مملكة العدل الشامل ، وان الحوادث لتجرى فيما وراءها من البلاد التابعة بعد لدولة الخلافة العباسية ، ولكنها لا تصل على حقيقتها الى أهالى مملكة مهيماباذ ، اذ كانوا فى معزل عن العالم من حولهم ، ان سمعوا عنه شيئا فكأنه صدى يأتيهم من عالم بعيد ٠

فانه لما أعلن المعتضد سياسته الجديدة على منهج أبي البقاء ثار أغنياء بغداد وكبار ملاكها ، ومعهم الوزراء والمستوزرون ، وانضم اليها بعض الفقهاء بدعوى أن في ذلك تجاوزا للحكم الشرعي في الزكاة • ولكن المعتضد قاومهم جميعا ، وبدأ التنفيذ بالقوة وقبض على زعماء الحركة المضادة ، وبعض تجار اليهود الذين يقومون سرا بتأييدهم • وكان هؤلاء يقولون له : « حارب القرامطة بدلا من محاربتنا » فيقول لهم قولة واحدة : « لولا هذا الظلم الذى تستمرئونه لما ظهرت فتنة القرامطة ولا غيرهم » • وقد بلغ من اشتداد هذه الحركة وخطرها أن دبروا لخلع المعتضد ، وتولية الخلافة لاحد الامراء من ولد المعتمد ، لولا أن المعتضد كشف سر هذا الائتمار فأحبطه ، وعاقب المشتركين فيه وفيهم بعض قواده الاتراك وبعض الوزراء •

وكان لشخصية المعتضد وشجاعته وحزمه فضل عظيم في السيطرة على الامر ، كما كان لجهاد أبي البقاء ، واخلاصه لمنهاجه ، والتفاف عامة الناس حوله ، عون كبير للمعتضد • ولكن الصعوبة ظهرت في تطبيق المنهاج ، اذ كان كثير من الذين أسند اليهم القيام به يتقاعسون عنه ، ويتضح أنهم يرتشون من الاغنياء ، فيعزلون ويولى غيرهم مكانهم • فلا غرو ان تعذر تطبيق النظام الجديد في كور بغداد وأعمالها الا بعد انصرام عام كامل •

وقد كان في عزم أبي البقاء أن يبدأ بتطبيق النظام في منطقة الكوفة أولا حيث تقوم مهيماباذ عاصمة القرامطة • غير أن ما أبداه أغنياء بغداد من المقاومة الشديدة لهذه السياسة جعله يعدل عن ذلك ، ويرى الأخذ بتطبيقه في منطقة بغداد أولا هو الأصوب ، حتى ينهار مركز تلك المقاومة ، ثم يزحف النظام رويدا رويدا صوب الجنوب الى أن يصل الى منطقة الكوفة ، ثم يشمل بلاد الدولة كلها فتحاط مملكة حمدان بهذا النظام الجديد من كل جانب • فاستصوب المعتضد رأيه وجرى عليه •

وفي خلال ذلك اكتفى المعتضد بأن أمر عماله في النواحي المتاخمة لمملكة حمدان بالاستعداد لمقاومة القرامطة ان جنحوا للحرب ، وبالقبض على دعاتهم الذين ينشرون المذهب القرمطي في نواحيهم • أما عامة الناس من الفلاحين والعمال وغيرهم فيتركون ولا يمسون بسوء ، وان أظهروا ميلا الى القرامطة ،

ما لم يقم أحدهم بدعوة سافرة الى الخروج على الدولة • وقد نتج عن هذه السياسة التى التزمها المعتضد أن بعض القرى المجاورة لمملكة حمدان قد يستشرى فى أهلها المذهب القرمطى حتى لا يمكن كبح جماحهم الا بابادتهم ، فيشير المعتضد بترك أهلها ينضمون الى مملكة مهيماباذ اذا شاءوا ، فكان أن امتد النفوذ القرمطى بذلك من بطائح الكوفة شمالا الى بادية العراق جنوبا ، ومن مشارف صحراء الشام غربا ، حيث فشا فى بعض عربان الصحراء ، الى حدود واسط شرقا •

وكان المعتضد ربما يبدو له فيعزم على محاربة حمـــدان واخضاعه بالقوة حين يروعه ازدياد نفوذه ، وامتداد سلطانه ، خشية أن يبتلع الدولة كلها ، فيراجعه أبو البقاء ويقنعه بأن ذلك ليس فى مصلحة دولة الخلافة ، لان القضاء على مهيماباذ بقوة السلاح ، حرى أن يجلب عطف أولئك العامة على القرامطة ، وأن يمثل حمدان فى عيونهم نصيرا للعدل ، ألوى به بطش القوة الغاشمة ، ويؤكد له أن النظام القرمطى لا يمكن أن يبقى طويلا اذا جاوره نظام العدل الاسلامى الصحيح • فالرأى أن يترك حمدان وشأنه حتى تنهار مملكته من تلقاء نفسها حين تنزع بأهلها سلامة فطرتهم فيثورون على ذلك النظام القائم على الالحاد ومغالبة الفطرة الانسانية • فيقتنع المعتضد ويعدل عما عزم • ومما شجعه على المضى فى هذه السياسة ما رأى من حمـــدان قرمط من توقى الحرب ، وما أنهى اليه كرامة ابن مر والى الكوفة أنه ترامى اليه من عيونه أن عبدان وغيره من زعماء القرامطـة يلحون على حمدان بشن الحرب على الدولة ، وأن حمدان لا يقرهم على رأيهم ، ويصمم على ألا يحارب الدولة الا اذا بدأته الدولة بالحرب •

واستمر نظام أبى البقاء يزحف صوب الجنوب ، وصـوب الشمال ، من بلد الى بلد ومن ناحية الى ناحية ، حتى وصـل شمالا الى منطقة الموصل ، وجنوبا الى منطقة الكوفة والنجف ، فى مطلع العام الرابع من تأسيس دار الهجرة القرمطية • ومن عجائب الامور أن ينتهى تطبيق هذا النظام فى منطقة الكوفة الى القبض على جماعة من الاغنياء المقاومين له ، فيكون بين هؤلاء خليف لحمدان ، هو اسرائيل بن اسحق ، وعدو له هو الهيصم •

كانت أنباء حركة أبى البقاء هذه ، وتأييد الخليفة لسياسته القائمة على تنفيذ أحكام العدل الاسلامى الصحيح فى أنحـــاء مملكته ، تتسرب الى مهيماباذ والمناطق التابعة لنفوذها ، فيسخر منها القرامطة ، ويتندرون عليها ، ويقوم دعاتهم بتشويههـا للناس ويقولون لهم « ان هذه الحركة التى يقوم بها أبو البقاء ، ويؤيدها الخليفة لاجراء العدل الجزئى فى بلاده ، انما يقصد بها تثبيط الناس عن الاستجابة لدعوة الحق ومذهب الامام القائم على العدل الشامل ، ثم يراد بها زعزعة عقيدتكم الراسخة فى الامام وايمانكم بمذهبه حتى اذاتم لاولئك الظلمة ما أرادوا من ذلك وتم لهم هدم دولتنا ونظامنا ـ لا سمح الله ولا سمح الامام المعصوم ـ عادوا بالناس الى ظلمهم القديم » ٠

كان هذا فى بداية الامر ، حين كان النظام لا يزال فى زحفه البطىء صوب الجنوب بعيدا عن بلاد القرامطة ٠ فلما اقترب منهم ، وصارت أنباؤه تأتى اليهم مفصلة تنطق بفضله عـلى الناس ، وفرحهم به ، ولا سيما الطبقات الدنيا من الفلاحين والعمال والصناع ، ثار ثائر زعماء القرامطة ، وأوجسوا خيفة من تأثيرها فى أهل بلدهم أن تفتنهم عن مذهبهم ، وتميل بهم عن الولاء لمملكة العدل الشامل ٠ وكان الشعور بخيبة الامل والتذمر من سوء الحال قد شاعا فى نفوس الطبقات العاملة عندهم ، وما يمسكها عن الانفجار الا خوف هؤلاء من بطش حكامهم الذين لا يرحمون ٠

فتشاور عبدان وحمدان فى هذا الامر ، واشترك معهما بعض وجوه القرامطة ، فاجتمع رأيهم على منع تسرب هذه الاخبار الى بلادهم لئلا يفتتن بها أهلها ٠ فأمر حمدان باقفال حدود مملكته بحيث لا يدخلها أحد من غير أهلها ، ولا يخرج منها أحـد من أهلها ، ولكن بعض الانباء كانت تتسلل مع ذلك اليهم ، فمنع حمدان انتقال رعاياه من بلد الى بلد آخر فى مملكته لئلايتناقلوا ما سمعوه ، وحظر عليهم كذلك أن يبعثوا رسائل الى أهلهم خارج المملكة أو يتلقوا منهم رسائل ٠ وقد كان ذلك مباحا لهم من قبل ، اذ كانت رسائلهم تفيض بذكر حسنات النظـــام القرمطى ، ووصف ما يتمتعون به من سعادة ونعيم ، وتحريض أهلهم أو أقاربهم على الفرار بأنفسهم من دار الظلم الى دار

العدل الشامل ، أما اليوم فقد منعوا من ذلك منعا باتا ، وأصبحت حتى الرسائل التى يتبادلونها فى داخل مملكة مهيماباذ لا تسلم من عين الرقيب ٠

وما انفك دعاتهم ، حتى بعد اقفال حدود البلاد يكررون على أسماعهم أن هذا الذى أجراه الخليفة فى بلاده ، انما هو خدعة لطوائف المظلومين هناك ، وتعلة لهم لئلا يفروا بأنفسهم الى مملكة العدل الشامل ٠ فاذا تخابث بعضهم وقال للداعى : « فما بال المهاجرين انقطعوا عن بلادنا منذ حين ؟ » أجابهم الداعى : « نحن منعنا دخولهم وأقفلنا حدود البلاد فى وجوههم اذ اتضح لنا اليوم أن السلطان قد شدد فى الحيلولة بينهم وبين الهجرة الينا ، فصار لا يقدر على ذلك الا أولئك الذين يرسلهم هو بصورة مهاجرين ليتجسسوا علينا » فيقولون له والريبة فى عيونهم : « فما الحكمةفى منعنا من الخروج الى بلاد السلطان؟» فيجيبهم وهو يكظم غيظه : « ان الحرب يوشك أن تنشب بيننا وبينهم ، فخشينا على رعايانا اذا قامت أن يمسهم الاذى فى بلاد العدو » ٠

فيقولون له : « فانا قد حظر علينا أن ننتقل من بلدنا الى بلد آخر فى مملكتنا » فيقول لهم : « انه قد تناهى الى أولى الامر أن كثيرا من جواسيس السلطان قد تسللوا الى بلادنا فهم اليوم بين ظهرانينا ولا نعرفهم ، فاذا لزم أهل كل بلد أو قرية بلدهم أو قريتهم كان ذلك أحرى أن يتعارفوا بينهم فينكروا الغريب اذا طرأ عليهم ويعرفوه عسى أن يكون جاسوسا » فاذا يعل بمساءلتهم قال لهم غاضبا : « ويلكم أتريدون أن تعرفوا الحكمة فى كل أمر من أوامر الامام المعصوم ؟ والله لئن بلغ فقيه الدعوة لجاجكم هذا ليأمرن بقطع ألسنتكم » فيظهرون الاقتناع بكلامه وقلوبهم تنكره ٠

- ١٧ -

وبلغ حمدان ذات يوم أن قريتين فى حدود واسط قد خلعتا طاعته وعادتا الى سلطان الخليفة ، وأن عامليه عليهما قد قتل أحدهما بأيدى العامة ، ونجا الآخر بنفسه من بطشهم ٠ ثم بلغه أن كثيرا من الفلاحين المقيمين فى الاطراف قد تسللوا هاربين الى بلاد الخليفة ، فما اغتم لذلك ما اغتم لرسالة وردته من الحسين القداحى من سلمية يطالبه فيها باضعاف ما يرسله

من جزية الامام هذا العام ، ويؤكد له ما أمره الامام به من شن الحرب على المعتضد ، وأنه لا يقبل فى ذلك عذرا ولا مراجعة ، والا فان الذى ولاه قيادة الدعوة لقادر على أن يخلعه ويوليهاغيره

وكان عبدان قد أخفى عنه هذه الرسالة أياما لا يجرؤ أن يقرأها عليه ، خشية أن يثير غضبه ، لما ورد بها من ذكر الحرب وهو يعلم أن حمدان لا يزال يتهمه بأنه هو الذى كاتب الحسين بهذا المعنى ، اذ كان ذلك من رأيه على خلاف رأى ابن عمه . ولكنه لما سمع بانتقاض القريتين على حكم مهيماباذ ، وتسلل فلاحى الاطراف الى بلاد الخليفة ، رأى الفرصة سانحة لمراجعة حمدان فى رأيه بصدد الحرب ، فأظهر له كتاب نائب الامام وقال له : « ما بقى لك مجال للتردد بعد ما رأيت الامور تسوء بنا الى هذا الحال ، فان لم تبادر الى الحرب فعلى مملكتنا العفاء »

فغضب حمدان غضبا شديدا وقال له : « قد صح عندى اليوم ما ظننته فيك . انكتأتمر بى مع هؤلاء القداحيينالاوغاد »

ـ من لى بما يكشف لك يا ابن عمى أن ما ظننته بى غير صحيح ألبتة ؟ .

ـ فما منافحتك عنهم وايثارك اياهم على ؟ وما تهديدهمبخلعى وتولية غيرى ؟ فمن ذلك الغير الا أنت ؟

ـ أتحسبنى يا حمدان أرضى أن تخلع بى ؟ والله لئن خلعوك لاخلعن طاعتهم .

فنظر اليه حمدان مليا ثم قال : « ألم يكاتبك الحسين ببعض هذا فى رسالة خاصة » .

فتلجلج عبدان قليلا ثم قال : « بلى ، فمن أخبرك ؟ ؟ » .

ـ أخبرنى الذى أخبرنى فهل ساءك أن علمت ؟ .

ـ والله ما منعنى من اطلاعك عليها الا خوفى أن ترتاب .

ـ فقد زدتنى باخفائها ارتيابا .

ـ لو اطلعت على ما رددت به على رسالته لقلت غير هذا .

ـ ماذا قلت له فى ردك ؟ .

ـ كشفت لى رسالته أنهيكيد لنا ، ويريد أن يفسد ما بيننا ، فشككت فى اخلاصه فكتبت اليه أن يخبرنا عن مقر الامام المعصوم ويرينا وجهه والا فاننى واياك لا نتقيد بأوامره .

فتهلل وجه حمدان وقال : « أو كتبت اليه بذلك ؟ » .

ـ اى والله وسأريك الساعة جوابه على كتابى .

ــ ما أرانى كنت الا ظالما لك ، فهب لى يا ابن عمى ماكان منى
ــ لا تثريب عليك يا حمدان ٠
ثم أطلعه على جواب الحسين له ، فاذا فيه أن الامام المعصوم قد أذن لعبدان وحمدان أن يطلعا على سره ، ويريا وجهه ، لما لهما من قدم وفضل فى الدعوة ، فليشخصا الى سلمية ليكون لهما هذا الشرف ٠
فقال حمدان : « أخشى أن تكون هذه خدعة من الحسين » ٠
ــ قد خطر لى مثل ما خطر لك ، فان شئت شخصت أنا اليه وبقيت أنت هنا حتى ترى ما يكون من أمرى معه ٠
ــ ولكنى أخشى عليك أيضا منه ٠
ــ كلا ، لا خوف علي منه ٠ انه ان نوى الغدر فاياك يريد ٠

ــ ١٨ ــ

كان عبدان قد هاله نجاح نظام أبى البقاء فى منطقة الكوفة ، وأيقن أن مملكة العدل الشامل مقضى عليها ان لم يبادر حمدان بمحاربة الخليفة ٠ وقد يئس من اقناع حمدان بذلك ، فرجا أن يكون فى مقابلته للامام المعصوم ، ان تم له ذلك ، ما يرفع عن حمدان الشك فى أمره فيطيعه فيما أمر به ٠ ولذلك لم يتردد فى الشخوص الى سلمية بعد أن نال موافقة حمدان عليه ٠
فاستدعى حمدان ذكرويه وأخبره بنية عبدان ، وكلفه أن يرافقه مع جماعة من رجاله الاشداء ، وألا يغفلوا عن حراسته فى سفر أو حضر ، حتى يعودوا به سالما الى مهيماباذ ٠ وقد كتموا خبر سفر عبدان عن الناس ، فلم يعلم به الا نفر من وجوه القرامطة ٠
ومر عبدان فى طريقه بصحراء الشام ، فوجد أهلها يعظمون ذكرويه ويهابونه ويأتمرون بأمره ، لا يشذ منهم عن ذلك أحد فسره أن يرى نفوذ القرامطة لا يزال قويا فى هذه الناحية ، كأنما لم يسمع أهلها بانتشار نظام أبى البقاء وتهديده لسلطان مهيماباذ ٠
فلما كانوا على أميال من سلمية استقبلهم رسول الحسين ، فقادهم الى ضيعة لآل القداح هناك ، فنزلوا واستراحوا ، وأعد لهم الطعام فأكلوا ، حتى اذا كان المغرب ظهر لهم الحسين فحياهم ورحب بهم ، ثم اختلى بعبدان فى علية له تطل على روضة غناء ، فتشقق الحديث بينهما فى شـــؤون الدعوة :

وذكريات الايام التى قضاها عبدان فى سلمية فى عهد والد الحسين ، وغير ذلك • ثم سأله الحسين عن حمدان وسبب تخلفه عن الحضور لرؤية الامام المعصوم ، فاعتذر له عبدان بأن الحال فى مهيماباذ لا يسمح له بمغادرتها ، بعد ما صار النظام الجديد الذى أجراه المعتضد يتهددها من كل جانب •

فأجابه الحسين والغضب فى وجهه : « تلك عاقبة عصيانه لأمر الامام ! » •

ـ أرجو أن يكون فى رؤيتى لوجه الامام ما يشرح صدر حمدان للعمل برأيه •

ـ أتريد حقا أن ترى وجه الامام ؟

ـ نعم ، ما قدمت الا لهذا الغرض •

فضحك الحسين ضحكة أنكرها عبدان فى نفسه ، ثم قال : « فقد جئت اذن لترى الامام ؟ »

فقال عبدان : « سبحان الله ، أما دعانا الامام لذلك فأجبنا ؟»

فمضى الحسين فى استضحاكه وهو يقول : « قد جاء فقيه الدعوة من مهيماباذ ليمتع عينيه بشهود وجه الامام ! »

ـ نعم فأين هو ؟

ـ أغمض عينيك !

فأغمض عبدان عينيه ثم قال له الحسين : « افتحهما »

ففتح عينيه وقال « أين هو ؟ »

ـ عجبا أتقول أين هو وأنت الساعة بين يديه ؟

ـ انى لا أرى أحدا سواك •

ـ فانى أنا الامام !

ـ أنت !

ـ بعد وفاة أبى انتقلت الامامة الى •

ـ كان أبوك رحمه الله ـ نائب الامام لا الامام •

ـ فمن كان الامام ؟ •

ـ رجل مستور من أهل البيت من ولد محمد بن اسماعيل •

ـ فأنا هو •

ـ كلا لست من ولد محمد بن اسماعيل ولا من أهل البيت ، وانما جدكم عبد الله بن ميمون القداح •

ـ ما تقول فى جدى عبد الله بن ميمون القداح ؟ !

ـ ماذا أقول فى مؤسس دعوتنا وخادم الامام ؟

ـ بل كان هو الامام عينه ، وقد توارثنا الامامة عنه .
ـ لكنه ما ادعى هذا لنفسه .
ـ كان ذلك تقية منه ، وما كشف عن حقيقته الا لصفوة أصحابه ، وقد ظننتك من الصفوة فكشفت لك أمرى ، فاذا أنت كالدهماء ما تزال مفتونا بالنسب العلوى !

فسكت عبدان قليلا وقد تغير وجهه وجعل يلهث ثم قال : « ان كنت تريد أن تكون الامام فأى شيء يميزك على غيرك ؟ »

ـ علمي ومعرفتي بالمذهب .
ـ أنا أعلم منك وأفقه !
ـ كان والدى أعلم منك وأفقه وعنه ورثت الامامة .
ـ نحن فى مذهب العدل الشامل لانورث المال فكيف نورث المواهب والصفات ؟

فصوب اليه القداحي نظرة ملؤها الحقد والقسوة ، وقال بلهجة صارمة : « انى ما طلبتك لاستجدى الامامة منك ، فانى الامام ولا امام غيرى ، ولو شئت أن أخلعك وأخلع ابن عمك فتعودا كما كنتما فلاحين حقيرين لفعلت ! » .

ـ لقد صدق حمدان اذ قال : انكم طلاب مال وملك ، وانما اتخذتم اسم الامام قناعا تخدعون به الناس ، ولا وجود له .
ـ ان أردت اماما غيرى فلا وجود له .
ـ فنحن اذن براء منك .

فضحك الحسين متهانفا وقال : « أبعد ماملكتم رقاب الناس باسمى تقول لى هذا ؟ »

ـ كلا ، ما ملكناهم الا باسم العدل الشامل .
ـ باسم العدل الشامل ! أمن العدل الشامل أن تسلبوا الفلاح والعامل ثمرة جهدهما لتكنزوا لانفسكم قناطير الذهب والفضة ؟ .
ـ كذبت ! انا لا نكتنز لانفسنا شيئا .
ـ فأين الاموال التى يجمعها حمدان ؟ أيهربها خارج مملكته فيشترى بها أملاكا وضياعا ؟
ـ أنتم تفعلون ذلك بالجزية التى تأخذونها كل عام ، فوالله لنقطعنها منكم .
ـ أتذكر الجزية المحدودة وتنسى القناطير المقنطرة التى تحت أيديكم ؟ .

ـ هى محفوظة في خزانة الدولة لا يمسها حمدان ولا غيره ، الا فى سبيل مصلحة الجميع ٠
ـ بل أنتما أسوة غيركما من زعماء مهيماباذ فى تسريب الذهب الى أهليكم خارج المملكة ٠
ـ كلا ، ما يفعل ذلك منهم أحد ٠
ـ ما تقول فى ذكرويه ؟ أليس من خير رجالكم ؟ ٠
ـ بلى ما خطبه ؟
ـ ما برح يرسل الذهب الى أبيه واخوته ، حتى ابتاعوا الضياع الواسعة بأرض البلقاء ، وان كانوا من قبله لصعاليك ٠
ـ هذا بهتان منك ٠ انما أردت أن تفرق بين قلوبنا بدسك ونميمتك ٠
ـ بل تعرفون ذلك جميعا وانما يتغاضى بعضكم عن بعض ٠
فضاق عبدان بحديثه ذرعا ونفد صبره فقال له : « هبنا نفعل ذلك فماذا أنت تريد ؟ »
ـ أريد نصيب الامام الذى نلتم كل هذا باسمه ٠
ـ قد خلعنا طاعته فلن يأتيه منا درهم واحد !
ـ لتندمن وشيكا على مقالك ٠
ـ أتهددنى ؟
ـ بل أنذرك !
فنهض عبدان من مجلسه غاضبا فقال له الحسين : «الى أين ؟»
ـ الى مهيماباذ ٠
ـ ألا تبيت عندنا الليلة ؟
ـ لا والله لا أبيت عند قوم غادرين !
ومشى عبدان جهة الباب فاذا ذكرويه واقف دونه والسيف فى يده ٠
ـ أنت هنا يا ذكرويه ؟
ـ نعم يا فقيه الدعوة ، هذا أمر حمدان قائدنا ألا أغفل عنك
فبدره الحسين قائلا : « لا تدعه فقيه الدعوة ويلك ! فقد خلعناه » ٠
فقال ذكرويه : « أنا من شيعة حمدان لا طاعة لغيره على » ٠
ـ قد خلعت حمدان فلا طاعة له عليك ولا على غيرك ٠
ـ حمدان رئيسنا لا نعرف سواه ٠
فقال عبدان وقد أشرق وجهه : « بارك الله فيك يا ذكرويه »

ثم التفت الى الحسين وقال « أمثلك يا قداحي تخلع حمدان ؟ انتظر قليلا تر ما يسوءك منه » •

فقال له الحسين : » بلغ ابن عمك ان وصلت اليه حيا أن غضبي سيحل عليه ، ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ! »

– ١٩ –

انطلق عبدان مع ذكرويه ورجاله في غلس الظلام قافلين الى مهيماباذ • وكان الحديث يدور بينه وبين ذكرويه فى شأن هذا القداحي الذى يدعي أنه الامام المعصوم ، وكيف أن حمدان كان صادق الحدس في أمره • فكان ذكرويه يصدقه فى قوله ، ويبالغ فى ذم الحسين وأهل بيته الدجالين الطماعين • حتى اذا وصلوا الى قرية فى بعض الطريق عند الثلث الاخير من الليل قال ذكرويه : « هؤلاء قوم من شيعتنا ، فلو نزلناعندهم نطعم ونستريح حتى يصبح الصباح » فوافقه عبدان وقال له : « أنت أمير الركب فانزل بنا حيث شئت » •

فتقدمهم ذكرويه الى دار كبيرة كأنها حصن من الحصون ، فربطوا جيادهم فى فنائها ، وهم صامتون لا يتكلمون • ودخلوا الدار يتقدمهم ذكرويه بشمعة في يده تضيء لهم الطريق ، فاذا الدار خالية ليس فيها أحد • فلما توسطوها أطفأ ذكرويه الشمعة ، فلم يشعر عبدان الا بالقوم قد شدوا عليه فجروه فى الظلام الدامس وهو يصيح : « ذكرويه ! يا ذكرويه ! » فلا يجيبه أحد حتى ألقوه فى سرداب مظلم لا يرى فيه شيئا ، وانما سمع صرير باب قد أغلق عليه ، وخفق أرجلهم منصرفين عنه ، ثم لم يسمع بعد ذلك شيئا • فأيقن عبدان أن القوم قد غدروا به ، وأن ذكرويه قد تواطأ مع الحسين القداحي ، وألا سبيل الى الخلاص من أيديهم • واستشعر رهبة من ذلك الظلام وخيل اليه أنه سيقضى الدهر فيه • ثم تذكر الصباح ، فاطمأن قليلا ، ورأى أن يتذرع بالصبر حتى يسفر النهار فيرى مايكون من أمرهم معه •

وبات برهة يتحسس الجدران فلا يجد فيها منفذا الا الباب الحديد المغلق • ثم غلبه الجهد فنام حيث انطرح من الارض • وما راعه عند الضحى الا أحد الجماعة قد دخل عليه ذلك السجن وهو شاكى السلاح ، فما حياه ولا سلم عليه ، وانما أوصد الباب من خلفه ، ثم جلس على الحصير قريبا منه ، وفى يده

سوط يلعب به ، فجعل عبدان يقول له : « ويلكم ، ما هذا الذى صنعتم بى ؟ أين ذكرويه ؟ » • فما أجابه الرجل على شىء من ذلك ، وانما ضرب السوط على الحصير كأنه يسكته بذلك ثم قال له : « العن حمدان • • تبرأ من حمدان ! » •

فعجب عبدان من قوله وأراد أن يسأله : ما دفعهم الى ذلك ؟ فما استمع له الرجل وانما ضرب الحصير بالسوط ثانية وأعاد قوله الاول ، ثم استمر الرجل فى صنيعه هذا يضرب الحصير ويقول : « ألعن حمدان • • تبرأ من حمدان ! » وعبدان ذاهل لا يدرى ما يقول والرجل يوالى صنيعه بدون انقطاع حتى فقد عبدان صوابه فغشى عليه • ولما أفاق عند الظهر وجد أمامه رجلا آخر من الجماعة ، قد أخذ يصنع معه مثل ما صنع الاول ، حتى اذا كان المغرب ، خرج الثانى ودخل ثالث منهم ، فصنع كالأولين ، وقد أظلم المكان فجىء بشمعة تضيئه ثم جاء الرابع ثم الخامس ثم السادس ثم لم يدر عبدان كم عددهم ، كلهم يصنع الصنيع ذاك ثم يقوم ويخلفه غيره طوال الليل ،لايدعون له فرصة لكلمة يقولها ، أو نعسة ينعسها ، أو شربة ماء يطلبها فما ثم الا الحصير يضرب والكلمة تقال « العن حمدان ، تبرأ من حمدان ! »

فما أصبح الصباح من اليوم التالى حتى انتفض عبدان وجعل يشد شعره كالمجنون وهو يصيح : « ملعون حمدان ! أنا برىء من حمدان ! ملعون حمدان ! أنا برىء من حمدان ! »

فكفوا عنه حينئذ وأطعموه وسقوه • وغلبه النعاس فنام ولم يستيقظ الا العصر فاذا بذكرويه قد دخل عليه ، فأراد عبدان أن يقول له شيئا فما استمع له ذكرويه بل قال له : « أمسك لسانك • أنت هنا تؤمر فتطيع دون توقف أو اعتراض ، والا فعل بك مثل اليوم الاول • أفهمت يا فقيه الدعوة ؟ » فلم يقل عبدان شيئا ، وانما أشار برأسه أن نعم ، وعلى وجهه دلائل الحيرة والانكسار •

— ٢٠ —

أما حمدان فقد قلق على ابن عمه لما طال غيابه بسلمية ، ولم يتلق منه رسالة أو يسمع عنه خبرا • فأخذت الهواجس تلعب بخاطره ، وأشفق أن يكون القداحى قد غدر به ولكن أين ذكرويه وجماعته ؟ أتراه قد بيتهم جميعا فلم يسمع عنهم أحد ؟ ولكنه

استبعد هذا الخاطر لعلمه أن جل القبائل الضاربة فى طريقهم الى سلمية من صحراء الشام تدين لذكرويه ، ولا ريب أنها قد علمت بوجهته مع فقيه الدعوة ، فلو نزل بهما مكروه لرابهـا طول غيبتهما ، فبحثت عنهما وعن رفقتهما .

فعزم على أن يرسل جماعة من الفرسان ليعلموا له علم عبدان . وانه لبسبيل انفاذهم لذلك اذ جاء رسول من عبدان فاستقبله فرحا به ، فلما قرئت الرسالة عليه اذا فيهـا بعد الديباجة : ـ

« أما بعد فقد رأيت وجه الامام المعصوم حيث كان فى موضع حجابه الاقدس ، فشملنى برضوانه ورعايته ، واصـطفانى وأدنانى . أما أنت يا حمدان فقد لعنك الامام ، وخلعك عن قيادة الدعوة ورياسة مهيماباذ ، وتبرأ منك ومن سوء عملك وعصيانك لامره الذى هو من أمر الله . وانى قد وجدته مطلعا على كل ما أسررت وأعلنت ، فقد نعى عليك ضعف ايمـانك بوجوده ، وقلة يقينك فى مذهب العدل الشامل ، وتسـترك على أختك الكافرة بالامام ، وايواءك اياها فى قصر من قصورك ، وهى تسب المذهب وتلعنه ، كما تشاء ، وتفتن نساء مهيماباذ عن دينهن . أما قاصمة الظهر التى استوجبت بها الطرد من رحمته ، والفصل من شيعته ، واللعنة الدائمة الى يوم الدين ، فهى تقاعدك الى اليوم عن محاربة دعى بنى العباس حتى فشا أمره وتفاقم على مملكة العدل الشامل خطره ، ففرطت بذلك فى الامانة التى فى عنقك . وقد ولى ذكرويه السلمانى مكانك ، فأنزل له عن منصبك طائعا قبل أن تنزل عنه راغما . وانى لالعن من لعنه الامام وأتبرأ ممن تبرأ منه . وعزيز على أن آتى ذاك لمكان قرابتك منى ، ولكن الحق أحق أن يتبع . والسـلام على من اتبع الهدى »

فطغى على حمدان الذهول ، وملكته الحيرة فانعقد لسـانه ، وظل مليا يعض شفتيه ويفرك راحتيه احداهما على الاخرى ، فأشفق قارىء الرسالة ، وامتلأ قلبه رعبا وخشية ، وجعلت الرسالة تضطرب فى يده حتى اجتذبها حمدان منه . فقد وقع فى نفسه اذ ذاك أن الرسالة قد تكون مزورة على عبدان . ولكنه لما تأملها لم يبق عنده شك فى أنها بخط عبدان وتوقيعه . فزادت حيرته . فصرف القارىء وخلا بنفسه وجعل يتسـاءل

مليا ماذا دفع ابن عمه الى ذلك • ثم انجابت عنه الحيرة شيئا فشيئا كلما تذكر أمرا من الامور التى كان عبدان على خلاف معه فيها ، كاختلافهما فى حرب المعتضد ، ووجود الامام ، وارسال الجزية اليه ، وبقاء عالية فى مهيماباذ ، وغيرها • وتذكر رسالة الحسين الخاصة وكيف أخفاها عبدان فى أول الامر عنه ثم رسالته الثانية التى دعاه فيها الى مشاهدة الامام جوابا لكتاب عبدان اليه ، فأيقن أن عبدان قد خانه وتواطأ مع القداحى وذكرويه عليه • فتنزى قلبه من الالم لهذه الخيانة من ابن عمه الذى رباه صغيرا وتولاه كبيرا وزامله فى الجهاد لتحقيق العدل الشامل ، وكان يثق به الثقة كلها • ولكنه طوى الالم فى صدره ، ونهض متجلدا ، ودعا ابنه الغيث وقال له : « هلم الى الصيد » •

ولما رجع من صيده دعا جلندى الرازى وبعد أن قص عليه ما كان من عبدان قال له : « أما رابك شيء من جهة عبدان قط ؟»

فقال جلندى : « لا والله ما علمت عليه الا الاخلاص لك » •

ـ لعلك غفلت عنه لمكانه منى وثقتى به •

ـ كلا ما غفلت عنه ، وان لى لعيونا عليه وما أخاله يغدر بك الا مكرها •

فأمره حمدان أن يرسل من خاصة رجاله من يستقصى خبره

وقد أدرك حمدان أن ذكرويه لا يلبث أن يثير أتباعه فى صحراء الشام ليغير بهم على مهيماباذ وأن القداحى سيعاونه بالمال والنفوذ ، فخطر له أن يعاجله فيجرد عليه حملة تخضع أولئك الاتباع لسلطانه ، فيفسد بذلك على القداحى تدبيره ، ولكنه آثر أن يتريث قليلا حتى يستيقن بعد من خيانة عبدان التى يعز عليه أن يصدق بها على توافر الادلة التى تثبتها •

ولم يغفل فى أثناء ذلك عن تصريف شؤون دولته ، والتيقظ لما يهددها من ناحية الخليفة المعتضد • على أن اهتمامه بهذا الخطر لم يعد شغله الشاغل كما كان من قبل ، اذ صار أهم منه عنده أن يحول دون بلوغ القداحى وتابعيه الخائنين ما يريدون • فشرع يحول كثيرا من الجنود ، الذين كان أقامهم على الحدود لمواجهة خطر السلطان ، الى حيث يرابطون تلقاء صحراء الشام ، ليكونوا على أهبة لمنازلة خصومه الجدد •

وأخذ العيون الذين أنفذهم جلندى الرازى لتقصى أخبار

عبدان يرجعون واحدا بعد واحد ، فيقصون على حمدان أغرب الانباء عن عبدان وذكرويه . واتفقت رواياتهم على أنهم شاهدوهما يطوفان بأحياء البادية من أتباع المذهب وغيرهم ، ومعهما براءة من الامام المعصوم بخلع حمدان ولعن من يواليه ، فكلما نزلا عند قوم منهم قرأ عليهم ذكرويه براءة الامام ، ثم يقوم عبدان خطيبا فيهم فيذكر مثالب حمدان وكفره بالمذهب وخروجه على طاعة الامام وتقاعده عن محاربة المعتضد ، ثم يحرضهم على النهوض لمحاربته حتى ينزعوا حكم مملكة العدل الشامل من يده ليليها صاحبهم ذكرويه الرئيس الجديد الذى عينه الامام المعصوم مكان حمدان المخلوع ، فانهم ان فعلوا ذلك أنقذوا مملكتهم من الوقوع في قبضة المعتضد نصير الظلم وحامى سلطان المال ، والا فعلى مملكة العدل الشامل العفاء .

وكانت الاحوال فى مملكة حمدان تزداد سوءا كل يوم ، فالقرى الواقعة فى الاطراف تنتقض عليه ، فتطرد عماله أو تفتك بهم ، والفلاحون والعمال وغيرهم يتسللون ما أمكنهم فيهربون ، ومن لا يقدرون على ذلك منهم يتململون ويتذمرون ، وقد ازداد توانيهم عن أعمالهم وتواكلهم فيها ، فيضربون على ذلك ويجلدون ولكنهم لا يبالون . وعادوا فى بعض الدساكر والقرى يقيمون الخمسين الصلاة ليتشاغلوا بها عن العمل المفروض عليهم ويقولون : « هذه فريضة الامام المعصوم لا ننقطع عنها لقول أحد » فاذا عوقبوا على ذلك احتشدوا جماعات جماعات فساروا فى الدروب يهتفون بأعلى صوتهم ويرددون : —

نحن الداعون	لذى العظمة
من مشرقها	حتى العتمه
الارض لنا	لا للظلمه !
والويل لهم	فى الملتحمه !

فلا ينفض احتشادهم حتى يكون منهم ومن رجال الشرطة أو الجنود قتلى وجرحى كثيرون . وقد تعاظمت جرأتهم على ذلك لما انتشر فيهم انتشار النار فى الهشيم نبأ خروج عبدان وذكرويه على حمدان ، ولحاقهما بسلمية عند نائب الامام ، وان الامام المعصوم قد خلعه عن القيادة والرياسة وتبرأ منه وممن يواليه ، وقد طربوا لهذا النبأ العظيم وبشر بعضهم بعضا بأن له ما بعده .

وما فعلوا ذلك شماتة برئيسهم حمدان ، فانهم ليحبونه جميعا ويجلونه ، وهو أحب الى نفوسهم وأقرب الى قلوبهم من عبدان وذكرويه وغيرهما من سائر الزعماء والكبراء وانما ضاقوا بالحال الذى هم فيه ، فأملوا أن يكون فى هذا النبأ ما يؤذن بقرب انفراجه ، ويعجل خلاصهم من سياط المراقبين ، وحساب المشرفين ، وبغى الحاكمين والمديرين واسراف أرباب النفوذ المقربين ، ومن ذلك الهلع الذى لا يفارق قلوبهم ، من وشاية الواشين ، واحصاء المحصين من رجال جلندى الرازى عين العيون ورئيس الزبانية الرهيب .

- ٢١ -

قضى حمدان شهورا وهو يترقب مسير ذكرويه لغزو بلاده ، ويستعد لملاقاته وتبديد جموعه حتى بلغه آخر الامر أنه قد تحرك برجاله وفرسانه من أتباع المذهب وغيرهم من عربان الصحراء فى جمع كبير . وكان يظن أن ذكرويه سيشتبك بجمعه الكثيف معه فى معركة فاصلة ، فخرج له بجيش قوى على جادة الطريق من الصحراء الى مهيماباذ حيث بلغه من عيونه أن ذكرويه مقبل بجمعه من ذلك الوجه . فلما توغل بجيشه هناك لم يجد الا شراذم قليلة من رجال ذكرويه ناوشوه القتال ثم تفرقوا . فقفل حمدان برجاله الى مهيماباذ مغمومين ، قد نهكهم الجهد ، وأضعف همتهم خيبة الأمل فى لقاء عدوهم والنيل منه . وكان حمدان عسيا الا يفوته التيقظ لخطة خصمه وتدبيره ـ فلا يغامر هذه المغامرة قبل أن يستوثق من نجاحها وفائدتها ـ لولا أن فرط تشوقه الى القتال قد أنساه كثيرا من حزمه ورأيه .

ولما وصل الى عاصمته اذا به يعلم أن ذكرويه قد فرق رجاله فهجموا على أطراف المملكة من نواح شتى ، فغنموا منها وقتلوا بعض من قاومهم من أهلها . ونشروا فى سائرهم براءة الامام فبلبلوا عقائدهم وشطروهم فريقين : فريقا يتعصب لحمدان ، وفريقا يتعصب لذكرويه ، ثم انطلقوا هاربين .

واستمر ذكرويه بعد ذلك يشن الغارات على هذا الاسلوب ، فيوزع رجاله عشرة عشرة ، أو عشرين عشرين ، يأمرهم فيهجمون على هذه الناحية أو تلك ، فينشرون فى أهلها الفتنة ، ويصيبون من رجال حمدان ولا يصابون ، ثم يلوذون بالصحراء

ويتفرقون . ثم أخذ بعض أهل البلاد يساعدون هؤلاء المغيرين ويتجسسون لهم بل راح بعضهم فانضموا الى عصابات ذكرويه طمعا في المال والغنيمة .

وبلغ ذلك حمدان فلم يعجب كثيرا لوقوعه ، اذ أدرك أنهم لا يفعلون ذلك لانهم يحبون ذكرويه ويؤثرونه عليه ، بل لانهم يريدون الخلاص من الضيق الذى هم فيه بأى سبيل وعلى أى وجه . وقد علم كذلك أن كثيرا من جنوده قد بدأت تحيك فيهم براءة الامام التى ينشرها ذكرويه جهده ، فما جاهروا بعصيان حمدان . ولكنهم فقدوا النية في قتال ذكرويه . أما طائفة دعاة المذهب فقد مالت قلوبهم جميعا عن حمدان وتعصبوا لعميدهم فقيه الدعوة عبدان الذى تبرأ منه كما تبرأ منه الامام . وكان عدد هؤلاء كبيرا ، فصاروا يبثون سرا فى كل ناحية وجوب تأييد ذكرويه لان الامام قد ولاه القيادة مكان حمدان وقد كانوا يحقدون على حمدان من قبل ويتهمونه ببغضهم وتحقير شأنهم ، والمعارضة فى زيادة أرزاقهم ، والاستخفاف بعقائد مذهبهم ويقولون : « لولا عبدان لذقنا منه الهوان » .

كل هذا دعا حمدان الى التفكير في أمره ، وفي مصير هذه المملكة التي يحكمها ، فجعل يحاور نفسه ويناقشها في موقفه من الخليفة العباسى ، وموقفه من القداحى وأتباعه ، ويستعرض الاحوال التى دفعته الى الخروج على حكم السلطان وتأسيس مملكة مهيماباذ على أساس العدل الشامل ، ثم ما انتهت اليه الامور بعد ذلك من قيام نظام أبى البقاء العادل فى بلاد الخليفة ـ فسعد أهلها من حيث شقى أهل مملكته وتذمروا من نظامه ـ وانكشاف أمر هؤلاء القداحيين الدجالين ، وفساد مذهبهم ، وسوء نيتهم ، واختلافهم معه ، وتحريضهم رجاله عليه . فها هم أولاء اليوم يحاربونه بسلاح هذا المذهب الفاسد الذى لم تطمئن اليه نفسه قط وانما جارى عبدان فيه حرصا على النجاح فى تحقيق العدل الذى يصبو اليه .

فانتهى من هذا التفكير الى الاقتناع بأنه كان قد أراد بالناس الخير فانقلب الى شر ، وأن عليه اليوم أن يحول بكل سبيل دون وقوع أهل مملكته فى براثن هؤلاء القداحيين وأتباعهم ، وأن ينقذهم من شر الافتتان بسيء مذهبهم أو شر التعرض لغارتهم وعدوانهم . وقد أيقن أن ذكرويه ان قدر له النجاح فسينهض

بهم لمحاربة المعتضد فيركب بهم الصعب ويحملهم المشقة والجهد ، ويزيدهم عذابا فوق العذاب ·

فهم أول الامر بأن يعلن التسليم الى سلطان الخليفة والرجوع الى طاعته ، ولكنه خشى ألا يوافقه رجاله على هـذه الخطة ، فيميلوا عليه ميلة واحدة مع ذكرويه ، فلم يبق أمامه الا أن يترك للناس اختيار ما يصيرون اليه بأنفسهم ، فما لبث أن أمر بفتح الحدود ، وأعلن فى الناس جميعا أن من شاء منهم البقاء فى بلاده فليفعل ، ومن شاء اللحاق ببلاد الخليفة فليفعل ، وله أن يحمل معه ما يشاء من المتاع الذى فى يده · فازدحمت حدود البلاد بألوف المهاجرين من مملكة العدل الشامل ، وخشى حمدان أن يصيب هؤلاء مكروه فرتب لهم رجالا يحرسونهم فى طريقهم حتى يوصلوهم الى مأمنهم ·

ثم فاجأ الناس بعد ذلك باعلان براءته من دين الامام الكاذب ومذهبه القائم على التضليل والالحاد والاباحة ، وتوبته الى الله من كل ذلك ورجوعه الى الدين الحنيف · فهاج دعاة المذهب وماجوا ، فأمر بالقبض عليهم واستتابتهم ، فمن تاب تركوه ومن أبى قتلوه ، وأفلت بعضهم فهربوا ولحقوا بذكرويه ·

ولما استحر القتل فى هؤلاء بأيدى زبانية جلندى الرازى وقع ذلك من نفوس رجال الجيش ، حتى تناجى بعضهم بالخروج على حمدان ، فجمع قوادهم ورؤساءهم فقال لهم : « قد بلغنى أن بعضكم يريدون الخروج على ، وانني أدعوكم ألا تفعلوا ، فطالما أحسنت اليكم وضاعفت لكم أرزاقكم وفضلتكم على غيركم ، فعزيز على أن تخونونى فتخونوا أنفسكم وشرفكم » ·

فقالوا له : « فماذا يكون مصيرنا ان بقينا على هذه الحال معك؟»

فقال لهم : « قد تعلمون مكانكم عندى ، فأنا أدعوكم الى خير من ذلكم · هذا خليفة المسلمين المعتضد قد أجرى فى بلاده العدل ، وقد جعل من سياسته أن يقبل من يلجأ اليه من رجالنا وأهل مملكتنا ، فيكرمهم ويحتفى بهم وأنتم الوجوه والرؤساء فجدير به أن يعرف لكم أقداركم ان لحقتم به · وقد جعلتكم فى حل منى أن تبرأوا منى عنده ، وتقولوا عنى ما تشاءون »

وكانوا يحبون حمدان ويعزونه من صميم قلوبهم ، فحين سمعوا منه هذا الكلام جاشت عواطف الرقة فى صدورهم ، ففاضت عيونهم بالدمع ، وجعلوا يقولون له : « سامحنا يا حمدان

واعف عنا ٠ أما انك لأنبل الرجال وأكرمهم ٠ والله لا ندع ذكرويه السلماني يظهر بنا عليك » ٠

فشكرهم حمدان على اخلاصهم ومودتهم ثم قال لهم : « هأنذا قد جعلتكم أحرارا تختارون لانفسكم ما شئتم ، فمن أراد اللحاق بالخليفة فليفعل ، غير مقلي مني ولا مودع ، ومن شاء البقاء معي حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا فليفعل ، وله علي أن أحيا معه وأموت معه ٠ بيد أني أوثر لكم الاولى ، فهي خير لكم ولاهليكم ، فلا يصدنكم عنها حياؤكم مني ٠ وبعد فقد نصحتكم وأبلغت فانصرفوا وبلغوا هذا لرجالكم جميعا فأنتم سواسية » ٠

فانصرفوا من عنده يتحدثون بفضله ويعجبون بصراحته وايثاره ٠

- ٢٢ -

كان حمدان قد أفرج عن عالية منذ بلغته خيانة عبدان فصارت تستقبل في قصرها من تشاء من نساء مهيماباذ فتعظهن وتنصحهن بالرجوع الى دينهن ، كما كانت تفعل من قبل ٠ وكان حمدان ربما جلس اليها يستمع منها الى ما تيسر من القرآن وهي تتلوه من مصحفها ٠ وكان يرى ابنه الغيث يؤم عمته وزوجته بالصلاة فينظر اليهم واجما ولا يقول شيئا ، وكانت عالية تحضه على التوبة والرجوع الى دين أبيه وجده وتدعوه الى القيام معهم للصلاة فيقول لها : « دعيني يا عالية الآن ، حتى يشرح الله صدري لما يريد »

أما راجية وشهر فقد غمهما ما كان من عبدان ، وساءهما انشقاقه عن حمدان ، وان عذرتاه في سريرتهما ، لما كان يلقى من عنت حمدان واعتراضه الدائم عليه في شعائر المذهب وحق الامام ٠ وقد حارتا في موقفهما من هذين لا تدريان الى أيهما تميلان ٠ ثم رأتا أن تتربصا حتى ينجلي الحال بينهما ٠ وكأن اتفاق هاتين في هذا الخطب قد قرب ما بينهما ، وأزال ما كان في باطنهما من قواطع الغيرة والضغن ، فاصبحتا متحابتين متعاونتين ٠ وقد أشفقتا على المذهب من أول ما بلغهما خبر الإنشقاق ، وتوقعتا أن يجور حمدان على كثير من شعائره ٠ ولم يلبث أن صح ما توقعتاه ، اذ أفرج حمدان عن عالية وأباح لها أن تفتن نساء العاصمة عن مذهبهن كما تشاء ، ثم أبطل ليلة الامام ، فكان ذلك عندهما الطامة الكبرى ٠ وقد اجتهدت

شهر أن تصرفه عن ذلك بأسلوبها الذى تتسلط به عليه ، فلم تقدر ، فأيقنت أن سلطانها عليه قد زال أو كاد • ثم أخذ ينفر منها شيئا فشيئا ، كلما أكثر التردد على قصر أخته الكبرى الى أن هجرها آخر الامرفانتقلت من قصره وسكنت مع راجية •

فلما أعلن حمدان براءته من المذهب ورجوعه الى الدين الحنيف سرت عالية سرورا عظيما ، فانطلقت الى قصره لتهنئه ، فوجدته قائما يصلى بخشوع فما ملكت دمعها من الفرح • وصعقت راجية ونزيلتها فطفقتا تأتمران وتتشاوران •

فكان من رأى شهر أن تهربا من مهيماباذ وتلحقا بعبدان • فتوقفت راجية فى أول الامر اذ تذكرت ما بين صاحبتها وبين زوجها من الود فشكت فى نيتها ، وعز عليها أن تساعدها على بلوغ مرامها من حيث لا تفيد هى شيئا ، لانها تنفر من زوجها عبدان ولا تريد أن تراه ، ولكنها مع ذلك تأبى أن تنافسها شهر فيه •

وظلت شهر تلح عليها فى الفرار ، وتؤيدها فى ذلك الفاختة ، فتمتنع راجية ، الى أن قبض حمدان على الدعاة فاستتابهم وقتل من ثبت على المذهب منهم • فقالت شهر لراجية : « ان أبيت الا البقاء تركناك وهربنا أنا والفاختة » • ووافقتها الفاختة على رأيها وعزمت على عمتها أن تفعل • فترددت راجية قليلا ، ثم أومض فى ذهنها ذكرويه ، فلان عصيها فقالت لهما : « انى ماضية معكما حيثما تريدان » •

وما هى الا أيام حتى وصل الى علم حمدان فرار النسوة الثلاث بمعاونة أحد المتشيعين لذكرويه ، فلم يظهر عليهن أى أسف بين من حضره من رجاله ، ولكنه لما خلا بنفسه تنهد وقال : « أواه ما أشقانى بأهلى ! » •

وقد دعاه فرار أخته الصغرى وابنته الى التفكير فى مصير عالية والغيث ومهجورة وهم بقية أهله ، وكلهم عزيز عليه لا يطيق أن يمس أحدا منهم مكروه • وتعجب من نفسه كيف نسى حتى اليوم أن يفكر فى مصيرهم ، وقد رأى الناس يهجرون البلاد لا يلوون على شىء ، ورأى جنوده ورؤساءهم يودعونه كل يوم ، والعبرة فى عيونهم ، ليلحقوا بالخليفة ، واستحيا بعضهم من عينه أن تراهم وهم يتركونه ، فارتحلوا دون أن يودعوه •

فتردد طويلا فيما يصنع بهؤلاء الثلاثة الاعزاء ، ثم قر عزمه على ترحيلهم الى الخليفة كأنهم لاجئون اليه متبرئون من حمدان وشيعته ومذهبه ، وهو لا يشك أن الخليفة سيكرم مثواهم ويهيىء الخير لهم • ولما أخبرهم بعزمه وفاوضهم فى ذلك بكى الثلاثة واستعبروا وقالوا قولا واحدا : « دعنا نبق معك هنا • لا نستطيع أن نخليك وحدك » فقال لهم : « كلا لا سبيل الى بقائكم فى هذى الدار ، فانى أخشى أن تقعوا فى أيدى القوم الفاسقين ! » فقالت عالية والدموع تنهمر من عينيها : « فارحل بنا اذن الى جهة نائية لايعرفنا فيها أحد » فأجابها حمدان بلهجة صارمة : « كلا يا عالية والله الذى هدانى بعد الضلالة لا أدع مهيماباذ تسقط فى أيديهم فيشنون الحرب منها على خليفة المسلمين وفى نفس يتردد ! » •

ــ فهل تنوى أن تبقى فيها حتى تموت ؟ •

ــ الموت والحياة فى يد الله يا عالية ، ولكنى سأظل فيها ولا أبرحها حتى يرتحل أهلها جميعا فلا يستعبدهم أولئك الملحدون

ــ هلا سلمتها اليوم الى الخليفة فيحميهم جنوده ويشملك بعفوه ! •

ــ وددت يا أختاه لو كان ذلك فى وسعى ! •

ــ هذا يسير عليك يا أخى ، فما يمنعك ؟ •

فتنهد حمدان وقال : « يمنعنى من ذلك يا أختاه نفسى التى تأبى أن تستعطف أحدا غير الله عز وجل » •

* * *

وشعر حمدان ــ على شدة التياعه لفراق هؤلاء الاعزاء واستيحاشه بعدهم ــ كأنما كان يحمل عبئا ثقيلا قبل سفرهم فخف بعده عن ظهره • اذ اطمأن اليوم على تلك الفلذ الثلاث من كبده ، فما عاد يخشى عليها من ذل الحياة وسوء المصير •

واستوحش من السكنى فى القصر وحده ، فأسكن عنده نفرا من صفوة رجاله يسمرون معه ويؤنسون وحدته •

واستمر حمدان يدبر شؤون مملكته التى تتناقص أطرافها ، ويقل سكانها يوما فيوما ، وهو يعتمد فى ذلك على رجاله الذين بقوا معه وأبوا أن يتخلوا عنه بعد ما أذن لهم فى ذلك ، وعلى جلاوزة جلندى الرازى وزبانيته الذين بقوا جميعا ولم يخطر ببال أحد منهم أن يتخلى عن جلندى أو عن حمدان •

وكان يفرح كلما رأى أن ناحية من بلاده قد ترحل أهلها واحتملوا متاعهم فلا يجد المغيرون من عصابات ذكرويه مايغيرون عليه • وأمر رجاله فأخذوا يحرضون من بقي من السكان في القرى القريبة من العاصمة أن يعجلوا بالرحيل من ديارهم الى النواحي التى قد أظلها سلطان الخليفة فعاد اليها أهلها بعد ما ارتحلوا عنها من قبل •

وهكذا جعلت مملكة حمدان يضيق اتساعها من أطرافها كلما امتد اليها سلطان الخليفة ، فكان حمدان يفرح لذلك •

وأخذت هجمات ذكرويه تقترب من عاصمة حمدان شيئا فشيئا حتى لم يعد أمامه غيرها وغير القرى التى فى ضواحيها وأوباضها • وكان معظم سكان العاصمة قد ارتحلوا عنها ، فلم يبق فيها الا حمدان ورجاله ، يصدون الغارات ، ويدفعون العصابات ، ويحمون من بقى بعد من السكان ريثما يتمكنون من الرحيل •

وأدرك حمدان يوما أنه قد أدى الامانة التى فى عنقه ، وأن رجال ذكرويه لن يجدوا فى مهيماباذ ما يستطيعون أن يثبوا به على الخليفة ، وقصارى أمرهم ان هم دخلوها أن يقيموا فيها أياما معدودة ، ينهبون ويسلبون فيها ما يجدون مما خلفه أهلها ، ثم يهربون الى الصحراء فرارا من جند السلطان •

فجمع من بقى من رجاله فقال لهم : « قد قضيتم لى حق الوفاء والاخوة ، فأنتم اليوم فى حل منى ، فألحقوا بخليفة المسلمين ، ولأمض أنا لطيتى ، ولترعكم عين الله ! » •

ولما ساد الظلام تفرقوا وارتحلوا ولم يبق مع حمدان الا جلندى الرازى •

قال جلندى لحمدان وهما يسرجان جواديهما فى مربدالقصر : « الى أين نمضى يا حمدان ؟ » •

فأجابه حمدان بصوت حزين : « الى حيث لا أدرى يا صاح ! » •

ـ هل لى أن أقترح عليك ؟

ـ افعل يا جلندى فانك لذو رأى •

فسكت جلندى قليلا كأنه يهاب أن يقول •

ـ ماذا بك ؟ قل •

ـ ولى الامان من غضبك ؟ •

ـ كيف أغضب عليك وأنت صفيى الوحيد ؟ •

ــ فهلم بنا الى الرى نعش هناك فى خفض ونعيم ·
ــ ويلك أين منا الرى ؟ هلا اقترحت بلدا أقرب ؟ ·
ــ فان فيها أهلى وعشيرتى ·
ــ أأردتنا أن ننزل بها كلا على أهلك المعدمين ؟ ·
ــ انهم ليسوا اليوم معدمين فقد ملكوا الضياع والقصور من نعمتك ·
ــ من نعمتى ؟
ــ نعم ، فقد كنت أبعث اليهم الذهب والورق من فضل نعمتك على ·
ــ ويلك أو قد فعلتها ؟ ·
ــ حنانيك يا حمدان ، فقد جعلت لى الامان من غضبك ·

فزفر حمدان زفرة الغيظ والغضب وقال له : « اخسأ يا خائن ! أفى هذا تأمن غضبى ؟ » فارتعد جلندى واعتمد بيديه على سرج الجواد ليخفى به ارتعاشهما ثم قال بصوت مرتجف : « انى ما فعلتها وحدى يا حمدان فقد فعلها كثيرون »

ــ من هم ويلك ؟ ·
ــ اسحق السوزانى ، وعكرمة البابلى ، وعلى بن يعقوب القمر · · · و · · ·
ــ ومن بعد ؟
ــ و · · · ذكرويه ·
ــ ذكرويه الخائن ! اذن فقد كنتم جميعا خونة ! اغرب عن وجهى ! ·
ــ اعف عنى يا حمدان ·
ــ لا سلطان لى عليك اليوم ولا على أحد غيرك ، فلا أملك العقوبة ولا العفو ·
ــ بل ما زلت سيدى ورئيسى ، وأنا عبدك وخادمك ، فاعف عنى ·
ــ هيهات ! قد انتهى كل شىء · فاغرب عن وجهى ·
ــ فأين تذهب يا حمدان ؟ ·
ــ لا شأن لك بى · فامض عنى · امض الى الرى فاستمتع فيها بما سرقته من حقوق العمال والفلاحين · امض لعنة الله عليك ! ·

ومضى جلندى يسير به جواده هونا حتى اختفى عن عين

حمدان . فوثب حمدان على جواده وهو يقول : « حتى أنت يا جلندى ! » ثم همزه فانطلق به قليلا صوب الشرق ، ولكنه جذب عنانه فدار به ووقف لحظة ينظر الى القصر وقال : « أين السبيل يا مهيماباذ ؟ »

وما أتم كلمته هذه حتى همز الجواد كرة أخرى فانطلق به يعدو صوب الغرب ، فقطع دروب المدينة الخالية ، وخرج من بابها الغربى فانحدر من السفح حتى اذا كان فى منتصفه شعر بفارس يعدو خلفه فظنه فى أول الأمر جلندى قد جاء يتبعه ، فأحضر جواده ملء عنانه ليفوت جلندى فلا يدركه . فلما بلغ السهل زاد في سرعة جريه فمضى كالريح يطوى الارض طيا ، وقد ظن أنه قد فات الفارس ، فاذا الفارس يطلع له من جهة يمينه ، فأيقن أنه عدو يطلبه . وتعجب من سرعة جريه كيف أمكنه أن يلحقه ، وعهده بنفسه أنه قلما يسبقه فارس . فضاعف جريه لعله يعجز الفارس عن اللحاق به ، فاذا هو قد صار قريبا منه . فلما رأى ذلك استعد لملاقاته ، فعطف عنان الجواد ليستقبله ، فاذا هو قد وقف أمامه على قيد رمح .

قال له حمدان : « من تكون ؟ » .

ـ لو عرفت اسمى لهبتنى ، ولكن دعنا نتبارز !

ـ دعنى فانى فى شغل عنك .

ـ كلا والله لا أدعك .

ـ ثكلتك أمك ! لا تدعها تبكى شبابك اذ تبارز رجلا فى الستين لا يبالى أن يحيا أو يموت .

ـ ويلك انى أسن منك فقد جزت السبعين .

فظنه حمدان يسخر ، وكان قد ضاق بمطاولته ، فحمل عليه بسيفه وهو يقول : « فدع حفيدتك تبكيك ! » .

فاذا السيف قد سقط من يد حمدان ، واذا الفارس قد وثب عليه فاعتنقه على جواده وضمه ضمة شديدة ، فدهش حمدان وقال له : « بالله من أنت ؟ » .

ـ أما عرفتنى بعد ؟ .

ـ لا والله ولا رأيتك .

ـ أجل انك لم ترنى ولكنك تعرفنى !

ـ من ؟ .

ـ شيخك القديم أيها العيار الدورى !

ـ سلام الشواف !
ـ نعم ، أنا هو قد جئت لأهديك السبيل ·
ـ لكنك · · ·
ـ لا لا ما قتلت ، وانما برحت ناحيتكم الى ناحية أخرى ·

ورجع الشيخ الى جواده فتضاءل حمدان أمامه ، ولكنه لم يشعر فى نفسه بغضاضة من ذلك · واطمأن بصحبته فزال عنه شعور الهارب المطلوب ، فبقى واقفا حتى نبهه الشيخ الى وجوب السير ، فسارا هونا متجاورين ، والشيخ يقص عليه كيف كان يتتبع أخبار حمدان منذ خرج على السلطان ، وأسس مملكة مهيماباذ ، الى أن ضعف أمره فيها فجاء هو فى اللحظة الحرجة ليأخذ بيد تابعه القديم · وبقيا سائرين كذلك ، وحمدان مصغ الى أحاديث الشيخ لا يقضى منها العجب ، حتى لاحت لهما معالم قرية الدور فى بقايا ضوء القمر الغارب فتذكر حمدان حاله فأراد أن يسأل صاحبه الى أين يمضى به لولا أن الذكرى جاشت فى نفسه لما رأى مسقط رأسه · فوقفا ينظران الى القرية فما لبث أن استعبر حمدان ، اذ انتفضت ذكريات تسع وعشرين سنة حافلة بالخطوب والاحداث ، فجعلت تمر بذهنه كأنها موكب عظيم الطول والعرض ·

وأدرك الشيخ ما به ، فتركه قليلا يقضى لبانته من الذكرى حتى اذا نبهه الى المسير قال له حمدان : « الى أين ؟ »

ــ الى بغداد ·

فريع حمدان وخطر له أن الشيخ ربما يريد أن يسلمه الى المعتضد ، ولكنه طرد هذا الخاطر من نفسه ، اذ ذكر أن آداب العيارة لا تأذن بمثل هذا الغدر ، فقال له « ماذا نصنع فى بغداد ؟ »

ــ ألا تذكر صاحبيك بهلول وعبد الرؤوف ؟
ــ بلى ، أهما حيان يرزقان ؟
ــ نعم ، هما هناك وستنزل عند عبد الرؤوف فلا يعرفك أحد

فتردد حمدان قليلا ، ثم تذكر أن عالية والغيث هناك ، وأنه قد يتاح له أن يراهما ·

فقال : « هلم اذن فانى والله لفى شوق اليهما »

ــ وسترى أبا البقاء هناك ان شئت ·
ــ أبا البقاء البغدادى !

ــ نعم ، فانه يزور عبد الرؤوف أحيانا • أفلا تحب أن تراه ؟
ــ بلى والله لوددت لو رأيته فقبلت ما بين عينيه • ولكن بأى وجه أقابله ؟
ــ انه يحبك يا حمدان ويعجب بك •
ــ يحبنى !
ــ لا تعجب فلولا أنت لما كان له شأن ، ولولا هو لما سقطت يا حمدان ، فهل تجد عليه أنه أسقطك ؟
ــ كلا والله انى لاحبه وأجله فى نفسى • ولئن أسقطنى لقد رفع منار العدل !
ــ أجل ، هذه سنة الله • ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض •
ومضى الصديقان القديمان فى طريقهما حتى غرب لقمر فحجبهما الظلام •

« تمت »

للمؤلف

١ ـ اخناتون ونفرتيتي
٢ ـ سلامة القس
٣ ـ وا اسلاماه
٤ ـ قصر الهودج
٥ ـ شيلوك الجديد
٦ ـ ليلة النهر
٧ ـ الفرعون الموعود
٨ ـ ابراهيم باشا
٩ ـ سر الحاكم بأمر الله
١٠ ـ عودة الفردوس
١١ ـ الدكتور حازم
١٢ ـ روميو وجولييت
(مترجمة عن شكسبير)
١٣ ـ الثائر الاحمر
١٥ ـ السلسلة والغفران
١٤ ـ مأساة اوديب
١٦ ـ ابود لامة
١٧ ـ مسمار جحا
١٨ ـ مسرح السياسة

تحت الطبع

١ ـ امبراطورية فى المزاد
٢ ـ اله اسرائيل
٣ ـ سفر الخروج الاخير
٤ ـ سر شتهر زاد
٥ ـ هاروت وماروت
٦ ـ أوزيريس
٧ ـ الدنيا فوضى

الكتاب الذهبى

العدد السابع عشر اكتوبر ١٩٥٣

يصدر عن دار روز اليوسف

١٨ شارع محمد سعيد ـ القاهرة

تليفون : ٢٠٨٨٦ ـ ٢٠٨٨٧ ـ ٢٠٨٨٨

الاشتراكات :

مصر ١٢٠ قرشا عن سنة ـ ٦٠ قرشا عن نصف سنة .

الخارج ١٨٠ قرشا عن سنة ـ ٩٠ قرشا عن نصف سنة .

الاعلانات يتفق عليها مع الادارة

رئيس التحرير المسئول : سعد الكفراوى خليل

حديث الشهر

توفيق الحكيم فى زفة

كنا نتحدث فى احدى ندواتنـــا فى نادى القصة الجو الذى يفضـــل أن يكتب فيه الكاتب قصة فقـال توفيـق الحكيم ان الجو يتطور بتطـور السن والظروف وانه فيما مضى كان يسخر من ان بعض الكتاب لا يستطيعون الكتابة الا فى جو هادىء لانه هو نفســـه لا يستطيع الكتابة فى الضجة والضوضاء وانه حدث وهو يكتب عودة الروح ان جلس فى مقهى بلدى فى احد الاحياء الوطنية فى الاسكندرية وبدأ الكتابة وسط الضوضاء وفى خلال انهماكه فى الكتابة احس بان الضوضاء قد زادت فازداد انهماكا واخذ حماسه يشـــتد كلما سمع الصياح يشتد وهو يعتقـد انها ضجة المقهى الطبيعية التى اعتاد ان يسمعها كل يوم ·

وهكذا زاد انتعـاش توفيق الحكيم بازدياد الضجة حتى حتى شعر فجأة بفرقعة فوقه واذا باحد الكلوبات يهوى اثر اصابته بشومة من احد الفتوات واذا بالضجة التى ظنها توفيق الحكيم ضجة المقهى الطبيعية هى ضجة خناقة فى زفة واذا بالضرب يتهاوى عليه والصفافـير تدوى من حوله واذا بيد ثقيلة تهـوى على عنقه واحد العساكر يصيح به : « فوت قدامى على القسم » وحاول عبثا ان يفهمه انه مؤلف غلبان وليس له بالمعركة اى دخل ·

ومن ذلك اليوم وقد اقتنع توفيق الحكيم ان الضجيج لا ضرورة له قطعا فى التاليف ·

« يوسف السباعى »



